المعمرون والوصايا

لأبى حاتم السجستانى

٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م

تحقيق

عبد المنعم عامر

١٩٦١

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حفلت مجالس الخلفاء فى العصر العباسى (١٣٢ : ٦٥٦ هـ - ٧٤٩ : ١٢٥٨ م) بطائفة كبيرة من الرواد الأوائل فى رواية الأدب العربى ، الذين يجتمعون فيسمرون به فى مجالسهم ، ويتذاكرون على صفحته ماضى آبائهم وأجدادهم ، فيأخذون منه الحكمة والعلم ، ويستنُّون هديه فى الإبانة والقول ، ويجد فيه الخلفاء سير من سبقوهم فى الولاية على الناس مسطورة بالروح العربية ، معلمة بتلك الألوان التى أضفاها الشعراء على الملوك والأمراء والحاكمين .

ولقد امتاز العصر العباسى بأنه العصر الذى عنى فيه الأدباء بتدوين اللغة العربية ، آدابها وألفاظها ، شعرها ونثرها ، حفاظا على التراث العربى ، وتسجيلا للغة العربية التى سادت الشرق الأدنى والأقصى وبلاد المغرب ، وسيطرت على عقول أبناء الدول التى خضعت لحكم العرب .

وقد ظهرت فى هذا العصر مدارس عديدة تضمها مساجد البصرة والكوفة ، وينتظم فيها علماء اللغة والأدب من العرب والمولدين الذين شاركوا فى فن التأليف والنقد ، وأقاموا الإنتاج الأدبى على الأسس العلمية التى تحولت بها الدراسات العربية من نظريات بدائية إلى علوم تامة وقواعد منظمة ، فصار النقد الأدبى قائما على قوانين ومعايير معلومة بدل أن كان متمشيا وفق الذوق الفطرى والأحاسيس الفردية .

وكان طبيعيا أن تقوم إلى جانب هذه النهضة الأدبية والتأليفية سوق للوراقة ، تضم الكتب فى أشكالها المختلفة ، وتعنى بتسجيل الرواية فى ألوانها العديدة ؛ وما كانت هذه الوراقة مقصورة على بيع الكتب للراغبين فى حيازتها ، وإنما كانت محالها مراكز ثقافية تضم كل الأعمال التى تسبق حياة الكتاب من رواية ونسخ ، وتقوم فيها الخدمة المكتبية غير الموقوتة بزمن فى ليل أو نهار على خير ما تؤدى المكتبات رسالتها ؛ وكان الوراقون ذوى أدب وعلم وذوق فنى ، يهرع إليهم المتأدبون

فيأنسون بهم ويجدون عندهم الهداية لخير ما يعرفون ؛ وقد تخرج فى دكاكين الوراقة علماء وأدباء قادوا النهضة الفكرية فى العالم العربى ، وبرزت آثارهم بين التراث الثقافى مراجع أولى للدارسين .

***

ومن بين هؤلاء الوراقين سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشيمى بن القاسم ، الإمام أبو حاتم السجستانى ، البصرى ، الكوفى ، المقرى ، صاحب كتاب المعمرين ، وكتاب الوصايا اللذين أنشرهما فى هذه الطبعة ، فقد كان جمّاعة للكتب ، يتجر فيها ، وكان إماما فى علوم اللغة والأدب ، والقرآن والشعر ، وصاحب مؤلفات عديدة ، ذكرها ابن شاكر المؤرخ فى كتابه « عيون الأخبار » ـ مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ بدار الكتب المصرية ـ فقال :

« وله كتاب إعراب القرآن ، وكتاب ما يلحن فيه العامة ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المقاطع والمبادئ ، وكتاب القراءات ، وكتاب الفصاحة ، وكتاب الوحوش ، وكتاب اختلاف المصاحف ، وكتاب الطير ، وكتاب النخلة[1] ، وكتاب القسى والنبال والسهام ، وكتاب السيوف والرماح والدرع والفرس ، وكتاب الحشرات ، وكتاب الهجاء ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الإدغام ، وكتاب اللبن والحليب ، وكتاب الكرَم ، وكتاب الشتاء والصيف ، وكتاب النحل والعسل ، وكتاب الإبل ، وكتاب العشب ، وكتاب الخصب والقحط ، وكتاب الأضداد ، وغير ذلك » .

وقد ولد أبو حاتم السجستانى فى وقت ما حوالى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) ومات فى سنة ٢٤٨ هـ ، أو سنة ٢٥٠ هـ ، أو سنة ٢٥٤ هـ على ما عليه الخلاف بين الرواة ؛ وبين هذين الزمنين ، المولد والوفاة ، عاش أبو حاتم السجستانى حياة طويلة ، نشأ فيها تلميذا على الأخفش ، إمام اللغة ، فقرأ عليه كتاب سيبويه مرتين ؛ وجلس إلى العلماء

---

(١) طبع فى بالرمو بصقلية سنة ١٨٧٣ ، وقد نشره الأستاذ « لاغومينا » ، ومعه ملحوظات باللغة الإيطالية .

غيره، وروى عنهم، أمثال أبى عبيدة ، وأبى زيد ، والأصمعى ، وعمر بن كركرة ، وروح بن عبادة ؛ ثم صار أستاذا يحضر حلقته فى مسجد البصرة المتأدبون ، أمثال أبى العباس المبرد ، العالم اللغوى المشهور ، وقد روى عنه أبو بكر بن دريد عالم اللغة.

ويروى الإمام العالم جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) فى كتابه « بغية الرواة » صحيفة ٢٦٥ من الطبعة الأولى لمطبعة السعادة سنة ١٣٢٦هـ أن أبا حاتم السجستانى دخل بغداد ، فسئل عن قوله تعالى : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » . ما يقال منه للواحد ؟

فقال : قِ .

فقال : فالاثنين ؟

فقال : قِيَا .

قال : فالجمع ؟

قال : قُوا .

قال : فاجمع لى الثلاثة .

قال : قِ ، قِيَا ، قُوا .

قال : وفى ناحية من المسجد رجل جالس ، معه قماش ، فقال لواحد : احتفظ بثيابى حتى أجىء .

ومضى إلى صاحب الشرطة ، فقال : إنى ظفرت بقوم زنادقة ، يقرءون القرآن على صياح الديك .

قال: فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة، فأخذونا، وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة ، فسألنا ، فتقدمت إليه وأعلمته الخبر .

وقد اجتمع خلق من خلق الله ينظرون ما يكون .

فعنّفنى ، وعذلنى ، وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ؟ !

وعمد إلى أصحابى ، فضربهم عشرة ، عشرة ، وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا .

فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعا ، ولم يقم ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها .

وترك أبو حاتم النحو بعد اعتنائه به حتى كأنه نسيه ، وكان إذا اجتمع بالمازنى فى دار عيسى بن جعفر الهاشمى تشاغل وبادر بالخروج خوف أن يسأله مسألة فى النحو.

وكان أبو حاتم أعلم الناس بالعروض واستخراج المعمّى ، ويعد من الشعراء ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وروى له النسائى فى سننه ، والبزار فى مسنده .

* * *

ويروى المؤرخون فى كتبهم، المخطوط منها والمطبوع، شعراً لأبى حاتم السجستانى قاله فى تلميذه أبى العباس المبرد وهو غلام وسيم ، وقد كان يلازم القراءة عليه .

فذكر ابن شاكر فى كتاب عيون الأخبار (مخطوط) أبياتا للسجستانى فى المبرد، منها:

نَفْسِي فِدَاكَ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ، جَلَّ بِكَ اعْتِصَامِي
فَارْحَمْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ نَزْرُ الْكَرَى بَادِي السَّقَامِ
وَإِنَّكَ مَا دُونَ الْحَرَا مِ ، فَلَيْسَ يُرْغَبُ فِي الْحَرَامِ

وجاء فى كتاب بغية الوعاة لجلال الدين السيوطى أبيات أخرى منسوبة إلى السجستانى قالها فى المبرد ، منها :

أَبْرَزُوا وَجْهَكَ الْجمِيلَ ، وَلَامُوا مَنِ افْتَتَنْ
لَوْ أَرَادُوا صِيَانَتِي سَتَرُوا وَجْهَكَ الْحَسَنْ

وهذا اللون من الشعر كان قد شاع ذكره فى العصر العباسى .

* * *

ويعتبر كتاب « المعمرين » من أهم الكتب التى خلفها أبو حاتم السجستانى ، فالكتاب فى مادته الفنية لون غير معروف فى أغراض الشعر الجاهلى ، وهو جملة مختارة من الشعر العربى القديم قام بجمعها أبو حاتم من بطون الكتب القديمة ، المعروفة فى زمانه ، وقد صار أمرها إلينا مجهولا ، وتمثل هذه المجموعات الشعرية فنا من الشعر الجاهلى ، وصف فيه الطاعنون فى السن ما يلقونه من طول حياتهم ، فرسموا بين سطوره أجسامهم وقد شفها الكبر ، وأحلامهم وقد ذهب بها الضعف ، وهم

ينظرون إلى ماوراءهم فيذكرون أيامهم الخوالى، ويندبون فتوتهم، ونشاطهم، وسيادتهم فى قومهم ، كل هذا فى تصوير رائع من الفن الواقعى ، والأسلوب الجميل .

وإن القارئ لكتب الأنساب ، والمطلع فى كتب الأدب المراجع ليرى فيها كثيراً من الشعر لمعمّرين ذكرهم أبو حاتم فى كتابه ، وهى منبثة فى ثنايا الأخبار الأدبية الطوال ، ويقرأ فيها أيضا أخبارا أخرى لمعمرين لم يذكرهم السجستانى فى كتابه ، وقد روى عنهم المؤرخون من بعده ، ولكن كتاب المعمرين يعتبر بحق الكتاب الأول الذى انفردت مادته بجمع جملة كبيرة من أقوال المعمرين ، وبخاصة أولئك الذين عاشوا فى العصر الجاهلى وفى عصر صدر الإسلام ، فكلّ ما رواه أبو حاتم فى كتابه قد ورد فى ثنايا الكتب ، وليس كل ما ورد فى الكتب مذكورا فى كتاب المعمرين ، وهذا هو الدليل على سبق أبى حاتم فى الاختيار والتعليق .

***

وإنه لما يلفت نظر دارس كتاب المعمرين أن يجد رواية الأخبار فى جملتها منسوبة إلى « أبى روق » تلميذ أبى حاتم وهو الذى نقلها عن أستاذه كما سمعها وكما كتبها ، ويذكر «أبو روق» النصّ، ويقول قبله «حدثنا أبو حاتم»، وفى بعض الأحيان يضيف أبو روق نصوصا أخرى من مراجع ثانية ، كالحديث عن أبى عمرو الخلّاد ، وعن الرياشى . وعند ما يعود « أبو روق » إلى نص « أبى حاتم » يقول « أبو روق » « قال أبو حاتم » ، على أن « أبا روق » لا يلتزم هذه الطريقة فى رواية بعض النصوص ، مثل الكلام عن ذى الإصبع الشاعر ، فإن القارئ لا يستطيع أن يستبين حدود ما أضافه أبو روق مما ذكره أبو حاتم ، ولعل هذه الإضافة لا تزيد عن نهاية الأبيات التى رواها لذى الإصبع .

وقد عمد أبو روق إلى بعض النصوص التى رواها عن أبى حاتم، فوكّدها بروايات أخرى كالحديث الذى رواه أبو حاتم عن الرياشى ، عن الهيثم بن الربيع ، عن الشعبى لما أرسل إليه عبد الملك بن مروان وهو شاكٍ ؛ فقد أكد نصه أبو روق بروايته عن أبى الخطاب، زياد بن يحيى الحسّانىّ .

وأبو روق راوى الكتاب هو أحمد بن محمد بن بكر الهزّانى ، وقد ورد اسمه مكتوبا بالكامل فى كتاب المعمرين أثناء الحديث عن نصر بن الحجاج بن عِلاط السُّلَمِىّ ولقائه معاوية بن سفيان «صحيفة ١٠١» ، وليس هو أباروق ، عطيّة بن الحارث ، المفسِّر الذى ذكره ابن دريد فى كتابه « الاشتقاق » ، وذكره الطبرى فى الجزء الأول من تفسيره كثيرا ، فى صحيفة ١ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٨٦ ، وإنما هو الذى ذكره جلال الدين السيوطى فى كتابه المزهر ، صحيفة ٢٠٤ من الجزء الثانى ، باسم أبى روق الهمدانى ، وقد أخطأ الناسخ فى كتابة كلمة «الهزّانى» فقرئت من بعده «الهمدانى» .

على أن أصحاب كتب التراجم لم يذكروا شيئاً فى كتبهم عن أبى روق الهزّانى راوى كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ، ويظهر أن « أبا روق » لم يكن فى عداد العلماء المشهورين المعروفين الذين زخر بهم العصر العباسى ؛ هذا إلى أن إهمال « كتاب المعمرين » وعدم استعماله فى الزمن القديم كان له أثره فى اختفاء اسم « أبى روق » من كتب الأدب العربى . وعلى أى حال فإن أبا روق لم يكن إلا راوية للكتاب عن أبى حاتم السجستانى ، ولم يكن مؤلفا له .

وقد ورد ذكر كتاب المعمرين فى كتاب « الغرر والدرر » للعلامة العلوىّ ، أبى القاسم على بن الحسن الشريف المرتضى ، المتوفى سنة ٤٣٦ ﻫ ، وفى كتاب الإصابة لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ ﻫ ، وفى كتاب خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ، عالم القرن الحادى عشر ، وفى كتب أخرى غيرها منسوبا إلى أبى حاتم السجستانى . وقد أشار ابن دريد فى كتابه الاشتقاق إلى كتاب المعمرين ، وروى عنه جملة من أخباره .

وإن القارئ لسير المعمرين وأخبارهم وأشعارهم التى وردت فى « كتاب المعمرين » ليدرك أن الشعر فى غالبه يرجع إلى قبائل جنوب بلاد الجزيرة العربية (الحميريين) لفظا ، ومعنى ، ونظما ، وأنه يعود إلى عصر الجاهلية حقيقة ، وليس ببعيد أن يكون بعض هذا الشعر منظوما فى العصر العباسى ، وقد نسب إلى العصر الجاهلى زيفا وبهتانا من

خلف الأحمر ، أو من محمد بن سلام ، أو من مسافع ، أو من فالج بن حلاوة ، كما يذهب بعض النقاد للشعر الجاهلى اعتمادا على المقاييس النقدية التى تمتاز بها العصور الأدبية ، ولكن هـذا التشكيك بعيد الاحتمال فيما رواه أبو حاتم ، فهذا اللون من الشعر يمثل البيئة الجاهلية تمثيلا صادقا ، ويصور الحياة البدوية تصويرا حقيقيا ، وقد كان معروفا بين الأغراض الشعرية ، وكان له حظ وافر بين أبواب الأدب العربى .

وقد نشر المستشرق الألمانى « نولدكه » أبياتا من هذا الشعر الجاهلى عن المعمّرين لعروة بن الورد ، وعمرو بن قميئة ، وسلام بن الجندل ، وهم يصفون الشيب ، ويشكون من طول الحياة ، وجاء فى كتاب الأغانى صحيفة ٦٩، ٩٣ من الجزء التاسع عشر شعرا فى هذا المعنى لمقنّع الكندى ، ومساور بن هند ، ومخضرم ربيعة ابن مقرون ، وجعْد المحاربى من شعراء العصر الأموى ، وكلهم يشكون طول الحياة ، ويتحسرون على الأيام الخوالى .

* * *

وليس هناك شك فى نسبة كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى ، فإن الدراسة الشكلية للمخطوطة الأولى التى قام بدراستها المستشرق الألمانى جولدزهير Ignaz Goldziher تؤكد صحة هذه النسبة ، وقد نشر هذا المستشرق دراسته فى سنة ١٨٩٩م بعد أن حصل على أقدم نسخة معروفة لمخطوطات كتاب المعمرين ، وهى النسخة الموجودة بمكتبة جامعة كمبريدج تحت رقم Q 9 No 285 ، فذكر أن شواهد الخط ترجع إلى القرن الرابع الهجرى حرفا ، وقلما ، وأن صحيفة العنوان تحمل سماعا مؤرخا فى سنة ٤٢٨هـ مكتوبا بخط مخالف لخط متن الكتاب ، كتبه أحد القارئين ، وتحوى صحيفة العنوان كذلك على تأكيد نسبة الكتاب لصاحبه محرّر بخط العلامة شهاب الدين الخفاجى ، المتوفى سنة ١٠٦٩هـ ، وآخر بخط عبد القادر البغدادى ، ونصه :

« أبو روق ينقل فى هذا الكتاب عن أبى حاتم ، ويغلطه فى أماكن كثيرة ، فالظاهر أنه تأليف أبى روق ، والله أعلم بالصواب ، وقد ظهر فيما بعد أن أبا روق راوى الكتاب عن أبى حاتم » .

هذا إلى أن الأصل فى حقائق الأمور هو واقعها ، وأن الواقع هو الصواب مالم يقم دليل علمى على خطئه ، وليس هناك من واقع أمر كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى مايقوم معه الشك فى صحة الكتاب ، أوفى صحة نسبته لصاحبه .

* * *

وإن عناية أبى حاتم السجستانى بجمع أخبار المعمرين لابد أن تكون قد وانته فى سن بعد السبعين ، وهذه العناية تصور إحساسا داخليا شعر به السجستانى وتمكن من نفسه بعد أن صار من المعمرين ، وأصابه من الكبر ما أصابهم ، فإذا به يعرض أحاسيسه ، وقد عمّر نحو التسعين عاما ، بلغة غيره من المعمرين الذين سبقوه منظومة فى كتاب المعمرين ، فما عرف أبو حاتم السجستانى فى زمن فتوته العقلية إلا بأنه العالم بمسائل الفقه والحديث .

وإنه لما لا شك فيه أن العمر العقلى للإنسان يلعب دورا هاما فى اتجاهاته نحو فنون الحياة الثقافية ، فالعمر العقلى يولد صغيرا كما يولد الإنسان صغيرا ، فيكون نشاطه غريزيا محبا للاستطلاع والمعرفة ، كما يكون الطفل تماما ، ثم يكبر العقل شيئا فشيئا فيكبر معه الذوق الثقافى والفنى منتهجا السبيل المماشى والاجتماعى للإنسان ، وتتشعب بالناس بعد هذا أذواقهم وميولهم فى حياتهم نحو الآداب وفنونها ، فالإنسان فى شبابه يعشق الجمال الجنسى والطبيعى ، والأديب فى نشاطه العقلى يتذوق الجمال ويصوره فى أساليب الغزل والوصف ، فإذا بلغ العتى من الكبر نحا مناحى أخرى من ألوان التعبير ، وقل أن يتغزل الشاعر الهرم إلا أن يكون غزله ذلك الغزل الروحى الذى يتخذه وصلة إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أو سبيلا غرض من الأغراض الدينية .

كذلك كان شأن أبى حاتم السجستانى ، وكان شأن نشاطه العقلى ، فهو فى فتوة حياته عالم ومحدث ، يعنى بما يعنى به العلماء فى عصره ، قراءة وتأليفا ، وهو فى شيخوخته عجوز أقعده الكبر ، فضعف عقله ، وإذا إنتاجه الأدبى يتمثل فى تلك المختارات التى حفظها الرواة ، أو تضمنتها بطون الكتب المعروفة فى عصره لأولئك الشيوخ الذين

أفناهم طول العمر ، فانطلقت ألسنتهم بالشعر ، يضمنونه شكواهم من الحياة وسوء مصيرهم فيها ، ويذكرون أنهم قد صاروا همـلا فى البيوت والأكواخ ، يحملون كما تحمل الأمتعة ، ويجهدون أهلهم بطول مكثهم وعدم مقدرتهم على مسايرة الحياة المعاشية وأحوالها ، فهم المعمرون .

***

وإن كلمة « معمر » تعنى الرجل الذى طال عمره ، وقد صارت اصطلاحا لغويا ، يفسر مداه الشعراء الجاهليون فى قولهم :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُوَكَّلُ بِالصِّبَا ‏ فِيمَ ابْنَ سَبْعِينَ الْمُعَمَّرُ مِنْ دَدِ

وَإِنَّ امْرَءًا قَدْ سَارَ سَبْعِينَ حِجَّةً ‏ إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

فَمَنْ يَرْحَلْ إِلَى السَّبْعِينَ عَامًا ‏ فَمُعْتَرَكُ الْمَنُونِ لَهُ طَرِيقُ

وروى الترمذى[1] عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » . وذكر البيضاوى هذا الحديث فى صحيفة ١٥٤ من كتابه .

وقال بعضهم[2] : نجد فى زبور داود ، صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليه ، من بلغ السبعين اشتكى من غير علة . .

ومما نزل الله على المسيح فى الإنجيل : « شوقناكم فلم تشتاقوا ، ونحنا لكم فلم تبكوا ، ياصاحب الخمسين ، ملقدمت وما أخرت ؟ ياصاحب الستين قد دنا حصادُك ؛ ياصاحب السبعين ، هَلُمَّ إلى الحساب » .

فمن بلغ سن السبعين فهو معمر ، ولكن العرب لاتعد معمرا إلا من عاش مائة سنة وستا وعشرين سنة فصاعدا ، وهؤلاء المعمرون الذين روى أخبارهم أبو حاتم السجستانى قد بلغوا فى روايته أعمارا تتراوح بين عشرين ومائة وبين مائتين .

ولذا فإن القارئ لأخبار هؤلاء المعمرين يستوقفه كثيرا تلك الأعمار الخيالية .

(١) الجزء الثانى صحيفة ٥٣ من مخطوطة كتابه المحفوظة بخزانة الكتب بليدن .
(٢) أنظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ـ الجزء الثانى صفحة ٩٦ .

غير المألوفة ، وهى وإن كانت غير مستغربة بين أقوام يعيشون عيشة فطرية طبيعية ، فيحدث أن يعمر منهم أناس على فترات من الزمن سنين طويلة إلا أن العلم الحديث له اعتباره فى الحكم على رواية السجستانى عن أعمار هؤلاء المعمرين .

وإنه من المعروف علميا أن المناخ له أثره فى حياة الناس طولا وقصرا ، وأن أطول الناس أعمارا هم سكان البلاد الباردة ، وأقصرهم أعمارا هم سكان البلاد الحارة ، وإن المعمرين العرب الذين روى لهم أبو حاتم فى كتابه المعمرين ليسوا من سكان البلاد الباردة ، فهم إذن من ذوى الأعمار القصيرة التى لا تمتد إلى نحو مما ذكره أبو حاتم ، وإن كتب السير والتراجم والتاريخ ، قديمها وحديثها لا تصل أعمار الناس المذكورين فى تواريخها إلى تلك الحدود التى رواها السجستانى .

وعلى هذا فإن تحديد العمر كما ذكره أبو حاتم فى كتاب المعمرين لا يمثل واقع العدد بقدر ما يمثل طول الأبد ، وهذا الإطلاق كان معروفا عند العرب قبل التاريخ الإسلامى ، وهو الذى يتفق مع مأثورهم فى قصصهم وفى سير أبطالهم ، التى لعبت فيها الأخيلة دورا هاما فى تحديد الأعمار .

ومن ذلك ما يروى فى سيرة « عنترة بن شداد » عن « فارس بهلول » الذى بلغ من العمر ما ينوف على ثلاثمائة وستين سنة ، وسمى لذلك « أبو القرون » .

وما روى فى التاريخ العربى القديم من أساطير نسجها خيال الرواة حول عمرو ابن تميم بن مرة ، وقد بلغ من العمر ثلاثمائة وثمانين سنة[1] ، وسعد بن زيد مناة من كبار بنى تميم المعمرين ، وعمر بن لحىّ الخزاعى أول من وضع الأصنام فى الكعبة ، وقد بلغ فيما تزعم الرواية[2] عنه أربعا وخمسين وثلاثمائة سنة .

فكل هذا وغيره من الأخبار مما يحمل مدلوله على المبالغة فى طول العمر .

على أن العرب أهل بداوة وأمّية ، ولم يدوّنوا تواريخهم بالسنين والشهور إلا بعد

---

(١) انظر كتاب مروج الذهب للمسعودى ـ الجزء الثانى ـ صفحة ١٧٨ .

(٢) أنظر كتاب مروج الذهب للمسعودى ـ الجزء الثالث ـ صفحة ١١٥ .

أن خالطوا غيرهم من الأمم المتحضرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وإنما كان كل شعب منهم يؤرخ بما يقع فى حياتهم من حوادث ، يعرفونها باشتهارها لديهم، كما يذكر الطبرى فى تاريخه[1] برواية على بن مجاهد بالسند الشعبى ، إذ يقول :

« أرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل ... ثم أرّخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقت ، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرّخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد، ونهد، وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موت كعب بن لؤى إلى عام الفيل ، فكان التاريخ من الفيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة » .

«قال أبو جعفر : وهذا الذى رواه على بن مجاهد فى تاريخ بنى إسماعيل غير بعيد عن الحق ، وذلك أنهم كانوا يؤرخون على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وإنما كان المؤرخ منهم يؤرخ بزمان قحمة كانت فى ناحية من نواحى بلادهم ، ولزبة أصابتهم ، أو بالعامل كان يكون عليهم ، أو الأمر الحادث فيهم ، فينتشر خبره عندهم .

ويدل على ذلك اختلاف شعرائهم فى تأريخاتهم ، ولو كان لهم تأريخ معروف وأصل معمول به لم يختلف ذلك منهم .

ومن ذلك قول الربيع بن ضبع الفزارى :

هأنذا آمُلُ الْخُلُودَ وَقَدْ   أَدْرَكَ عَقْلِى وَمَوْلِدِى حُجَرَا
أَبامْرِئِ الْقَيْسِ هَلْ سَمِعْتَ بِهِ   هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمُرَا

فأرّخ عُمْرَه بحجر بن عمرو ، أبى امرئ القيس .

وقال نابغة بنى جعدة :

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّى فَإِنِّى   مِنَ الشُّبَّانِ أَزْمَانَ الْخُنَانِ

فجعل النابغة ما أرّخ بزمان علّة كانت فيهم عامة .

---

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٥٣ .

وقال آخر :

وَمَا هِيَ إِلَّا فِي إِزَارٍ وَعِلْقَةٍ مُغَارُ بْنِ هَمَّامٍ عَلَى حَيِّ خَثْعَمَا

فكل واحد من هؤلاء الذين ذكرت تاريخهم فى هذه الأبيات أرّخ تاريخا خاصا على قرب زمان بعضهم من بعض ، وقرب وقت ما أرّخ به من وقت الآخر ، ولو كان لهم تأريخ معروف كما للمسلمين اليوم ولسائر الأمم غيرهم لكانوا لا يتعدونه ، ولكن الأمر عندهم على ما ذكرنا » .

انتهى كلام الطبرى .

لهذا فإن تحديد أعمار المعمرين فى كتاب السجستانى لا يعنى واقع سنىّ حياتهم ، وإنما هو دلالة على طول الحياة فى روايات تناقلتها الأجيال ، وأصابها من النقلة ما أصاب غيرها من أخبار العرب وتواريخهم .

وليس معنى هذا أن الأقدمين كانوا مثلنا فى طول العمر ، فهم بلا شك قوم أوتوا بسطة فى الأجسام ، وطولا فى الأعمار[1] ، وكانوا أطول منا أعمارا ، وكان المعمرون بينهم أطول أعمارا من المعمرين بيننا ، وهو ما تقوم عليه شواهد حياتنا ، ويؤيده الواقع من النظريات العلمية الحديثة ، ولقد بينت البحوث العلمية أن الإنسان قادر على أن يعيش خمسين ومائة سنة إذا عرف كيف يتحكم فى أعصابه فلا يدع التلف يسرى فى جسمه ، باستسلامه لانفعالاته من غضب وحُزن ، وحقد وقلق ، حتى لا يثير غدده فتصبّ فى دمه مواد كيماوية ، يؤدى بعضها إلى ضعف الأعضاء وعجزها عن أداء وظيفتها ؛ وما كان العرب فى بيئتهم إلا أهل انبساط ودعة .

***

وإن المستقرى لأخبار المعمّرين المبثوثة فى كتب الأدب العربى يجد أن أبا حاتم السجستانى لم يذكر فى كتابه « المعمرين » طائفة أخرى منهم ، اشتهروا فى الجاهلية بكبر أعمارهم وكانت لهم روايات وأخبار وأشعار عنى بتدوينها المتأخرون عن أبى حاتم ،

(١) راجع مقدمة كتاب الأدب الكبير لابن المقفع .

ومن هؤلاء المعمر « أماناه بن قيس بن الحارث بن شيبان بن العائذ بن معاوية الكندى » . وقد أشار إليه الشاعر مسلم النخعى فى أبيات له[1] ، منها :

أَلَا لَيْتَنِى عُمِّرْتُ يَا أُمَّ خَالِدٍ   كَعُمْرِ أَمَانَاهِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانِ
لَقَدْ عَاشَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ   وَأَفْنَى فِئَاماً مِنْ كُهُولٍ وَشُبَّانِ
فَحَلَّتْ بِهِ مِنْ بَعْدِ حَرْسٍ وَحِقْبَةٍ   دُوَيْهِيَّةٌ حَلَّتْ بِنَصْرِ بْنِ دَهْمَانِ

وقد عاش أماناه عمرا طويلا فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، واشترك فى حرب الردّة أيام أبى بكر الصديق .

ومن المعمرين العرب الذين لم يذكرهم أبو حاتم قُبَاث بن أَشْيم الكِنَانِىّ صاحب المثل المعروف « لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُخْشَى بِذِئْبٍ » ويقال إنه شاهد حرب الفيل ، وحارب فى صفوف الكفار يوم بدر ، ثم اعتنق الإسلام ، وصار من الصحابة ، ويروى المؤرخون[2] أنه عاش إلى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان .

ومن المعمرين المشهورين الذين لم يذكرهم أبو حاتم « ضرار بن سعد » صاحب المواقف المشهورة فى القصص الشعبى الجاهلى ، ويحكى المؤرخون عنه حكايات كثيرة ، وأن هو الذى اخترع العصا ليعتكز عليها الشيوخ .

وغير هؤلاء كثيرون تضمّهم كتب الأدب العربى ، ولم يدخلوا فى كتاب أبى حاتم ضمن نطاق مجموعة المعمرين الذين ذكرهم .

ويبدو أن أباحاتم لم يستهدف فى كتابه جمع أسماء المعمرين وأخبارهم الذين وصلت إليه رواياتهم ، وإنما كان هدفه الأول العناية بتسجيل الحكم والأمثال والشعر مما نطق به المعمرون فى حياتهم المتقدمة ، وأنه إذا أهمل ذكر معمر فى كتابه ، فإنما مردّ ذلك إلى أن أبا حاتم لم يعثر على شىء من النثر أو الشعر لهذا المعمّر مما يمكن أن يعد ثروة أدبية يضيفها السجستانى إلى جملة مختاراته .

* * *

(١) انظر كتاب حماسة البحترى صفحة ٣٠٢ .
(٢) أسد الغابة ـ الجزء الرابع ـ صفحة ١٨٩ . والأمثال للميدانى الجزء الثانى صفحة ١٠٩

وليس من شك فى أن المختارات الأدبية التى ساقها أبو حاتم للمعمرين فى كتابه تمثل فى جملتها لونا ذا أهمية كبيرة فى الأدب العربى ، وأنها تصور ذوقا فنيا خاصا لشعراء وناثرين حفل بهم العصر الجاهلى والعصر الإسلامى ، وكانت لهم أدوار فى التاريخ العربى محمودة فى سيرتهم وبين قومهم ، وأن هؤلاء المعمرين كانوا بأعمارهم أفضل للأشياء اختبارا ، وأن شعرهم الواقعى يزودنا بثروة من الأخيلة الشعرية ، لها قيمتها فى الدلالة وحسن الأداء . وإن كانت أساليب هؤلاء المعمرين لاتضيف جديدا إلى عناصر الأسلوب العربى المعروف .

ويكاد هؤلاء الشعراء المعمرون يتفقون فى تشبيه الشيب بالضيف المكروه ، ثم تختلف أخيلتهم الشعرية فى هذا الضيف ، فيقول بعضهم :

ضَيْفٌ بَغِيضٌ لَا أَرَى لِيَ عُصْرَةً ... مِنْهُ هَرَبْتُ ، فَلَمْ أَجِدْ لِيَ مَهْرَبَا

ويقول آخر :

أَضْحَى لِيَ الشَّيْبُ ضَيْفاً غَيْرَ مُرْتَحِلٍ ... وَلَيْتَهُ كَانَ يُقْرَى الْمَالَ ، فَارْتَحَلَا
لِكُلِّ ضَيْفٍ قِرَاهُ ، أَنْتَ حَاشِمُهُ ... وَمَا قِرَا الشَّيْبِ إِلَّا الْحِلْمُ إِذْ نَزَلَا

وكل هؤلاء المعمرين يتحسرون على أيامهم الخوالى، ويذكرونها بالأسى والغصة ، ويستعيدون سيرتهم الأولى لأبنائهم وأحفادهم وذويهم وزوجاتهم ، ومنهم من يذكر قوته فى شبابه التى تخافها الأسود ، وضعفه فى مشيبه الذى يخاف به من الثعلب :

وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْأُسُودُ تَخَافُنِيَ ... وَأَخَافَنِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الثَّعْلَبُ
وَإِذَا رَأَيْتَ عَجِيبَةً فَاصْبِرْ لَهَا ... وَالدَّهْرُ قد يَأْتِي بِمَا هُوَ أَعْجَبُ

ويتفاوت هؤلاء المعمرون قوة وضعفا فى إبراز أحوالهم التى صاروا إليها ، من خطو قصير ومشى ضعيف ، وشعرهم فى هذا يصور أحوالهم على أساليب مختلفة من النسج اللفظى والخيال الشعرى .

فيقول بعضهم :

وَمَشَيْتُ بِالْيَدِ قَبْلَ رِجْلٍ خَطْوُهَا ... رَسْفُ الْمُقَيَّدِ تَحْتَ صُلْبٍ أَحْدَبِ

ويقول آخر :

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا ... أَنُوءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِى

ويقول ثالث :

تَهَدَّلَتِ الْعَيْنَانِ بَعْدَ طَلَاوَةٍ ... وَبَعْدَ رِضًا فَأَحْسَبُ الشَّخْصَ رَاكِبَا

وَأُبْعِدُ مَا أَنْكَرْتُ كَىْ أَسْتَبِينَهُ ... فَأَعْرِفُهُ وَأُنْكِرُ الْمُتَقَارِبَا

وقد كان من عادة العرب فى الجاهلية إذا أسن فيهم كبير أن يتركوه لَقًى فى الدار كالمتاع، ويجرون عليه طعامه وشرابه، فإذا رحلوا حملوه ، وإذا حطُّوا ألقوه هَمَلًا دون توقير ، ولذا فقد كثرت الشكوى من المعمرين بهذا الخصوص، فى كتاب أبى حاتم، يعرضون شكواهم على أبنائهم فى ذلة وانكسار استدرارا للعطف ونيلا للرضا والتوقر ، وكانوا فى هذا يألمون أشد الألم نفسيا وعضويا، وقد نهى الإسلام عن هذه العادة المرذولة فى قوله تعالى : « وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» ودعا لتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطالب المسلم بإكرام ذى الشيبة فى قوله : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا ... »

ويعتبر التراث الشعرى الذى جمعه أبو حاتم السجستانى فى كتابه « المعمرين » من أهم المصادر التاريخية لحياة العرب فى الجاهلية ، ففيه يجد الدارس إشارات لوقعات ومعارك مجهولة ، وإضافات لحقائق تاريخية ، وتصويبات لأسماء مشهورة إلى غير هذا مما يعنى به المؤرخون وأصحاب التراجم .

* * *

وإذا كان كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى أسبق الكتب المعروفة التى تناولت مادتها طرفا من المعمرين وأخبارهم فإن الكتاب يعتبر من ناحية أخرى أوفى الكتب فى الإحاطة بأخبار المعمرين ، بل إنه يمثل الكتاب الأم الذى حذا حذو أبى حاتم فيه المؤلفون الذين جاءوا من بعده ، مثل كتاب « الغرر والدرر » لعلى المرتضى ، وكتاب « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى ، وكتاب «التذكرة»

لمحمد بن الحسن بن حمدان، وكتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » للأبشيهى، وغيرهم أمثال أبى الحجاج يوسف البلوى ، وأبى الفرج بن الجوزى .

فلقد عقد هؤلاء المؤلفون وغيرهم فصولا فى كتبهم ، تناولوا فيها ذكر المعمرين وأخبارهم فى تراجم قصيرة لاتصل إلى عمل أبى حاتم فى وفايته ، وجاء من بعدهم خلف، عنوا بهذا اللون من التبويب فى كتبهم على مر الأجيال ، وكانت لهم مذاهب أخرى فى الجمع لأخبار المعمرين ، وسردها فى طبقات تمثل المعمرين من ذوى المذاهب والطوائف والحرف وغيرهم .

وتعتبر مخطوطة المعمرين الموجودة بمعهد «جوته» بألمانيا من أهم الكتب المصنفة فى أخبار المعمرين المحدثين ، وقد نشر الأديب الدمشقى « إلياس عبده قدسى » صفحات من هذه المخطوطة فى سنة ١٨٨٣ م .

***

ويمثل « كتاب المعمرين » للسجستانى الشطر الكبير من شطرى المخطوط الذى أقوم بنشره، المسجل تحت رقم ٢٠١٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ؛ أما الشطر الثانى لهذا المخطوط فهو « كتاب الوصايا » لأبى حاتم السجستانى .

وقد جمع أبو حاتم فى هـذا الجزء الثانى جملة من الوصايا المختارة من بين الروايات العربية نسبها إلى قائليها فى العصر الجاهلى ، وفى العصر الإسلامى ، وفى العصر الأموى ؛ وكما أن الوصايا تعتبر لازمة من لوازم المعمرين فقد اعتبر أبو حاتم السجستانى جمع الوصايا فى كتاب لازمة من لوازم جمعه أخبار المعمرين فى كتاب .

ولقد وفق أبو حاتم إلى أبعد حدود التوفيق فى نظم مختاراته على هذين الشطرين ، وفى ترتيب هذا النظم ترتيبا واقعيا ، يساير ظروف الكائنات فى عصور حياتها ، فجعل « كتاب الوصايا » يلى « كتاب المعمرين » ، وأتى فى أخبار الوصايا بما لم يأت به فى أخبار المعمرين ، وقد ضمّن كل هذا نتفا مختارة مما وصلت إليه روايته من أقوال المُوصِين ، الذين أوتوا حظوة فى الدنيا ، ووفرة فى العقول ، واكتسبوا

تجارب كانوا بها ذوى قدرة على الأحكام ، وهم يفضون إلى ذويهم فى أواخر أعمارهم بما لهم وبما عليهم ، يرجون لهم الخير من بعدهم ، ويودعونهم نتائج تجاربهم ، صفوة مختارة من القول فى شئون الدين والدنيا ، يبصرونهم فيها بحياتهم ، وبتليدهم الذى صار إليهم، وقد صاروا إليه .

وإن المنهج الذى سار عليه تصنيف كتاب الوصايا هو نفس المنهج الذى اتبع فى تصنيف كتاب المعمرين ، فلقد روى « أبو روق » هذه الوصايا عن أبى حاتم ، كما روى عنه أخبار المعمرين ؛ وإن القارئ للكتابين يلاحظ أن ذاتية أبى روق فى رواية الوصايا لم يكن لها أثرها الواضح فى روايته أخبار المعمرين ، فلا نكاد نجد لأبى روق تصويبا لما يرويه عن أبى حاتم ، ولا زيادة على ما يذكره ، ولا شرحا أو توضيحا لما يستغلق فهمه من روايته ، كما هو حال أبى روق فى كتاب المعمرين ، بل إن إسناد القول لأبى حاتم فى كتاب الوصايا يكثر إلى حد أنه يذهب بأبى روق وبسيرته ؛ ولعل هذا راجع إلى أصالة هذه الوصايا وإصابتها ، وتواتر رواياتها ، ووضوح عباراتها ومدلولها .

وليس عمل أبى حاتم فى كتاب الوصايا جديدا أو فريدا كعمله فى كتاب المعمرين، فلقد عرفت الوصايا من قديم الزمان لونا من ألوان الأدب العربى ، وصنف لها الرواة المؤلفات ، وعقدت لها فى كتب الأدب الفصول والأبواب ، وقد انفردت بروايتها كتب أخرى سابقة ، مثل كتاب « تاريخ العرب الأوليّة » للأصمعى، وهو كتاب بنيت مباحثه على وصايا قحطان والملوك من أبناء هود ، وكتاب الوصايا لدعبل الخزاعى ، وكتاب وصايا الملوك وأبناء الملوك لأبى الطيب ابن إسحق الوشّاء ، من علماء القرن الثالث الهجرى .

وإن القارئ لهذه الكتب ولغيرها فى وصاياها المختلفة ليجد أنها كلها تصوّر كتابا ذا متن يكاد يكون واحدا ، لولا ذلك التغيير الطفيف فى بعض العبارات ، مما يقتضيه اختلاف الرواة والمؤلفين ، وإن الوصية العربية تكاد تكون واحدة ، وهى

فى عناصرها الأدبية تتكوّن من حكم وأخبار ، وما الحكمة العربية إلا تلك الثمرة الفكرية التى يجتنيها المرء من تفاعل نشاطه فى بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فيخلص منها إليها فى سلوكه العام ، وينسجها فى المعيار الكلامى ذى الدلالة والإيجاز ، وكلها عند العرب شىء واحد ، فرضته عليهم حياتهم الماشية ؛ وإذا كنا نرى فى بعضها اختلافا فإنما هو الاختلاف فى الأخيلة ، نتيجة للسلطان الفكرى الذى سيطر على العقل العربى بعد ظهور الإسلام ، وانتهج به مناهج أخرى فى الإدراك والتصوير .

وإن الأخبار الخاصة التى تمتاز بها الوصايا ، بعضها من بعض لهى المَعْلم الوحيد الذى يفرق بينها ، وهذه الأخبار كلها تدور حول شئون الدنيا ، وما كانت الدنيا وشئونها شيئا مذكورا ، يشغل بال المرء عند لقاء ربه إلا أن يكون الموصى خليفة ، أو حاكما ، أو ذا جاه فى قومه ، فإن لهؤلاء فى وصاياهم مناهج خاصة ، تفيد التاريخ أكثر مما تفيد الأدب ؛ ولقد عنى أبو حاتم بجمع طائفة من هذه الوصايا فى العصر الإسلامى ، وفى العصر الأموى ، واستطاع أن يبرز فى مختاراته منها أذواقا خاصة لبعض الخلفاء ، كان لها أثر فى سلوكهم العام والخاص كما ورد هذا فى وصية عبدالملك بن مروان ، وفى رواية أبى حاتم لها .

وتعتبر الوصايا من الموضوعات الهامة للدراسات النفسية ، وهى تستأهل العناية الكبرى من المختصين ، ففيها تتجلّى بوضوح تفاعلات الخلايا العقلية ، الظاهر منها والباطن ، وتُستبان فى معالمها عناصر الحالة الفكرية الحادة التى تصيب الإنسان عندما يتهيأ له ملك الموت ، وتصبح حياته فى نهايتها قاب قوسين أو أدنى ؛ وهى نتاج فكرى لتفاعلات متناقضة المؤثرات ، تظهر فيها مسالك البشر فى طبائعهم الغريزية ، وفى سلوكهم الماشى ؛ ولقد حرص أبو حاتم على أن يقدم فى مختاراته نماذج حيّة متفرقة من هذه الوصايا تمثل ذواتا مختلفة فى عصور متباعدة من التاريخ ، وقد جمعها همٌّ واحد ، هو الرضا والإيمان .

ولم يخل كتاب المعمرين من ذكر بعض الوصايا التى عرضها أبو حاتم فى سيرة

المعمرين استكمالا لآثارهم ، وجمعا لأقوالهم ، وقد أورد أبو حاتم من هذا كثيرا فيما رواه عن أكثم بن صيفى (صحيفة ١٤ ــ ٢٦) وعن نهد بن زيد فى وَصاته لبنِيه (صحيفة ٢٦).

***

وبعد ، فإن المخطوطة التى أقوم بنشرها لأبى حاتم السجستانى تعد من المخطوطات القديمة الحديثة، فهى قديمة بموضوعها وبمؤلفها ، وحديثة بتاريخ نسخها الذى يرجع إلى أول القرن الحالى ، وقد كتبت المخطوطة بقلم معتاد ، بخط الناسخ محمد شكرى المكى ، وبرسم العلامة الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى، وقد فرغ من كتابتها فى شهر رمضان سنة ١٣٢١هـ ، وتحوى هوامش المخطوطة تقريرات بخط الشيخ الشنقيطى.

وقد جاء فى آخر المخطوطة عبارة « قوبل بأصله ، فصح إن شاء الله تعالى ، وكتبه محمد محمود التركزى » وإن هذه العبارة لتدل على أن مكتبات القاهرة كانت تضم المخطوطة الأصلية التى نقلت عنها المخطوطة رقم ٢٠١٤ تاريخ، المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وإن هذه المخطوطة الأصلية قد نقلت من مكانها بعد أن تم نسخها .

ولما كانت مخطوطة كمبريدج رقم Q9, No. 285 قد نشرت فى تاريخ لاحق لتاريخ نسخ مخطوطة دار الكتب فإنى أرجح أن تكون مخطوطة كمبريدج هى المخطوطة التى كانت بالقاهرة ، وقد حصل عليها المستشرق اليهودى «جولدزهير» الألمانى بأى وسيلة ، ثم نقلها من القاهرة بعد أن تم نسخها ومقابلتها ، وذلك لأن كتاب المعمرين والوصايا لأبى حاتم السجستانى المخطوط نسخة وحيدة كما جاء فى بروكلمان وفى فهارس المخطوطات العربية الأخرى .

وقد نشر المستشرق اليهودى جولدزهير كتاب المعمّرين ، ولم ينشر معه كتاب الوصايا لأبى حاتم، ومن بعده طبعت مطبعة السعادة بالقاهرة النسخة التى نشرت فى ليدن سنة ١٨٩٩ بعد قراءتها على المرحوم أحمد بن الأمين الشنقيطى، ولم تنشر مطبعة السعادة كتاب الوصايا الذى تضمه مخطوطة دار الكتب مما يدل على اعتماد طبعة القاهرة على طبعة أوربة اعتمادا تاما ، وعلى أن مخطوطة دار الكتب التى أقوم بنشرها ليس لها

صلة ما بالمطبوع من الكتاب ، فهى الكلّ ، وما نشر هو الجزء ، ولا يؤخذ الكل من الجزء ؛ وإنما صلتها التامة قائمة بمخطوطة كمبريدج ، ويعرف السر بينهما الشيخ الشنقيطى ، رحمه الله ، وأثابه على جهده فى مقابلة مخطوطة دار الكتب على أصلها .

ويظهر لى أن المستشرق جولدزهير رأى الاكتفاء بنشر كتاب المعمرين لأغراض له، قد أوضحها فى مقدّمة كتابه ، وتجمل هذه الأغراض فى أنه عنى بنشر ذلك اللون الأدبى الذى اختاره أبو حاتم للمعمرين ، وما كان يعنيه نشر كتاب الوصايا الذى عرض لموضوعه جملة وتفصيلا فيما سبق أن نشره من مؤلفات دينية وفقهية .

ولم يتيسر لى وأنا أقوم بدراسة مخطوطة دار الكتب التى أنشرها ، أن أحصل على مصورة الأصل الذى نشر منه المستشرق « جولدزهير » كتاب المعمرين ، حتى أقارن جزءيه ، المعمرين ، والوصايا بهذه المخطوطة وذلك توخّيا لسلامة المتن بمراجعته فى الأصول المختلفة ، فما كان لى بدٌّ من الرجوع إلى النسخة المطبوعة فى ليدن ، وبخاصة وأن ناشرها قد عنى بإبراز المرئيات الخاصة لكلمات المتن فى احتمالاتها الممكنة ، لغويا وأسلوبا ، فأصبحت المطبوعة صورة طبق الأصل المنقولة عنه ، وللمستشرقين فى هذا السبيل جهد مذكور ومحمود ، وفيما عدا هذا فقد قصرت اهتمامى فى نشر هذه المخطوطة على كتب اللغة والآداب ، والمصادر الأولى لكتب التراجم معتمدا على رواياتها فى تحقيق النصوص الشعرية والنثرية التى وردت فيها وفى كتابى المعمرين والوصايا ، وقد أثبتّ فى الهوامش الفوارق التى تستأهل الذكر من هذه الروايات .

وإنه لما يلفت النظر فى الكتب العربية التى تعرض أخبار الأقدمين أن الروايات فيها يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الرواة ، واقتضاء لعامل الرواية الشفوية التى يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وأيا ما كان وجه الاختلاف فإنه لا يكاد يجاوز اللفظ إلى جوهر الخبر وكنهه ، وتبدو قيمة تحقيق اللفظ واضحة فى نشر الكتب اللغوية ذات النصوص المأثورة التى تصلح شواهد على قواعد نحوية أو صرفية ، وتقوم عليها دراسات لغوية فقهية .

وتبلغ جملة صفحات هذه المخطوطة اثنتين وستين ومائةصحيفة ، منها أربع ومائة كتاب المعمرين ، وثمان وخمسون كتاب الوصايا ، وأوراقها ذات مساحة واحدة ٢٤٥×١٧٠مليمترا ، ومسطرتها تسعة عشر سطرا ، فى كل سطر منها تسع كلمات ، وتحوى بعض صفحات المخطوطة تعليقات شروح وتفسيرات بخط الشيخ محمد محمود .

وفى المخطوطة نقص لايدل عليه ترقيمها فى تسلسله ، بين قول المستوغر بن ربيعة:

ينش الماء فى الربلات منها ‏ ‏ ‏ ‏ نشيش الرضف فى اللبن الوغير

وبين ما بعده « والعافية خير من الواقية » (انظر صحيفة ١٣) ، فإن الصلة معدومة فى المعنى ، وفى النسج اللفظى بين الأسلوبين ، ويرجح فى رأيى أن قدر النقص صحيفة واحدة ، وأن الجزء الناقص هو من سيرة أكثم بن صيفى ، وذلك لنسبة الحكم المذكورة إليه فى بعض المراجع الأخرى ، مثل كتاب الإصابة ، ولذكر سيرته بعد ذلك فى صحيفة ١٤ ، وهذا النقص موجود فى مخطوطة كمبريدج التى نشرها المستشرق جولدزهير كما هو موجود فى مخطوطة دار الكتب ، وهوما يؤكد مرة أخرى الصلة بين المخطوطتين .

المعادى فى مايو سنة ١٩٦١ ‏ ‏ ‏ ‏ عبد المنعم عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ ابو حاتم سهل بن عثمان السجستاني . ذكر [illegible]
وابو اليقظان ومحمد بن سلام الجمحي وغيرهم ان أطول
بني آدم عمراً الخضر عليه السلام . واسمه خضرون بن
قابيل بن آدم عليه السلام وقال بن اسحق حدثنا اصحابنا
أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال
لهم يا بني ان الله منزل على اهل الارض عذابا فليكن
جسدي معكم بالمغارة حتى اذا هبطتم فابعثوني وادفنوني
بارض الشام . فكان جسده معهم فلما بعث الله تعالى نوحا عليه السلام
ضم ذلك الجسد وارسل الله تعالى الطوفان على الارض فغرقت
الارض زمانا فجاء نوح عليه السلام حتى نزل بابل واوصى بنيه
الثلاثة وهم سام ويافث وحام ان يذهبوا بجسده الى
المكان الذي امرهم أن يدفنوه فيه فقالوا الارض وحشة
ولا انيس فيها ولا نهتدي الطريق ولكن نكف حتى يأمن الناس

الصحيفة الأولى من مخطوطة « كتاب المعمرين »

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الوصايا عن أبي حاتم (وأول الوصايا).

أخبرنا أبو روق قال قال أبو حاتم قالوا وكان ملك من
ملوك اليمن يقال له الحارث بن عمرو الكندي بلغه عن ابنة
لعوف الكندي جمال وكمال وهو الذي يقال له لا حر
يشبه عوف جمالاً وكمالاً فبعث الى امرأة من قومها يقال
لها عصام فقال لها انه بلغني عن بنت عوف جمال وكمال
فاذهبي فاعلمي لي علمها فانطلقت حتى دخلت على امها
وهي أمامة بنت الحارث فأخبرتها خبر ما جاءت له واذا
أمها كأنها خاذل من الظباء وحولها بنات لها كانهن
مشوأتن الغزلان فارسلت الى ابنتها فقالت يا بنية إن
هذه خالتك أتتك لتنظر الى بعض شأنك فاخرجي اليها
ولا تستتري عنها بشيء وناطقيها فيما استنطقتك فيه
فدخلت عليها ثم خرجت من عندها وهي تقول (ترك الخداع
من كشف القناع) فأرسلتها مثلا فلما جاءت الى الحارث
قال ما وراءك يا عصام قالت أيها الملك (صرح المحض

الصحيفة الأولى من مخطوطة «كتاب الوصايا»

فاذا فيه عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك من بعده
فسلم وَلَّه [illegible] ورضوا قال ابن عياش واخبرنا الصلت
مولى لبني امية قال ثم اقبل رجاء الى عمر بن عبد العزيز وهو
في المقصورة فاخذ بيده فجعل يتلكأ فقال له رجاء ان الذي
تصنع شر فقال عمر ان هذا الامر ما سألته الله في صلاة
ولا سر ولا علانية فلما انصرف من الجنازة وصلى على سليمان
قال لا نظرت ما يصنع وكتب في الآفاق برد المظالم وعزل
اهل بيته عن الاعمال واظهر عزلهم ورد مظالمهم وكان
مقامه بدابق شهرين ثم انصرف الى منزله بدير سمعان
فلم يزل بها الى ان توفي رحمة الله عليه

تم كتاب الوصايا لأبي حاتم رحمه الله تعالى
قدم على يد محمد شكر الحلبي رحمه
سنة ١٢٧١ برسم علامة المشرقية
والمغربية مولانا الشيخ محمد محمود
التركزي الشنقيطي
حفظه الله تعالى
بمنه وكرمه
آمين

قوبل بأصله
فصح ان شاء
الله تعالى
كتبه محمد محمود التركزي
لطف الله به



الصحيفة الأخيرة من كتاب الوصايا ـ رقم ٢٠١٤ تاريخ ـ بدار الكتب المصرية ـ بالقاهرة

المعمرون والوصايا

لأبي حاتم السجستاني

٢٥٠هـ — ٨٦٤م

تحقيق

عبد المنعم عامر

١٩٦١

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كتاب المعمرين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو حاتم سهل بن عثمان السِّجِسْتَانىّ ذكر أبو عبيدة ، وأبو اليَقْظان ، ومحمد بن سلّام الُجمَحىّ ، وغيرهم أن أطول بنى آدم عُمْراً الَخضِر ، واسمه خَضْرُون بن قابيل بن آدم عليه السلام .

وقال ابن إسحاق ، حدثنا أصحابنا ، أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة جمع بنيه ، وقال لهم : يا بَنِىّ ، إن الله منزّل على أهل الأرض عذابا ، فليكن جسدى معكم بالمغارة ، حتى إذا هبطتم فابعثوا بى[1] ، وادفنونى بأرض الشام . فكان جسده معهم .

فلما بعث الله تعالى نوحا عليه السلام ضمّ ذلك الجسد ، وأرسل الله تعالى الطوفان على الأرض ، فغرقت الأرض زمانا ، فجاء نوح عليه السلام ، حتى نزل ببابل ، وأوصى بنيه الثلاثة ، وهم سام ، ويافث ، وحام ، أن يذهبوا بجسده إلى المكان الذى أمرهم أن يدفنوه فيه .

فقالوا : الأرض وَحِشة ، ولا أنيس بها ، ولا نهتدى الطريق ، ولكن نكُفّ حتى يأمن الناس [٣] ، ويكثروا ، وتأنس البلاد ، وتَجِفّ .

وقال لهم نوح عليه السلام : إن آدم قد دعا الله أن يُطيل عُمر الذى يدفنه إلى يوم القيامة ؛ فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه ، وأنجز الله له ما وعده ، فهو يحيا إلى ماشاء الله أن يحيا .

* * *

(١) فى رواية أخرى : فابعثونى .

وعاش نوح النبي صلى الله عليه وسلم ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة ؛ ذكر ذلك إسماعيل بن أبى زياد عن ابن أبى عيّاش العبدى عن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما بعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتى سنة ، فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبقى بعد الطوفان خمسين سنة ومائتى سنة ، فلمّا أتاه ملك الموت قال ، يا نوح ، يا أبا كُبْرِ الأنبياء ، ويا طويل العمر ، ويا مُجاب الدعوة ، كيف رأيت الدنيا ؟

قال : مثلَ رجلٍ بُنِى له بيت ، له بابان : فدخل من واحد ، وخرج من الآخر .

وقد قيل دخل من أحدهما ، وجلس هُنَيَّةً ، ثم خرج من الباب الآخر .

* * *

قالوا : وكان أطول الناس عمرا بعد الخضر لُقْمان بن عاديا الكبير(١) ، عاش خمسمائة سنة وستين سنة ، عاش عمر سبعة أنْسُر ، عاش كل نسر منها ثمانين عاما ، وكان من بقية عادٍ الأولى.

حدثنا(٢) أبو حاتم قال ، قال أبو الجنيد الضرير ، أخبرنا بذلك الحسين بن خالد ، عن سلّام ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح [٤] ، عن ابن عباس ، وعن محمد بن إسحاق وغيره ؛ فأما غير الحسين ، فذكر أنه عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ؛ والله أعلم أى ذلك كان .

« وكان من وفد عاد الذين بعثهم قومهم إلى الحرم ليستسقوا لهم ، وكان أعطى من العمر عُمْرَ سبعة أنسر ، فجعل يأخذ فرخ النسر الذَّكَر ، فيجعله فى الجبل الذى هو فى أصله ، فيعيش النسر منها ما عاش ، فإذا مات أخذ آخر ، فربّاه حتى كان آخِرُها لُبَدَ ، وكان أطولها عمرا ، فقيل : طال الأبَد على لُبَد .

---

(١) لقمان هذا غير لقمان الحكيم الذى كان على عهد النبي داود (كما جاء فى كتاب شرح القاموس) . (٢) القائل هو أبو روق الهمدانى ، وهو الذى روى هذا الكتاب عن مؤلفه أبى حاتم .

وقال فى ذلك لبيد بن ربيعة الجعفرىّ من بنى كلاب :

وَلَقَدْ جَرَى لُبَدٌ ، فَأَدْرَكَ جَرْيَهُ   رَيْبُ الزَّمَانِ[١] ، وَكَانَ غَيْرَ مُثَقَّلِ

وقال لبيد أيضا :

لَمَّا رَأَى لُبَدُ النُّسُورَ تَطَايَرَتْ   رَفَعَ الْقَوَادِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَعْزَلِ[٢]

مِنْ تَحْتِهِ لُقْمَانُ يَرْجُو نَهْضَهُ   وَلَقَدْ رَأَى[٣] لُقْمَانُ أَلَّا يَأْتَلِى

وقال الضَّبِّىّ :

أَوَ لَمْ تَرَ لُقْمَانَ أَهْلَكَهُ   مَا اقْتَاتَ مِنْ سَنَةٍ وَمِنْ شَهْرِ

وَبَقَاءُ نَسْرٍ كُلَّمَا انْقَرَضَتْ   أَيَّامُهُ عَادَتْ إِلَى نَسْرِ

وقال الأعشى :

لِنَفْسِكَ إِذْ تَخْتَارُ سَبْعَةَ أَنْسُرٍ   إِذَا مَا مَضَى نَسْرٌ خَلَوْتَ إِلَى نَسْرِ

فَعُمِّرَ حَتَّى خَالَ أَنَّ نُسُورَهُ   خُلُودٌ ، وَهَلْ تَبْقَى النُّفُوسُ عَلَى الدَّهْرِ؟

وَقَالَ لَأَدْنَاهُنَّ إِذْ حَلَّ رِيشُهُ   هَلَكْتَ ، وَأَهْلَكْتَ ابْنَ عَادٍ ، وَمَا تَدْرِى

قال ، وأعطى من السمع والبصر على قدر ذلك ، وله أحاديث كثيرة .

وقال الذُّبْيَانِى[٤] :

أَمْسَتْ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا   أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِى أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

قال أبو حاتم : أَخْنَى ، أفسد .

* * *

قالوا : وكان من بعده سَطِيح ، وُلِد فى زمن السَّيْل العَرِم ، وعاش إلى مُلك ذى نُواس ، وذلك نحوا من ثلاثين قرْنا[٥] ، وكان سكنه البحرين ؛ وزعمت

(١) فى رواية أخرى : المنون .   (٢) القوادم جمع قادمة ، وهى أربع ريشات فى مقدم الجناح .   (٣) فى رواية ثانية : يرى .

(٤) هو النابغة الذبيانى ، ويروى البيت : أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ...

(٥) القرن مائة عام ، وقد اختلف اللغويون العرب فى قدره بالسنين من عشر إلى مائة =

عبد القيس أنه منهم ؛ وتزعم الأزد أنه منهم ؛ وأكثر المحدثين يقولون ، هو من الأزد ، ولا ندرى ممن هو ، غير أن ولده يقولون : إنهم من الأزد .

* * *

قالوا : وكان المَعافِر بن يَعْفُر بن مُرّ بعد هذَيْن ، فمات ، فلما حضره الموت حفروا له حفيرة ، وبنوا له بيته (يعنى قبره) فأخذ صخرة فكتب فيها :

أَنَا المَعَافِرُ بنُ يَعْفُرَ بنِ مُرْ وَلَسْتُ مِنْ ذِى يَمَنٍ بَقَرْ
لَكِنَّنِى مُضَرِىٌّ حُرْ

يقول : لست منهم ذا أصل ، يقول : أنا يمانى الدار .

وأنشد لطرفة :

* فَتَنَاهَيْتُ وَقَدْ صَابَتْ بِقُرْ[1] *

فوُجد فى زمن سليمان بن داود ، فكُشِف عنه ، فوجد فيها (فى الحفيرة) ووُجد عنده الكتاب .

* * *

وقالوا : خرج رجل من قريش قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فركب البحر ، فانكسرت سفينته ، فوقع فى جزيرة فى أرض لا يرى بها أنيسا ، فبينا هو يطوف فى تلك الجزيرة إذا هو بشيخ كبير مجتمع [٦] العلم ، فقال :

— من أنت ؟

قلت : رجل من العرب .

قال : من أىّ العرب ؟

وعشرين فقال بعضهم القرن عشر سنين ، وذكر قتادة، أنه سبعون ، والنخعى، أنه أربعون ، وذكر زرارة بن أبى أوفى، أنه مائة وعشرون ، وعبد الملك بن عمير، أنه مائة ، وقال بعضهم : إن القرن كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد .

(١) صابت وقعت ، بقر استقرار ، أى استقرت حالى على أمرها ، وأول البيت :

سَادِرًا أَحْسَبُ غَيِّى رَشَدًا . . .

قلت : رجل من قريش .

قال : بأبى وأمى قريش ، وأين مساكنها اليومَ ؟

قلت : بمكة .

قال : فهل خرج محمد بعدُ ؟

فقلت : وما خروج محمد ؟

قال : فقصّ علىّ كيف يكون خروجه ، وأخبرنى أنه نبىّ ، وأنه سيخرج ، فإذا خرج فاتّبِعْه ، وقصّ أمره ، ثم قال لى :

— أعالم أنت بمكة ؟

قلت : نعم .

قال : فهل تعرف مكانا فيها يقال له « المَطابِخ » ؟

قلت : نعم .

قال : أفتدرى لم سُمِّىَ المطابخ ؟

قلت : لا .

فقال : إن جيشين منّا تواعدوا للقتال ، فنزل أحدهما شَرْقِىَّ الجبل ، ونزل الآخر غَرْبِيّه ، فنحرنا فيه الجُزُر[1] من جانبيه جميعا ، فاطّبخنا ، فسمِّىَ بنا المَطابخَ .

ثم قال : هل تعرف مكانا بمكة يقال له « القُعَيْقِعَان » ؟

قلت : نعم .

قال : فهل تدرى لِمَ سُمِّىَ قعيقعان ؟

قلت : لا

قال : فإنا لما خرجنا من المطابخ للقتال ، فاجتمعنا بذلك الجبل ، فاقتتلنا فيه ، وقعقعوا السِّلاحَ ، سمّيناه قعيقعان .

ثم قال : هل تعرف فيها بقمة يقال لهـــا « فاضِحُ » .

---

(١) الجزر جمع جزور ، وهو البعير المجزور . وقيل : هو خاص بالناقة المذبوحة .

قلت : أَجَلْ ، نعَمْ .

قال : فهل تدرى لم سُمّى فاضحا ؟

قلت : لا .

قال : فإننا تنَاجَزْنَا ، فاقتتلنا قتالا فَضَحَ بعضنا بعضا ، فسمّيناه فاضحاً .

ثم قال : هل تعرف فيها موضعا يقال له « أَجْياد » ؟

قال : قلت ، نعم .

قال : فهل تدرى لم سمّى أجيادا ؟

قلت : لا .

قال : فإنّا لما أتيناه على جَرِيدَةِ خيل ، فاقتتلت فيه الخيلُ ، ليست فيها رجّالة ، سُمّى أَجْيَاداً لجياد الخيل .

ثم انصرف عنى إلى الروضة .

فقلت : يا عبد الله ، سألتنى فأخبرتك ، [٧] فأَخبرْنِى ، من أنت ؟

فالتفت إلىّ ، فقال مُجيباً :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحجُونِ إلى الصَّفَا أَنِيسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ(١)

بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا ، فَأَزَالَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِى وَالجدُودُ الْعوَاثِرُ(٢)

فظننّا أنه الحارث بن مَضاض الجرهمىّ ، مُدّ له فى عمره إلى ذلك اليوم ؛ وبعضهم يقول ، شيخ من جرهم .

* * *

قالوا : وكان من أطول من كان قبل الإسلام عُمْراً رُبَيْعُ(٣) بن ضَبُيع بن وَهْب

---

(١) الحجون موضع بمكة . وقال ابن الأثير : الحجون الجبل المشرف مما يلى شعب الجزارين بمكة ، والصفا أحد جبلى المسعى بمكة .

(٢) الجدود جمع جد ، وهو البخت والحظ .

(٣) وقد اختلف فى ربيع بن ضبع الفزارى أحد المعمرين ، فقيل هكذا بالتصغير ، وقيل كأمير (زيادة فى إحدى الروايات) ، وروى بعضهم ربيع بن ضبيع بتصغيرهما معا .

ابن بَغيض بن مالك بن سعد بن عَدِىّ ، ابن فزارة ، عاش أربعين وثلاثمائة سنة ، ولم يُسْلِم .

وقال لما بلغ مائتى سنة وأربعين سنة[١] :

أَصْبَحَ مِنِّى الشَّبَابُ قَدْ حَسَرَا ... إِنْ يَنْأَ عَنِّى فَقَدْ ثَوَى عُصُرَا[٢]

وَدَّعَنَا قَبْلَ أَنْ نُوَدِّعَهُ ... لَمَّا قَضَى مِنْ جِمَاعِنَا وَطَرَا[٣]

هَا أَنَذَا آمُلُ الْخُلُودَ وَقَدْ ... أَدْرَكَ عَقْلِى وَمَوْلِدِى حُجُرَا

أَبَا مْرِئِ الْقَيْسِ هَلْ سَمِعْتَ بِهِ ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمُرَا

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِى وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

مِنْ بَعْدِ مَا قُوَّةٍ أُسَرُّ بِهَا ... أَصْبَحْتُ شَيْخًا أُعَالِجُ الْكِبَرَا

وقال لما بلغ مائتى سنة :

أَلَا أَبْلِغْ بَنِىَّ بَنِى رَبِيعٍ ... فَأَشْرَارُ الْبَنِينَ لَكُمْ فِدَاءُ

فَإِنِّى قَدْ كَبِرْتُ وَدَقَّ عَظْمِى ... فَلَا تَشْغَلْكُمُ عَنِّى النِّسَاءُ

وَإِنَّ كَنَائِنِى لَنِسَاءُ صِدْقٍ ... وما آلَى بَنِىَّ وَمَا أَسَاءُوا[٤]

[٨] ويروى : وما أَلَّى ، والتألية ، التقصير : ومن قال ، وما آلَى ، فالمعنى ، ما أقسموا ألا يَبَرُّونى .

حدثنا أبو حاتم قال ، حدثنا أبو الأسود النوشجانىّ ، عن العُمَرىّ ، عن أبى عمرو الشيبانىّ قال ، سألنى القاسم بن معد عن قوله :

---

(١) تنسب هـذه الأبيات مع تغيير فى بعض الألفاظ إلى تيم الفزارى حينما أدخل على واحد من خلفاء بنى أمية فسأله عن عمره ، وكان من المعمرين .   (٢) النأى = البعد ، والثواء = الإقامة .   (٣) الوطر بالتحريك الحاجة ، أو هو الحاجة فيها هم وعناية ، فإذا بلغتها فقد قضيت وطرك ، والجمع أوطار .

(٤) الكن بالكسر وقاء كل شىء وستره ، والكنائن جمع كنانة ، وهى جعبة السهام تعمل من الجلد .

مَا آلَى بَنِىَّ وَمَا أَسَاءُوا .

قلت : أَبْطَئُوا .

قال : ما تركت فى المسألة شيئا .

ورجع إلى بقية الشعر :

إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ فَأَدْفِئُونِى ... فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِّتَاءُ[1]

فَأَمَّا حِينَ يَذْهَبُ كُلُّ قُرٍّ ... فَسِرْبَالٌ خَفِيفٌ أَوْ رِدَاءُ[2]

إِذَا عَاشَ الْفَتَى مِائَتَيْنِ عَامًا ... فَقَدْ أَوْدَى الْمَسَرَّةُ وَالْفَتَاءُ

ويروى ، فقد ذَهَبَ التَّخَيُّلُ والفتاء ؛ والفَتَاءُ مصدر الفَتِىّ .

* * *

وقالوا : إن معاوية أُتِىَ برجل من جرهم[3] ، فقال : ما أسكنك هذه البلدة ؟

قال : خرج قومى من مكة ، وتفرقوا فى البلادَ ، فخرج أبى نحو الشام ، فلم أَزَلْ بها .

قال : كم أتى عليك ؟

قال : أربعون ومائتا سنة .

قال : فمَنْ أنت ؟

قال : من جرهم .

قال : كذبتَ ، لستَ منهم .

قال : فكيف تسألنى إذن ؟

قال : كم أتى عليك من الزمان ؟

قال : كالذى أتى عليك .

فظن معاوية ، أنه يعنى هُلْكَه ، فقال ، كذبتَ .

---

(١) فى رواية أخرى : يهرمه . (٢) القر بالضم البرد ، والسربال بالكسر القميص أو كل ما يلبس . (٣) هو عبيد بن شرية الجرهمى (تعليق فى النسخة) .

قال : فكيف رأيت الدَّهر ؟

قال : سَنَبات[١] بلاء ، وسَنَبات رخاء ، ويوم شبيه بيوم[١] ، وليلة شبيهة بليلة[١] ، يَهلِك والد ، ويخلُف مولود ، فلولا الهالك لامتلأت الدنيا ، ولولا المولود لم يَبق أحـد[٢] .

قال : فهل رأيت أُمَيّة ؟

قال : نعم ، يقوده ذَكْوانُ عبدُه .

فقال : كُفَّ[٩] ، فقد جاء غيرُ ما ذكرت .

قال : فأى المال أفضل ؟

قال : عَيْنٌ خَرَّارة فى أرض خَوَّارة[٣] .

قال : ثم مَهْ ؟

قال : فرس فى بطنها فرس، يتّبعها فرس ، قد ارتبطتَّ منها فرسا .

قال : ثم مَهْ ؟

قال : عدة أيام السنة ضَأْناً أَضْمن لصاحبها الغِنَى .

* * *

قالوا : وعاش الأَضْبَط بن قُرَيع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد بن مَنَاةَ ابن تميم عُمْراً ، ثم مات فى آخر الزمان ، وقد كان له حَمّام بالحِيرة ، فقال الأضبط :

يَاقَوْمِ ، مَنْ عَاذِرِى مِن الْخدَعَهْ ... والْمُسْىُ والصُّبْحُ لا فَلَاحَ مَعَـهْ

مَا بَالُ مَنْ غَيُّهُ[٤] مُصِيبُكَ لَا ... تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ الَّذِى وَزَعَهْ

(١) جمع سنبة ، وهى الحين من الدهر ، وتروى سنيهات بدل سنبات ، ويوم فى إثر يوم وليلة فى إثر ليلة بدل ما ذكر . (٢) وفى رواية أخرى بزيادة ، ثم أنشد :

وما الدهر إلا صدر يوم وليلة ... ويولد مولود ويفقد فاقـد

وساع لرزق ليس يدرك قوته ... ومهدى إليه رزمة وهو قاعد

(٣) الخرارة : عين الماء الجارية ، والأرض الخوارة اللينة السهلة والجمع خور .

(٤) فى رواية أخرى : سره .

حَتَّى إذَا مَا انجلَتْ عَمايَتهُ(١) أنحَى عَلَيْهِ ، وَأمْرُهُ فَجَمَهْ
وَصِلْ وِصَالَ الْبَعِيدِ مَا وَصَلَ الا حبْلَ ، وَأقْصِ الْقَرِيبَ إنْ قَطَعهْ
وَاقبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

***

قالوا : وعاش المستوغر بن ربيعة بن كعب ثلاثا وثلاثين وثلاثمائة سنة ، وقال قوم ، بل ثلاثمائة وثلاثين سنة(٢) ، وقال فى ذلك :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَعَمِرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئينَا
مِائَةٌ حَدَتْهَا بَعْدَهَا مِائتَانِ لِى وَعَمِرْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِينَا
هَلْ مَا بَقَى إلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمٌ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

بَقَى ، يريد ، بَقِىَ ، وهى لغة . وأنشد :

* لَقَاذَعْتُ كَعْباً مَا بَقَيْتُ وَمَا بَقَى *

وقال المفضّل : عاش زمانا طويلا ، وكان من فرسان العرب فى الجاهلية ، وكان رجل [١٠] من فتيان قومه يجلس إليه ، وكان لذلك الرجل صديق ، يقال له ، عامر ، وكان الفتى يقول لعامر ، إن امرأة المستوغر صديقة لى ، وهو يُطيلُ الجلوسَ ، فأحب أن تجلس معه ، حتى إذا أراد القيـام تثاءبتَ ، ورفعتَ صوتك بالثَّوباء حتى أسمعَ وأنصرفَ من عندها من قبل أن يَفجَأنا ونحن على حالنا تلك .

وإنما كان الفتى صديقا لأمّ عامر ، فأراد أن يشغله بحفظ المستوغر ، فيخالف الفتى إلى أم عامر ، فيكون معها ، حتى إذا سمع التثاؤب يخرج .

ففطن المستوغر لعامر وما يصنع ، فاشتمل على السيف ، وجلس حتى إذا لم يبق غيره وغير عامر قال : ألا ترى والذى أحلفُ به ، لئن رفعتَ صوتك لأضربنّك بالسيف .

---

(١) فى نسخة غوايته . (٢) وقال أصحاب الأنساب عاش المستوغر ثلاثمائة سنة وعشرين سنة ، فأدرك الإسلام ، أو كاد يدرك أوله ، وقال ابن سلام كان المستوغر قديما ، وبقى بقاء طويلا حتى قال ... (تعليق فى هامش النسخة) .

فسكت عامر ، فقال له المستوغر : قم معى .

فقاما إلى بيت المستوغر ، فإذا امرأته قاعدة بزينتها ، فقال :

— هل ترى من بأس ؟

قال : ما أرى بأسا .

قال المستوغر : فانطلق بنا إلى أهلك .

فانطلقا ، فإذا هو بالفتى متبطّنا أم عامر معها فى ثوبها .

فقال له المستوغر : انظرْ إلى ما ترى ؛ ثم قال : لَعَلَّنِى مُضَلَّل كَعَامِر .

قال أبو حاتم : وإنما المَثَل : حسِبْتُنِى مُضَلَّلا كعامر ، فذهب قوله مثلا .

وإنما سمّى المستوغر لأنه قال فى الشعر :

يَنِشُّ الماءُ فِى الرَّبَلَاتِ مِنْهَا ۝ نَشِيشَ الرَّضْفِ فى اللَّبَنِ الوَغِيرِ[١]

* * *

والعافيةُ خَلَفٌ من الوَاقِيـة[٢] ، وسَتُسَاق إلى ما أنت لاقٍ . أرانى غَنِيًّا ما دُمْتُ سَوِيًّا ، إن رُمت المُحَاجَزَة فقَبْلَ المُنَاجَزَة [١١] ، عَادَاكَ من لَاحَاكَ[٣] ، خَلٌّ الوَعيد يذهبُ فى البِيد[٤] ، إنَّكَ لا تبْلُغُ بَلَدًا إلّا بِزَادٍ ، لا تَسْخَرْ مِنْ شَىْءٍ فيَحُورَ بِكَ ، إنك ستَخَالُ ما لا تنَال (يريد أنك ستتمـنّى ما لا تقدر عليه ، والمعنى ، أنك تظنّ كل يوم أنك تبقى إلى غد ، وتظن الغد أنك تبقى إلى بعد الغد ، وذلك ما لا يكون) .

---

(١) الربلات جمع ربلة ، وهى باطن الفخذ ، والنشيش : صوت الماء عند الغليان أو الصب ، والرضف : الحجارة المحماة ، واللبن الرضيف والمرضوف الذى تطرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه ، والوغير : اللبن يغلى ويطبخ ، والإيغار أن تسخن الحجارة ثم تلقى فى الماء لتسخنه ، وقد قال المستوغر هذا البيت فى وصف فرس غرقت . (٢) فى رواية أخرى : ومن العافية خلف من الراقية. (٣) الملاحاة : المنازعة ، وفى رواية أخرى من لاحاك فقد عاداك .

(٤) البيد : الصحارى والقفار .

رُبَّ لَائِمٍ مُلِيم ، لا تهرِفْ بما لا تعرِف(١) ، وإذا تكلَّفْتَ غَيَّ الناس كنت أغواهم ، ليس من القوّةِ التورّطُ فى الهُوَّة ، وإلى أمّهِ يَجْزَعُ من لَهِفَ ، جدَّكَ لا كدَّك ، اِسْعَ بِجِدٍّ أو دَعْ ، إنَّ بَعْدَ الْحَوْلِ أَوَّلا ، وإن مع اليوم غدًا ، وإن أخاك من آتاك (يريد واتاك) ، من يَطُل ذيله يَنتَطِقْ به ، إن أَخَا الظُّلْمِ أَعْشَى بالليل ، ومن حَظِّكَ موضعُ حَقِّك ، لا تُلْزِم أخاكَ مَا سَاءَكَ ، ومِنْ خَيْرِ خَبَرٍ أن تسمع بمَطَر ، ونَاصِحْ أخاك الخبَرَ(٢) وكن منه على حَذَر ، وَلِّ الثُّكْلَ غيرك فإن العُقُوق ثُكْلُ مَنْ لَمْ يَثْكَل ، ومن لك بأخيكَ كُلّه ، والتَّجَرُّدُ لغير نِكَاح مُثْلَةٌ ، ولا تكونَنَّ راضيا بالقَوْل ، الحِرْسُ يَلْهَمُ العِرْض (يريد يأكله) ، لا تَحْمَدَنَّ أَمَةً عام اشترائها ، ولا فتَاةً عَامَ هِدَائِها(٣) ، لا تَلُمْ أخاك ما آسَاك .

قالوا : وجمع أكثم بن صيفى بَنِيه ، فقال : يا بَنِيَّ ، قد أتت علَيَّ مائتا سنة ، وإنى مُزَوِّدُكم من نفسى ؛ عليكم بالبرِّ فإنه يُنْمِى العدد ، وكُفُّوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فَكَّيْه ، إنّ قَوْل الحق لم يَدَعْ لى صديقا ، وإنه لا ينفع من الجزع التَّبَكِّى ، ولا مما هو واقع التَّوَقِّى [١٢] ، وفى طلب المعالى يكون الغرَر (ويقال: يكون العوَر) ، الاقتصاد فى السعى أبْقَى للجمال ، ومن لا يَأْسَى على ما فاته وَدَّعَ بَدَنَه(٤) ، ومن قَنِع بما هو فيه قرّت عَيْنُه ، التَّقَدُّمُ قبل التَّنَدُّم ، أَن أُصْبِحَ عند رأس الأمر أحبُّ إلىّ من أن أُصْبِحَ عند ذَنَبِه ، لم يَهْلِكْ من مَالِكَ ما وَعَظَك ، وَيلٌ لِعَالِمِ أَمْرٍ من جاهِله ، الْوَحْشَةُ ذَهَابُ الأَعْلَام (أى العظماء) ، ويتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدْبَر عرفه الأحمق والكَيِّس ، البَطَرُ عند الرَّخَاء حُمْق ، والْجَزَعُ عند النازلة آفة التجمّل ، ولا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ،

(١) أى لا تمدح بلا خبرة . (٢) أى خالصة فيما تخبره به .
(٣) أى بنائها . (٤) راح نفسه .

لا تُجيبُوا فيما لا تُسْأَلُون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يُضْحَك منه ، تَنَاءوا فى الديار لا تَبَاغَضُوا، فإن من يجتمعْ يَتَقَعْقَعْ[١] عَمَدُه (أو عُمُدُه ، يقالان جميعا) .

ولقد رأيت جبلا مُطِلًّا تُزَايِلُه حِجَارَتُه ، ولقد رأيتُه أَمْلَسَ ما فيه صَدْعٌ ، أَلْزِمُوا النساء المَهَانَةَ ، ولنعم لَهْوُ الحُرَّةِ المِغْزَل ، وأَحْمَق الحُمْقِ الفجور ، وحيلة من لا حيلة له الصبرُ ، إن كنت نافِعِي فوَرِّ عنى عينك ، إن تعش تَرَ ما لم تَرَ ، قد أقَرَّ صامتٌ ، المِكْثَار كحاطب الليل ، ومن أَكْثَر أَسْقَط ، والسَّرْوُ الظاهر الرِّيَاش ، لا تَبُولُوا على أَكَمَةٍ ، ولا تُفْشُوا سِرًّا إلى أَمَةٍ ، من لم يَرْجُ إلّا ما هو مُسْتَوْجِبٌ له كان قَمِنًا أن يُدْرِك حاجتَهُ ، لا تَمْنَعَنَّكُم مساوِئُ رجل من ذكر محاسنه .

حدثنا أبو روق ، قال ، حدثنا أبو عمر بن خَلّاد عن محمد بن حرب [١٣] الهلالِيّ قال ، قال أكثم بن صيفى لولده :

يا بَنِيّ ، لا يغلبنّكم جمال النساء عن صَراحة النسب فإن المَنَاكح الكريمة مَدْرَجة للشَّرَف[٢] .

قال أبو حاتم ، قالوا ، وكان من أمر رِيَاح بن ربيعة[٣] ذى ذَرَارِيح التَّميمىّ أنه أخذ عبدًا يقال له ، المَجْر ، وأَمَة يقال لها ، الصَّبْعاء ، وإبلا لابن أخٍ لأكثم ، فبعث إليه أكثم مالكَ بنَ نُوَيْرة ، وهو خَتَنُ[٤] رِيَاحٍ على ابنته ، فدفع إليه ما كان أخذ منه ، وأبطأ عليهم . فبعث إليه أكثمُ المُكَفَّف بن المُسَيّح ؛ فلما توجه من عنده قيل له ، قد انطلق ، فليأتينك بالإبل والعبد والأمة .

فقال أكثم : فَتًى وَلَا كَمَالِكٍ .

قال أبو حاتم : هذا مثل للعرب معروف .

---

(١) القعقعة : حكاية صوات السلاح والحجارة والرعد .

(٢) هذه الرواية لأبى روق ليست عن أبى حاتم . (٣) فى رواية: رباح بن الربيع .

(٤) الختن أبو امرأة الرجل وأخو امرأته ، وكل من كان من قبل امرأته .

فلما قدم عليه مالك قال : صَرَّحَ الأمر عن مَحْضِه .

فدفع إليه مال ابن أخيه ، فقال : أَقْصَرَ لَمَّا أَبصَر ، وهذا خَبَرٌ إِنْ كانَ لَهُ أَثَرٌ ، وفى الجَرِيرَةِ تَشْرَكُ العشيرة ، ورُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ من صَوْل ، والحُرُّ حُرٌّ وإن مَسَّه الضُرّ ، وإذا أَفْرِعَ الفؤاد ذهب الرُّقَاد ، هل يُهلِكُنِّى فقدُ ما لا يَعُود ، وأعوذ بالله أن يَرْمِيَنِى امْرُؤٌ بِدَائِه ، رُبّ كلامٍ ليس فيه اكْتِتام ، حافظ على الصَّدِيق ولو فى الحَرِيق ، وليس من العَدْل سُرْعة العَذْل ، وليس بيسير تقويم العسير ، وإذا أردت النصيحة فَتَأَهَّب للظِّنَّة ، ولو أُنْصِف المظلوم لم يبق فينا مَلُوم ، متى تُعَالِجْ مال غيرك تَسْأَمْ ، وغَثُّكَ خير من [١٤] سَمِين غَيْرِك ، لا تَنْطح جَمَّاء(١) ذاتَ قَرْنٍ ، وقد يبلغ الْخَضْمُ بالقَضْم(٢) ، وقد صَدَع الفِراق بين الرِّفَاق ، واستَأْنُوا أخاكم فإن مع اليوم أخاه ، وكُلُّ ذات بَعْلٍ سَتَئِيمُ ، وقد غَلَبَ عليك من دعا إليك ، والحُرُّ عَزُوفٌ (أى صبوز) لمــا يُبْلَى ، ولا تطمع فى كل ما تسمع .

قالوا : وأشار أكثم يومَ الكُلاب على بنى تميم حين سارت إليهم مَذْحِج بأجمعها ، فقال :

اسْتَشِيرُوا ، وأَقِلُّوا الخلاف على أمرائكم ، وإياكم وكثرة الصِّيَاح فى الحرب، فإن كثرة الصياح من الفَشَل ، وكونوا جميعا فإن الجميعَ غالبٌ ، والمرء يَعجِزُ لا مَحالَةَ ، تَثَبَّتُوا ولا تُسارِعوا، فإن أَحْزَم الفريقين أَرْكَنهما ، ورُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ، وتنمَّرُوا للحرب ، وادّرعوا الليــل ، واتّخذوه جَمَلًا ، فإن الليل أَخْفَى لِلوَيْل ، ولا جماعة لمن اختلف .

قال : وغزا أكثم ، فأسر الأَقْيَاسَ ونَهِيكا ، وأخذ أهليهم وأموالهم ، فقال لبنى أخيــه ، وهم ثلاثة ، الـكلب ، والذئب ، والسَّبُع بنو بنى عامر ، وعامر

---

(١) الشاة الجماء التى لا قرن لها . (٢) الخضم الأكل بأقصى الأضراس والقضم بأدناها .

أخو أكثم ؛ وكان أكبرهم الكلب وكان شرَّهم ، فدفع الأقياسَ ونَهِيكا وأهليهم إلى الكلب . ووضع الأموال على يدى الذئب ، وقال : إذا أطلقتَهم فادفع إليهم أموالهم واردُدْها عليهم .

فانطلق الكلب إلى الذئب فأخبره أنه قد أطلقهم ، فأكل منها ، فبلغ أكثم ، فقال :

نَعِمَ كلبٌ فى بؤس أهله ، ومن استرعى الذئب ظَلَم ، لا ترجمن عن خَيْرٍ [١٥] هَمَمْتَ به ، إنك لن تَخْبَأَ للدهر خَبيئًا إلا سأَلَكَهُ .

قال ، وقال أبو زيد : ما تَخْبَأُ للدهر يَسْلُكَهُ وربما أعلمُ فأَدَعُ .

تَشُجُّ بِيَدٍ وتأْسُو بِأُخْرَى ، وَدَّكَ من أَعْتَبَكَ ، وحَسْبُك من شَرٍّ سماعه ، لا تَكَلَّفَ الهَوْلَ فإن العاشِيَةَ تَهِيج الآبيةَ[١] ولِأَفْقَرَ مِنَّا يُهْدَى غمامُ أَرْضِنَا ، ليس الحِلْمُ عن قِدَمٍ ، وكن كالسَّمْنِ لا يَخِمُ[٢] .

قال الكلب : ما أنا بِرَادِّها حتى يمدحونى .

فقال قيس بن نوفل :

أَنْتَ السَّدَى وابنُ النَّدَى إِنْ رَدَدْتَهَا وَجَدُّكَ صَيْفِيٌّ وَخَالُكَ أَكْثَمُ[٣]

فقال : كفى بهذا عارا أن يُنْسب الرجل إلى أُمّه ، فرجع إلى فَخِذِه .

قالوا : وجمع أكثم قومه ، وسار حتى انتهى إليهم ، فقال: ياحاملُ ، اذكر حَلًّا .

فقال أبو حاتم : أَلِمثلك يا عاقدُ أذكر حَلًّا ؟ ، حَسْبُك ما بلَّغك المَحَلَّا[٤] ، رُبَّ أَكْلةٍ تَمْنَعُ أَكَلَات ، وربما ضَامَ قبل أن يُسام ، وإنما اتُّخِذَت الغنمُ من حَذَرِ العارِيَة ، ولَوْ لِذَا عَوَيْتُ لم أَعْوِ .

---

(١) العاشية : الإبل التى ترعى وتتعشى والآبية التى تعاف الماء ، والمعنى إذا رأت الآبية الإبل العواشى تبعتها فرعت منها . (٢) الطعام الوخيم غير الموافق . (٣) السدى هو المعروف .
(٤) كذا فى الأصل ، وصوابه المحل ، وقد التزم المد لتوافق السجع .

قال : فحلف عليه السبُعُ، لَيُرَدَّنَّها، وليطلقنَّها، ثم لا يقيم ببلد يُحْجَر عليه فيها. فشَخَصا ، وأبَى الذئب أن يتبعهما .

وقال أكثم : يا بَنِىّ ، لا حِكْمة إلا بِعصْمة ، ولا تكونوا كالكلب ، أحبُّ أهله إليه الظاعِنُ ، أرى الكَيْس[1] نصف العَيْش ، ولا تمنفُوا برُفْقةٍ طَلَبا لرزْقةٍ، ولا دواء لمن لا حيَاءَ له [١٦] ، وفى كل صَبَاحٍ صَبُوح[2] ، واذْلِلْ للحقّ تَعزِزْ ، ولا تَجْرِ فيما لا تدرى ، وفى الاعتبار غِنًى من الاختبار ، وكل ما يُبْذَل يُحْمَد ، وإنما يُمْسِك من استَمْسَك ، وكاد ذو الغُرْبة يكون فى كُرْبة ، والمنيّةُ تأتى على البقِيّة ، واسْتُرْ سَوْءَة لما تَعرِفُ فيك ، والذئب مَغبُوط بذى بَطْنِه .

قالوا : وكتبت جُهَيْنَة ومُزَيْنَةُ وأسْلَمُ وخُزَاعَة إلى أكثم ، أن أحْدِثْ إلينا أمْرًا نأخُذْ به ، فكتب إليهم :

لا تفرّقوا فى القبائل فإن الغريب بكل مكان مَظلوم ، عاقِدوا الثَّرْوة ، وإياكم والوشائظ (قال أبو حاتم ، وهم الحَشْوُ من الناس) فإن الذلّة مع القِلّة ، جازوا أخلاقكم بالبَذْل والنَّجْدة ، إن العاريّة لو سُئِلَت ، أين تذهبين ؟ لقالت ، أبغى أهْلى ذَمّا ، من يتتبّع كل عَوْرَةٍ يَجِدْها ، والرسول مُبَلِّغٌ غير مَلُوم ، من فَسَدَتْ بطانته كان كمن غصّ بالماء ، ولو بغيره غصّ أجارَتْه غُصَّتُه ، أشْرَافُ القوم كالمُخِّ من الدابّةِ فإنما تنوء الدابة بِمُخِّها ، وأشد القوم مئونةً أشرافهم ، وهم كَحَاقِنِ الإهالَةِ، من أساء سَمْعًا أساءَ إجابةً ، والدّال على الخير كفاعله ، والجزاء بالجزاء والبادئُ أظلم ، والشرُّ يبْدَؤُه صِغارُه ، وأهون السَّقْىِ التَّشْريع[3] .

قالوا : تنافر[4] القَعْقاع ، وخالد بن مالك بن سَلْم النَّهْشَلِىّ إلى أكثم بن صيفىّ،

---

(١) الكياسة : الفطانة والعقل . (٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح .

(٣) شرع الإبل وشرعها أوردها شريعة الماء فشربت ولم يستق لها ، والمعنى أن مورد الإبل إذا ورد بها الشريعة لم يتعب فى إسقاء الماء لها كما يتعب إذا كان الماء بعيدا عنها .

(٤) المنافرة : المحاكمة فى النسب أو المفاخرة ، وكانت من عادات العرب فى الجاهلية .

أيهما أقرب إلى المجد والسُّؤدد ، فقال : [١٧] سفيهان يريدان الشر ، ارجعا ، فإن أبيتم فإنى لست مفضِّلا أحدا من قومى على أحدٍ ، كُلُّهم إلىّ شَرْعٌ(١) سواء .

وخلا بكل واحد منهما يسأله الرجوع عما جاء له .

فلمّا أبيا بعث معهما رجلا إلى ربيعة بن حُذار الأسدِىّ ، وحبس عنده إبلهما ، وكانا تنافرا مائةً لمائةٍ ، فقال : انطلقا مع رسولى هذا ، فإنه قتلتْ أرضٌ جاهلَها ، وقتل أرضاً عالِمُها ، الرِّفْقُ حُسْنُ الأَنَاةِ ومؤاتاة الأولياء ، واللؤمُ منعُ السَّداد وذمُّ الجَوَادِ ، والدِّقَّة منع اليسير ، وطلب الحقير ، والخُرْقُ طلب القليل وإضاعة الكثير ، صَادِقْ صديقك هَوْناً ما عسى أن يكون عدوَّك يوما ما ، وعَادِ عَدُوَّك هَوْناً ما عسى أن يكون صديقك يوماً ما .

قال : فنفّر ربيعةُ القعقاعَ على خالد ، وقال : ما جُعِل العبدُ كَرَبِّهِ .

فرجع خالد مُغْضَباً ، فإذا هو براعٍ لبنى أسد ، فسأله ، فأخبره الخبر ، فقال الراعى : اِلْحَق بأكثم فإن أخذت الإبل وإلا فقد هلكت .

فجاء إلى أكثم فادّعاها ، وسأله الإبل ، فقال أكثم : حتى يأتينى رسولى .

فخرج من عنده مُغْضَباً حتى أتى بنى مُجاشِع وبنى نهشل فقال : أتَغْلِبُنِى أُسَيِّدٌ على مالى ؟

فخرجوا ، فركبوا إليهم ، فخرج إليهم أكثم فى قومه ، فردّهم .

وقال فى ذلك :

أُنْبِئْتُ أَنَّ الْأَقْرَعَيْنِ وَخَالِدًا ... أَرَادُوا بِأَنْ يَسْتَنْقِصُوا عِزَّ أَكْثَمَا

[١٨] (ويروى : يَسْتَهْضِمُوا ؛ وقيل : يَسْتَبْضِمُوا) .

فَعَضَّ بِمَا أَبْقَتْ خَوَاتِنُ أُمِّهِ ... بِعَمْدٍ أَرَادُوا أَنْ أُذَمَّ وَيَغْنَمَا

(أى : ويغنم خالد) .

---

(١) أنتم فيه شرع سواء أى متساوون لافضل لأحدكم على الآخر ، وهو مصدر بفتح الراء وسكونها ، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث .

وزعموا أنه قال أيضا :

سَأَحْبِسُهَا حَتَّى يَبِـينَ سَبِيلُهَا وَيَسْرَحَهَا تُحْدِى إِلَى الْحَىِّ أَسْلَمُ
وَيَمْنَعُهَا قَوْمِى ، وَيَمْنَعُهَا يَدِى وجَرْدَاءُ مِنْ أَهْلِ الأُفَاقَةِ صِلْدِمُ(١)

قال : أصاب النعمان بن المنذر أُسَارى من بنى تميم ، فركب إليه وفودُهم ، وفيهم أكثم بن صيفىّ حتى انتهوا إلى النَّجَف ، فلما عَلَوْه أناخ أكثم بعيره ، وقال لأصحابه: ترون خُصَيْلَتِى ؟

قالوا : رأينا ما ساءنا .

قال : قلبى مُضْغَة من جسدى ، ولا أظُنُّه إلّا نحَل كما نَحَل سائرُ جسدى ، فلا تَتَّكِلُوا علىّ فى حيلة ولا مَنْطِق .

فقدموا الحيرة ، فأقاموا نِصْفَ حَوْل .

ثم شخص النعمان إلى القُطْقُطانَة(٢) ، فأقام بها نصف حول .

فلما انفضّت الوفود ، ولم يبق منهم إلا اليسير قام أكثم ، وأخذ بحلقة الباب ، ونادى :

يَا حَمَلَ بنَ مَالكِ بنِ أَهْبَانْ هَلْ تُبْلِغَنَّ مَا أَقُولُ النُّعْمَانْ
إِنَّ الطَّعَامَ كَانَ عَيْشَ الإِنْسَانْ أَهْلَكْتَنِى بِالحَبْسِ بَعْدَ الحِرْمَانْ
مِنْ بَيْنِ عَارٍ جَائِعٍ وَعَطْشَانْ وَذَاكَ مِن شَرِّ حِبَاءِ الضِّيفَانْ(٣)

فسمع النعمان صوتَه ، فقال : أبو حَيْدَةَ وربِّ الكعبة ، ما زلنا نحبس أصحابه حتى تَفَحَّشْنَاه .

ثم أذن لهم .

---

(١) الأفاقة : موضع ، وقد ذكره لبيد :

وشهدتُ أَنْجِيةَ الأفاقة عاليا كعبى وأردافُ الملوكِ شهود

والصلدم : الشديد الحافر ، والجرداء الفرس قصيرة الشعر . (٢) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية ، وكان به سجن النعمان بن المنذر . (٣) الحباء مايقدم للضيوف.

فلما دخلوا قال : مَرْحَباً بكم ، سَلُونى ما شئتم إلا أُسارى عندى .

فطلب إليه القوم [١٩] حوائجهم ؛ وأبى أكثم أن يسأله .

فقيل له : ما يمنعك ؟

قال : قد علم قومى أنى من أكثرهم مالا ، وجئنا لأمرٍ قد نُهينا عنه .

فقال النعمان : ما أراهم إلا سَيَغنَمُون ، وتخيبُ .

قال ذلك لهم ثلاثا ، يقول النعمان مثل مقالته ، ويقول أكثم مثل مقالته ، ثم أذن له فى الرابعة فى القول .

فتكلم أكثم ، فقال :

« أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، قد علم قومى أنى من أكثرهم مالا ، ولم أسأل أحدا شيئا ، إن المسْأَلَةَ مِنْ أَضْعَفِ المَكْسَبَةِ ، وقد تجوع الحُرَّةُ ولا تأكل بِثَدْيَيْها ، إن من سلك الجَدَدَ[١] أَمِنَ العِثارَ ، ولم يَجُرْ سالِكُ القَصْدِ ، ولم يَعْمَ على القاصِدِ مَذهَبُه ، من شَدَّدَ نفَّر ، ومن تَرَاخَى تَأَلَّفَ ، والسَّرْوُ[٢] التَّغَافُل ، وأحسنُ القول أَوْجزُه ، وخير الفِقْهِ ما حاضَرْتَ به » .

فقال النعمان : سَلْ حاجتك .

فقال : نَاقَتُكَ بِرَحْلِهَا ، وخِلْعَتُكَ ، وكلُّ مَكْرُوبٍ بالقطقطانة والحيرة عرفنى .

قال : ذاك لك .

فركب ناقته فى كُسْوَتِهِ ، ثم نادى ، يا أهل السجن ، إن النعمان قد جعل لى من عرفنى .

قالوا : كلُّنا يعرفك ، أنت أكثم بن صيفى .

---

(١) الجدد : ما استدق من الرمل . (٢) السرو : المروءة .

ثم فعل مثل ذلك بالحيرة[١] ، فأخرجهم ، ثم قال :

ثَوَيْنَا بِالْقُطَاقِطِ مَا ثَوَيْنَا ... وَبِالْعَبْرَيْنِ[٢] حَوْلًا مَا نَرِيمُ
وَأُخْبِرَ أَهْلُنَا أَنْ قَدْ هَلَكْنَا ... وَقَدْ أَعْيَا الْكَوَاهِنُ وَالْبُسُومُ[٣]
وَآسَانَا عَلَى مَا كَانَ أَوْسٌ ... وَبَعْضُ الْقَوْمِ مَلْحِيٌّ ذَمِيمُ[٤]
فَقُلْتُ لَهُمْ ، أَيَا قَوْمِى أَبَانَتْ ... فَكُونُوا النَّاهِضِينَ بِهَا ، وَقُومُوا
[٢٠] بِوَفْدٍ مِنْ سَرَاةِ بَنِى تَمِيمٍ ... إِلَى أَمْثَالِهِمْ لَجَأَ الْيَتِيمُ
فَإِنَّكُمُ لَأَنْ تُكْفَوهُ أَهْلٌ ... عَلَيْكُم حَقٌّ قَوْمِكُمُ عَظِيمُ
وَإِنَّكُمُ بِعَقْوَةِ ذِى بَلَاءٍ ... وَحَقُّ الْمَلْكِ مَكْشُوفٌ عَظِيمُ[٥]

قال : وكتب ملك هَجَر ، أو نَجْرانَ[٦] إلى أكثم أن يكتب إليه بأشياء ينتفع بها ، وأن يوجز .

فكتب إليه :

« إن أَحْمَقَ الحُمْقِ الفجورُ ، وأَمثَلَ الأشياء تركُ الفضول ، وقلةَ السَّقَط لزومُ الصواب ، وخيرُ الأمور مَغَبَّةً أَلَّا تَنِى فى استصلاح المال ، وإياكَ والتبذير فإن التبذير مفتاحُ البؤس ، ومن التوانى والعجز نَتَجت الهلكةُ ، وأَحْوَجُ الناس إلى الغِنَى من لا يصلحه إلا الغِنَى — وأولئك الملوكُ — ، وحُبُّ المديح رأسُ الضياع ، وفى المشورة صلاح الرعية ومادّةُ الرأى ، ورضا الناس غايةٌ لا تُدْرَكُ ، فَتَحَرَّ الخير بجَهْدِكَ ، ولا تَحْفِل سُخْطَ مَنْ رِضَاهُ الْجَوْر ، ومعالجة العقاب سَفَهٌ ، وتعوَّدِ الصَّبْر ، لكل شَيْءٍ ضَرَاوَة ، فَضَرِّ لِسَانَكَ بِالْخَيْر ، وتَوَكَّل بِالْمُهِمّ ، ووَكِّلْ

(١) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على النجف ، وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية ، النعمان وآبائه . (٢) اسم موضع بالحيرة ، وفى رواية ثانية : وبالغربين .
(٣) حرفة الكهانة : القضاء بالغيب ، الواحد كاهن وجمعه كهان وكهنة ، ولعل البسوم فى معنى الكواهن . (٤) لحا يلحو أى شتم . (٥) العقوة : ما حول الدار والمحلة .
(٦) هجر : قاعدة إقليم البحرين ، وقيل ناحية البحرين كلها هجر ، ونجران موضع بأرض البحرين .

بالصغير ، وأخِّرْ الغضب فإن القدرة من ورائك[١] ، وأقل الناس فى البُخْلِ عُذْرًا أَقَلُّهُم تَخوُّفا للفقْر ، وأقْبح أعمال المقتدرين الانتقام[٢] ، جَازِ بالحسنة ، ولا تُكافِئْ بالسَّيِّئة ، فإن أَغْنَى الناس عن الحقد من عَظُمَ خَطَرُه عن المُجازَاةِ ، وإن الكريمَ غير المُدافِع إذا صَالَ[٣] بِمَنْزِلَةِ اللئيم البَطِر ، من حسد من دونه قَلّ عذره ، ومن حسد من فوقه فقد[٢١] أتعب نفسه ، من جعل لِحُسْنِ الظَّنِّ نصيبا رَوَّحَ عن قلبه ، وأصْدَرَ به أَمْرَه[٤] » .

وكتب الحارث بن أبى شَمِر الغَسَّانىّ ملك عرب الشام إلى أكثم بن صيفى بن رَبَاح[٥] ، أن هِرَقْل نزل بنا ، فقامت خُطَبَاءُ غسّان فتلَقَّتْه بأمرٍ حسن ، فوافقه ، فأُعْجِبَ به ، فعَجِبَ من رأيهم وأحلامهم ، وأعجبنى ما رأيت منهم ، ففخرتُ بهم عليه ، فقال : هـذا أدبى فإن جَهِلْتَ ذاك فانظر ، هل بجزيرة العرب مثل هؤلاء حِكْمَةً ، وعُقُولًا ، وألْسِنَةً .

فكتب إليه أكثم :

« إن المروءة أن تكون عَالِماً كَجَاهلٍ ، ونَاطِقا كَعَيِىّ ، والعلم مَرْشَدَةٌ ، وتَرْكُ ادّعائه يَنْفِى الحسد ، والصَّمْتُ يُكْسِبُ المَحَبَّةَ ، وفَضْلُ الْقوْل على الفعل لُؤْمٌ ، وفَضْل الفِعْل على القول مَكْرَمَةٌ ، ولَمْ يُلِزَّ الكذب بشىء إلا غلب عليه ، وشرّ الخصال الكذب ، والصَّدِيقُ من الصِّدْقِ سُمِّىَ[٦] ، والقلب يتّهم وإن صَدَقَ اللسانُ ، والانقباضُ من الناس مَكْسَبَةٌ للعَدَاوة ، والتقرُّبُ من الناس مَجْلَبَةٌ لِجَلِيسِ السُّوءِ ، فكُنْ من الناس بين المُنْقَبِض والمُسْتَرْسِل ، وخيرُ الأمور

---

(١) ويروى : إن المقدرة تذهب الحفيظة . (٢) وفى رواية أخرى : العقوبة ألأم حالات القدرة . (٣) الصول والصيال الاستطالة . (٤) وفى رواية أخرى: « من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيبا... » . (٥) فى نسخة أخرى : رياح بن شمر.

(٦) فى رواية أخرى زيادة : والعدو سمى عدوا لعدوه عليك ، وقال ثعلب إنما سمى الخليل خليلا لأنه محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا إلاملأته .

أوْسَاطُها ، وأفضلُ القُرَنَاءِ المرأةُ الصالحة ، وعنـد الخوف حَسُنَ العَمَل ، ومن لم يكن له من نفسه واعظٌ لم يكن له من عِلْمِهِ زَاجِرٌ (أى لم يَحْفِلْ بمُرْشِد) ، ومن أهمل نفسه أمْكَنَ عَدُوَّه (أو قال تمكن من عدوه) على أسْوَإِ عَمَله ، وفُسُولَة[1] الوزراء أضرُّ [٢٢] من بَعْضِ الأعْدَاء ، وأوَّلُ الغَيْظِ الوَهَنُ » .

قالوا : وكتب النعمان بن المنذر إلى أكثم ، وذَكَرَ مَلِكٌ من ملوك فارس رجالَ العرب وعداوة بعضهم لبعض ، وحالَهم فى بلادهم ، فقال الفارس : هـذا لخِفَّة أحْلَامهم ، وقلّة عقولهم .

فكتب إلى أكثم أن اعهَدْ إلينا أمْرًا نُعْجِب به فارسَ ونرغِّبهم به فى العرب. فكتب أكثم :

« لن يَهْلِكَ امْرُؤٌ حتى يُضَيِّع الرأى عند فعله ، ويستَبِدّ على قومه بأموره ، ويُعْجَبَ بما ظهر من مروءته ويَغْتَرّ بِقُوَّتِه ، والأمر يأتيه من فوقه ، وليس للمختال فى حسن الثناء نصيب ، والجهل قوة الخُرْق ، والخُرْقُ قوة الغضب ، وإلى الله تصير المَصائر ، ومن أتى مكروهاً إلى أحد فبنفسه بَدَأ ، إن الهلكة إضاعة الرأى، والاستبداد على العشيرة يجُرُّ الجَرِيرَة ، والعُجْبُ بالمروءة دليل على الفسولة ، ومن اغترّ بقوته فإن الأمر يأتيه من فوقه ، لقاء الأحبة مَسْلَاةٌ للهمّ[2] ، من أَسَرّ ما لا ينبغى إعلانُه ولم يعلن للأعداء سريرته سَلِمَ الناسُ عليه ، والعِيُّ أن تَتَكَلَّم بفوق ما تسدّ به حاجتك ، وينبغى لمن عَقَل ألا يثق بإخاء من لم تضطرّه إليه حاجةٌ ، وأقَلُّ النـاس راحةً الحَقُودُ ، ومن أُتِى على يديه[3] غير عامد فأعْفِه من المَلامة (أو اللائمة) ، ولا تعاقب على الذنوب إلا بقدر عقوبة الذنب فتكون مُذْنِباً ، ومن تَعَمّد الذَّنْبَ لم تَحُل الرحمة [٢٣] دون عقوبته ، والأدب رِفْقٌ ، والرفق يُمن ،

(١) الفسل : الرذل النذل الذى لامروءة له (٢) ويروى : فيه مسلاة عن الكرب .
(٣) وفى رواية زيادة : مكروه إلى أحد .

والخُرْق شُؤْم ، وخير السخاء ما وافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع القدرة[١] ، ومن سوء الأدب كثرة العتاب ، ومن اغْتَرّ بقُوَّتِه وَهَن ، ولا مروءة لِغَاشٍّ ، ومن سَفِه حلمُه هان أمرُهُ ، والأحداث تأتى بَغْتَةً ، وليس فى قدرة القادر حِيلة ، ولا صواب مع العُجْب ، ولا بَقَاء مع بَغْىٍ ، ولا تَثِقَنَّ بمن لم تختبره » .

***

أخبرنا أبو روق قال ، حدثنا أبو حاتم قال ، وذكر ابن الكلبى ، عن عيسى ابن لقمان ، عن محمد بن حاطب الجُمَحِىّ قال : عاش ضُبَيْرة بن سُعَيْد بن سعد بن سَهْم ابن عمرو بن هُصيص مائتى سنة وعشرين سنة ، ولم يشب شيبة قط ، وأدرك الإسلام فلم يُسْلِم .

وقد اختلف فى إسلامه ، فقالت نائحتُه بعد موته :

مَنْ يَأْمَنِ الحَدَثَانِ بَعْـ ... ـدَ ضُبَيْرَةَ السَّهْمِىِّ مَاتَا
سَبَقَتْ مَنِيَّتُـهُ المَشِيـ ... ـبَ وَكَانَ مِيتَتُهُ افْتِلَاتَا[٢]
فَتَزَوَّدُوا لَا تَهْلِـكُوا ... مِنْ دُونِ أَهْلِـكُمُ خُفَاتَا

***

قال : وعاش دُوَيْدُ بِن نَهْدٍ[٣] أربعمائة سنةً وستا وخمسين سنة ، فلما حضره الموت قال :

أَلْقَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجْلًا وَيَدَا ... وَالدَّهْرُ مَا أَصْلَحَ يَوْمًا أَفْسَدَا
يُفْسِدُ مَا أَصْلَحَهُ الْيَوْمَ غَدَا

وقال أيضا :

يَا رُبَّ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ ... ورُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهُ[٤]

---

(١) وفى رواية : أحق الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . (٢) أى بغتة .
(٣) فى رواية أخرى : دريد بن زيد الحميرى ، وهو خطأ ، وقيل إنه دريد بن زيد بن نهد .
(٤) الغيل الذراع الممتلئة الحسنة ، وفى نسخة أخرى : عبل ، والعبل هو الساعد الممتلئ .

[٢٤] اَلْيَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُهُ(١) لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِى وَاحِدًا كَفَيْتُهُ(٢)

ثم مات مكانه .

قالوا : وجمع بنيه عند الموت ، فقال :

« أُوصِيكم بالناس شرًّا ، لا تقبلوا لهم مَعْذِرةً ولا تُقِيلُوهم(٣) عَثْرَةً ، أوصيكم بالناس شرا ، طَعْناً وضَرْباً ، قَصِّرُوا الأَعِنَّةَ ، وأَشْرِعُوا(٤) الأَسِنَّة ، وارعَوْا الكلأ وإن كان على الصَّفَا ، وما احتجتم إليه فصونوه ، وما استَغْنَيْتُم عنه فأَفْسِدُوه على من سِوَاكم ، فإن غِشَّ الناس يدعو إلى سُوءِ الظن ، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس » .

وأوصى نَهْدُ بن زيد بَنِيه فقال :

« يا بنىّ ، أُوصِيكُم بالناس شرًّا ، كَلِّمُوهم نَزْرًا ، واطعنوهم شَزْرًا ، ولا تَقْبَلُوا لهم عُذْرا ، ولا تُقِيلوهم عثرة ، وقصِّرُوا الأعِنَّة ، واشْحَذُوا الأسنّة تأكلوا بذلك القريب ، ويرهَبْكم البعيد ، وإيَّاكم والوَهَن فيطمع فيكم الناس » .

***

قال أبو حاتم ، وذكر ابن الجَصَّاص أن مُحَصِّن بن عِتْبان بن ظالِم الزُّبَيْدِىّ عاش مائتى سنة وستا وخمسين سنة ، قال وهو من سعد العشيرة ، وقال :

أَلَا يَا أَسْمَ إِنِّى لَسْتُ مِنْكُمْ وَلَكِنِّى امْرُؤٌ قَوْمِى شَعُوبُ
دَعَانِى الدَّاعِيَانِ فَقُلْتُ إِيهاً فَقَالَا : كُلُّ مَنْ نَدْعُو يُجِيبُ
أَلَا يَا أَسْمَ أَعْيَانِى الرُّكُوبُ وَأَعْيَتْنِى المَكَاسِبُ والذُّهُوبُ(٥)

(١) يعنى القبر . (٢) وقد استبدل بهذا الشطر : فى نسخة أخرى قوله .
وربّ قِرْنٍ بَطَلٍ أَرْدَيْتُهُ وَمِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيْتُهُ

(٣) وفى رواية : ولا تقيلوا لهم . (٤) أطولوا . (٥) ويروى هذا الشطر :
فمشى حين أنجله دبيب .

وَصِرْتُ رَزِيَّةً فِى الْبَيْتِ كَلًّا ... تَأَذَّى بِى الْأَبَاعِدُ وَالْقَرِيبُ
[٢٥] كَذَاكَ الدَّهْرُ والْأَيَّامُ غُولٌ ... لَهَا فِى كُلِّ سَائِمَةٍ نَصِيبُ

***

وعاش دُرَيْد بن الصِّمَّة الجُشَمِىّ(١) ، من جُشَمِ بن سعد بن بكر ، نحوا من مائتى سنة ، حتى سقط حاجباه على عينيه ، وأدرك الإسلام ولم يُسْلِم ، وقتل يوم حنين كافرا ، وإنما خرجت به هوازن تَتَيَمَّنُ به .

وقال دريد :

فَإِنْ يَكُ رَأْسِى كالثَّغَامَةِ نَسْلُهُ ... يُطِيفُ بِى الوِلْدَانُ أَحْدَبَ كَالْقِرْدِ(٢)
رَهِينَةَ قَعْرِ الْبَيْتِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... كأنى أُرَقَّى أو أُصَوَّبُ فى الْمَهْدِ
فَمِنْ بَعْدِ فَضْلٍ مِنْ شَبَابٍ وَقُوَّةٍ ... وَشَعْرٍ أَثِيثٍ حَالِكِ اللَّوْنِ مُسْوَدِّ(٣)

وأنه لما كبر أراد أهله أن يحبسوه ، فقالوا : إنا حابسُوك ومانعوك من كلام الناس ، فقد خشينا أن تُخَلِّطَ فيَرْوِى ذلك الناس علينا ، ويرون منك علينا عارا .

قال : أَوَقَدْ خَشِيتم ذلك منى ؟

قالوا : نعم .

قال: فانحروا جزورا ، واصنعوا طعاما، وأجمعوا إلىّ قومى حتى أُحْدِث لهم عهدا.

فنحروا جزورا ، وعملوا طعاما ، ولبس ثيابا حسانا ، وجلس لقومه ، حتى إذا فرغوا من طعامهم قال :

---

(١) جاء فى هامش الصحيفة بخط الرقعة للناسخ تعليق : كتب شيخنا العلامة المحقق الشيخ محمد محمود على النسخة المنقول منها مانصه : قلت لم يلد سعد بن بكر ولدا اسمه جشم ، ولقد سها أبو روق وشيخه أبو حاتم فى قولهما من جشم بن سعد بن بكر ، والصواب وهو الحق المجمع عليه أن دريد بن الصمة الجشمى من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

(٢) فى التهذيب للأزهرى : الثغامة نبات ذو ساق جماحته مثل هامة الشيخ ، وقال أبو عبيد هو نبت أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

(٣) الشعر الأثيث هو الكثير .

« اسمعوا منّى ، فإنى أرى أمرى بعد اليوم صائرا لغيرى ، وقد زعم أهلى أنهم خافوا عَلَىّ الوَهْمَ ، وأنا اليوم خبير بصير ، إن النصيحة لا تَهْجُم على فضيحة ، أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك ، فإنهم كالسَّيْل بالليل ، لا تدرى كيف تأتيه ، ولا من أَيْن يأْتيك ، وإذا دنا منكم الملك واديًا فاقطعوا بينكم وبينه وادِيَيْن ، وإن أَجْدَبْتُم فلا تَرْعَوا حِمَى الملوك وإن أذنوا لكم ، فإن من [٢٦] رعاه غَانِمًا لم يرجع سَالِماً ، ولا تَحْقِرَنَّ شرًّا فإن قليله كثيرٌ ، واستكثروا من الخير فإن زهيده كبير ، اجعلوا السلام مَحْيَاةً بينكم وبين النـاس ، ومَنْ خَرَق سِتْرَكم فارقَعُوه ، ومن حَارَبكم فلا تَغْفِلُوه ، ورَوْا منه ما يرى منكم ، واجعلوا عليه حَدَّكُم كلّه ، ومن تَكَلَّم فاتركوه ، ومن أَسْدَى إليكم خيرا فأَضْعِفُوه له ، وإلا فلا تَعْجِزُوا أن تكونوا مِثْلَه ، وعلى كل إنسان منكم بالأقرب إليه ، يكفى كلُّ إنسان ما يَلِيه ، وإذا التقيتم على حَسَبٍ فلا تَوَاكَلُوا فيه ، وما أَظْهَرْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَاجْعَلُوه كثيرا ، ولا يُرَ رِفْدُكم صغيرا ، ولا تنافسوا السؤدد ، وليكن لكم سَيِّدٌ ، فإنه لابد لكل قوم من شَرِيف ، ومن كانت له مروءة فَلْيُظْهِرْها ، ثم قومُه أعلم ، وحَسْبُه بالمروءة صاحبا ، ووسِّمُوا الخير وإن قَلّ ، وادفِنوا الشَّرَّ يَمُتْ ، ولا تنكحوا دَنِيًّا من غيركم فإنه عارٌ عليكم ، ولا يَحْتَشِمَنَّ شريف أن يرفَعَ وضيعَه بأياماه[1] ، وإياكم والفاحشة فى النساء فإنها عَارُ أَبَدٍ وعقوبةُ غدٍ ، وعليكم بصلة الرَّحِم فإنها تعظّم الفضل وتُزَيِّن النَّسْل ، وأسلموا ذا الجريرة بجريرته ، ومن أبى الحقّ فأعلقوه إيَّاه ، وإذا عَيِيتم بأمر فتعاونوا عليـه تبلغوا ، ولا تُحْضِرُوا نَادِيَكم السَّفِيهَ ، ولا تَلِجُّوا بالباطل فَيَلِجَّ بكم » .

* * *

قالوا : وعاش ابن حُمَمَة الدَّوْسِيّ ، واسمه كعب ، أو عمرو ، أربعمائة سنة غير عشر سنين ، فقال :

(١) الأيامى جمع أيم ، وهى من لا زوج لها ، بكرا أو ثيبا ، ومن لا امرأة له .

[٢٧] كَبِرْتُ، وَطَالَ الْعُمْرُ حَتَّى كَأَنَّنِي سَلِيمُ أَفَاعٍ ، لَيْلُهُ غَيْرُ مُودَعِ
فَمَا الْمَوْتُ أَفْنَانِي وَلَكِنْ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ سِنُونَ مِنْ مَصِيفٍ وَمَرْبَعِ
ثَلَاثُ مِئِينَ قَدْ مَرَرْنَ كَوَامِلًا وَهَا أَنَذَا أَرْتَجِي مَرَّ أَرْبَعِ
وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَتْ فِرَاخُهُ إِذَا رَامَ تَطْيَارًا يُقَلْنَ لَهُ قَعِ (١)
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُطَارَ بِمَصْرَعِي (٢)

***

قالوا : وعاش كَهْمَسُ بن شُعَيْب الدَّوْسِيّ أربعين ومائة سنة ، فقتله تَأَبَّطَ شَرًّا الفَهْمِيّ .

وكهمس الذي يقول :

أَلَا رُبَّ نَهْبٍ يَخْطِرُ الْمَوْتُ دُونَهُ حَوَيْتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلَا (٣)
وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَزَعْتُهَا بِخَيْلٍ تُسَاقِيهَا ثُمَالًا مُثَمَّلَا (٤)
وَلَذَّاتِ عَيْشٍ قَدْ لَقِيتُ وَشِدَّةٍ صَبَرْتُ لَهَا جَاشِي وَلَمْ أَكُ أَعْزَلَا
وَمُسْتَلْحِمٍ فِيهِ الْأَسِنَّةُ شُرَّعٌ دَعَانِي حِذَارًا أَنْ يُصَابَ وَيُقْتَلَا
سَعَيْتُ إِلَيْهِ سَعْيَ لَا وَاهِنِ الْقُوَى وَلَا عَاجِزٍ لَا يَسْتَطِيعُ التَّحَلْحُلَا
فَنَفَّسْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ وَانْتَشْتُ نَفْسَهُ وَقَدْ عَايَنَ الْأَبْطَالَ أَخْوَلَ أَخْوَلَا (٥)
وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى مَلِلْتُ مَعِيشَتِي وَأَيْقَنْتُ حَقًّا أَنْ سَأَلْقَى الْمُوَكَّلَا
وَأَلَّا نَجَاةَ لِامْرِئٍ مِنْ مَنِيَّةٍ وَلَوْ حَلَّ فِي أَعْلَى شَمَارِيخِ يَذْبُلَا (٦)

***

قالوا : وعاش مَصَادُ بن جَناب بن مُرارةَ من بنى عمرو بن يربوع بن حنظلة ابن زيد مناة أربعين ومائة سنة ، وقال :

(١) قع أمر من الفعل وقع . (٢) وفى رواية أخرى : يسار (٣) المجدل هو المصروع ، والقرن الكفء فى الشجاعة . (٤) الثمال هو السم المنقع كالمثمل .
(٥) ذهب القوم أخول أخول إذا تفرقوا شتى، وهما اسمان جعلا اسما واحدا وبنيا على الفتح، والألف فى أخولا للاطلاق . (٦) الشماريخ رءوس الجبال ، ويذبل جبل فى بلاد نجد .

مَا رَغْبَتِي فِي آخِرِ الْعَيْشِ بَعْدَ مَا ... أَكُونُ رَقِيبَ الْبَيْتِ لَا أَتَغَيَّبُ
إِذَا مَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ لِحَاجَةٍ ... يَقُولُ رَقِيبٌ حَافِظٌ ، أَيْنَ تَذْهَبُ ؟
[٢٨] فَيَرْجِعُه الْمَرْمَى بِهِ عَنْ سَبِيلِهِ ... كَمَا رَدَّ فَرْخَ الطَّائِرِ الْمُتَرَبِّبُ(١)

وقال أيضا :

إِنَّ مَصَادَ بْنَ جَنَابٍ قَدْ ذَهَبْ ... أَدْرَكَ مِنْ طُولِ الْحَيَاةِ مَا طَلَبْ
وَالْمَوْتُ قَدْ يُدْرِكُ يَوْمًا مَنْ هَرَبْ

وقال أيضا :

لِلْمَوْتِ مَا نُغْذَى وَلِلْمَوْتِ قَصْرُنَا ... وَلَا بُدَّ مِنْ مَوْتٍ وَإِنْ نَفِسَ(٢) الْعُمْرُ
فَمَنْ كَانَ مَغْرُورًا بِطُولِ حَيَاتِهِ ... فَإِنِّي حَمِيلٌ أَنْ سَيَصْرَعُهُ الدَّهْرُ
فَلَيْسَ بِبَاقٍ إِنْ سَأَلْتَ ابْنَ مَالِكٍ ... عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ الدَّهْرُ وَالْأَمْرُ

***

قالوا : وعاش مُسَافِع بن عبد العُزَّى الضَّمْرِيّ ستين ومائة سنة ، وقال :

جَلَسْتُ غَدِيَّةً وَأَبُو عَقِيلٍ ... وَعُرْوَةُ ذُو النَّدَى وأبو رِيَاحِ(٣)
كَأَنَّا مَضْرَحِيَّاتٌ بِرَضْوَى ... يَنَأْوْنَ إِذَا يَنَأْوْنَ بِلَا جَنَاحِ(٤)
يَرَانَا أَهْلُنَا ، لَا نَحْنُ مَرْضَى ... فَنُكْوَى أو نُلَدُّ ولا صِحَاحِ(٥)
وَلَا نُرْوِي الْعِضَالَ إِذَا اجْتَمَعْنَا ... عَلَى ذِي دَلْوِنَا ، وَالْحَفْرُ طَاحِ

يقول : ضَعُفْنَا فلا نقدر على الاستقاء . طاحٍ = مملوء .

وقال مُسافع حين ضَجِر به أهله :

لَعَمْرُكُمَا لَوْ يَسْمَعُ الْمَوْتُ قَدْ أَتَى ... لِدَاعٍ عَلَى بُرْءٍ جَفَتْهُ الْعَوَائِدُ
بِهِ سَقَمٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ وَخَبْطَةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ أَصْغَى غُصْنَهُ فَهْوَ سَاجِدُ(٦)

---

(١) التربب الاجتماع . (٢) نفس العمر أى طال . (٣) الغدية كالغدوة والغداة وهى البكرة ، أوما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس . (٤) المضرحيات النسور أوالصقور بجناحيها شبه طرف ذنب الناقة . (٥) اللد أن يؤخذ بلسان الصبى فيمد إلى أحد شقيه ، ويوجر فى الآخر الدواء . (٦) الغصن الظهر ، وأصغى أمال وحنى .

إِذَا مَرَّ نَعْشٌ قِيلَ نَعْشُ مُسَافِعٍ ... أَلَا لا بُوُدِّى لَوْ بَنَى لِيَ لاحِــدُ
يَظُنُّونَ أَنِّى بَعْـدُ أَوَّلَ مَيِّتٍ ... فَأَبْقَى ، وَيَمْضِى وَاحِدٌ ثُمَّ وَاحِـدُ
[٢٩] فَقَالُوا لَهُ لَمَّا رَأَوْا طُولَ عُمْرِهِ ... تَأَتَّ لِدَارِ الْخُلْدِ ، إِنَّكَ خَالِدُ
غِضَابٌ عَلَيَّ أَنْ بَقِيتُ وَإِنَّنِى ... بِوُدِّى الَّذِى يَهْوُونَ لَوْ أَنَا وَاجِدُ

(أضمر الهاء ، يقول ، لو أنا واجدُه) .

***

قالوا : ومن المعدودين فى المعمّرين من قضاعة زهيرُ بن جَناب[١] بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد الله[١] بن رُفَيْدَةَ بن كلب بن وَبَرَة ، عاش أربعمائة سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتى وقعة ، وكان سيدا مطاعا شريفا فى قومه ؛ ويقال ، كانت فيه عشر خصال ، لم يجتمعن فى غيره من أهل زمانه : كان سيد قومه ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم إلى الملوك ، وطبيبهم ـ والطب فى ذلك الزمان شرف ـ ، وحازِى[٢] قومه ـ والحُزَاة الكُهّان ـ ، وكان فارس قومه ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم[٣] .

فبلغنا أنه عاش حتى هَرِم وغَرِض من الحياة ، وذهب عقله ، فلم يكن يخرج إلا ومعه بعض ولده ، أو ولد ولده .

وأنه خرج ذات عشيّة إلى مال له ينظر إليه ، فاتّبعه بعض ولده ، فقال له : ارجع إلى البيت قبل الليل ، فإنى أخاف أن يأكلك الذئب .

فقال : قد كنت ، وما أُخَشَّى بالذئب .

فذهبت مَثَلًا .

ويقال : إن قائل هذا هو خُفَاف بن عُمَيْر السُّلَمِىّ ، وهو ابن نَدْبَة السُّلَمِىّ .

قال أبو حاتم : وذكر ابن الكلبى أن هذا مما حُفِظَ عن من نثق به من الرواة .

---

(١) جاء فى غير الأصل زهير بن حباب ، وزيد اللات بن ثور بن رميذة ، وسيذكره أبو حاتم ثانيا ، وأنه عاش مائتى سنة . (٢) أى كاهنهم . (٣) الخصال المعدودة تسع .

وقد ذكر لقيط أيضا نحواً من هذا الحديث ؛ وذكر أن زهيرا عاش ثلاثمائة سنة وخمسين [٣٠] سنة .

حدثنا أبو حاتم قال : وقال العُمَرىّ ، أخبرنى محمد بن زَبّار الكلبي عن أشياخه من كَلْب قالوا ، كان زهير بن جناب قد كبر حتى خَرِفَ ، وكان يتحدث بالمَشِىّ بين القُلُب ـ يعنى الآبار ـ ، وكان إذا انصرف عنه الليل شقّ عليه .

فقالت امرأته لَمِيس الأَرْأَشِيّة لابنها خِداش بن زهير :

— إذهب إلى أبيك حين ينصرف فخذ بيده ، فقُدْه .

فخرج حتى انتهى إلى زهير ، فقال :

— ما جاء بك يا بُنَىَّ ؟

قال : كذا وكذا .

قال : اذهب .

فأبى ؛ وانصرف تلك الليلة معه .

ثم كان من الغد ، فجاءه الغلام ، فقال له : انصرف .

فأبى .

فسأل الغلامَ ، فكتمه ، فتوعّده ، فأخبره الغلامُ الخبرَ ، فأخذه ، فاحتضنه ، فرجع به .

ثم أتى أهله ، فأقسم زهير بالله ، ألا يذوق إلا الخمر حتى يموت .

فمكث ثمانية أيام ، ثم مات .

وقال ابن لقيط ، وابن زبّار ، وغيرهما ، قال : ورواية ابن زبّار أتمُّهنّ .

جَدَّ الرَّحِيلُ وَمَا وَقَفْـ ... تُ عَلَى لَمِيسِ الأَرَاشِيَهْ
وَلَقَى ثَوَائِى اليَوْمَ مَا ... عَلِقَتْ حِبَـالُ القَاطِنِيَهْ
حَتَّى أُؤَدِّيهَا إِلَى الْـ ... مَلِكِ الهُمَامِ بِذِى الثَّوِيَّهْ
قَدْ نَالَنِى مِنْ سَيْبِهِ ... فَرَجَعْتُ مَحْمُودَ الحَذِيَّهْ

(قال أبو حاتم : ويقال أوّلها كما أخبرنا أبو زيد الأنصارى عن المفضّل)

أَبَنِيّ إِنْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَوْرَثْتُكُمْ مَجْدًا بَنِيَّهْ
وَتَرَكْتُكُمْ أَوْلَادَ سَا دَاتٍ ، زِنَادُكُمُ وَرِيَّهْ
[٣١] كُلُّ الَّذِى نَالَ الْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّهْ
كَمْ مِنْ مُحَيًّا لَا يُوَا زِينِى ، وَلَا يَهَبُ الدَّعِيَّهْ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ لِلسُّ لَّافِ تُوقَدُ فِى طَمِيَّهْ (١)
وَلَقَدْ رَحَلْتُ الْبَازِلَ الْوَجْ نَاءَ ، لَيْسَ لَهَا وَلِيَّهْ (٢)
وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفِ الـ طَّرَفَيْنِ لَمْ يَغْمِزْ شَظِيَّهْ (٣)
فَأَصَبْتُ مِنْ حُمْرِ الْقِنَا نِ مَعًا ، وَمِنْ حُمْرِ الْقَفِيَّهْ (٤)
وَنَطَقْتُ خُطْبَةَ مَاجِدٍ غَيْرَ الضَّعِيفَةِ وَالْعَيِيَّهْ
فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى فَلْيَهْلِكَنْ وَبِهِ بَقِيَّهْ
مِنْ أَنْ يُرَى تَهْدِيهِ وِلْـ دَانُ الْمُقَامَةِ بِالْعَشِيَّهْ (٥)

(ويروى) :

مِنْ أَنْ يُرَى الشَّيْخُ الْبَجَا لُ ، وَقَدْ يُهَادَى بِالْعَشِيَّهْ (٦)

(البجال = الذى يُبَجِّله أصحابه ويعظّمونه) .

---

(١) السلاف المتقدمون . (٢) البازل الوجناء الناقة الشديدة . (٣) ويروى ... بمشرق القطرين .. والمرادبن مشرف الطرفين الرمح (٤) المرادمن حمر القنان أسرى الحرب ، ومن حمر القفية الصيد . (٥) وفى رواية أخرى :

من أن يُرَى هرما يقا د كما تقاد به المطية

(٦) ويروى :

من أن يُرَى الشيخ البجا ل يقاد يُهْدَى بالعَشِيّة

جعل قوله يهدى حالا ليقاد ، كأنه قال ، يقاد مهدياً ، ولولا ذلك لقال ، ويهدى بالواو ، وفى يرى ضمير يعود إلى الفتى قد قام مقام الفاعل فيه ، والشيخ مفعول ثان ، والبجال نعت له ..

وقال زهير بن جناب حين مضت له مائتا سنة من عمره :

لَقَدْ عُمِّرتُ حَتَّى مَا أُبَالِي أَحَتْفِي فِي صَبَاحِي أَوْ مَسَائِي
وَحُقَّ لِمَنْ أَتَتْ مائتان عامٍ (١) عَلَيْهِ أَنْ يَمَلَّ مِنَ الثَّوَاءِ
شَهِدْتُ المِخْضَئِيْنِ عَلَى خَزَازٍ وَبِالسُّلَّانِ جَمْعاً ذَا زُهَاءِ (٢)
وَنَادَمْتُ الْمُلُوكَ مِنْ آلِ عَمْرٍو وَبَعْدَهُم بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ

قال أبو حاتم : التي ذكر امرأةٌ ؛ وهى بنت عوف بن جُشَم بن هلال النَّمَرِيَّة ، قال ، فنادمتُ بنيها ، وهى أم المنذر بن النعمان . ويعنى بآل عمرو بنى عمرو آكل المُرار ؛ والمُرار نبت حارٌّ ، يتقلّص منه [٣٢] مِشْفَر البعير إذا أكله .

قال ، وقال أيضا زهير ، وسمع بعض نسائه تتكلّم بما لاينبغى لامرأة تتكلم عند زوجها ، فنهاها ، فقالت له : اسكت ، وإلا ضربتُك بهذا العمود ، فوالله ما كُنْتُ أراكَ تسمع شيئا ، ولا تعقله .

فقال عند ذلك :

أَلَا يَا لَقَوْمٍ لَا أَرَى النَّجْمَ طَالِعاً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا حَاجِبِي بِيَمِينِي
مُعزِّبَتِي عِنْدَ الْقفَا (٣) بِعَمُودِهَا يَكُونُ نَكِيرِي أَنْ أَقُولَ ذَرِينِي
أَمِيناً عَلَى سِرِّ النِّسَاءِ وَرُبَّمَا أَكُونُ عَلَى الْأَسْرَارِ غَيْرَ أَمِينِ
وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حِدَاجٍ مُوَطَّأٍ مَعَ الظُّعْنِ لَا يَأْتِي المحلَّ لِحِينِ (٤)

(المُعَزِّبَة التى تقوم عليه وتُطْعِمُه كما يُطْعَم الصَّبِيّ ؛ وذكر الأصمعى ، المعزّبة هى التى تَحُفُّه وترَفُّه) .

---

(١) إثبات النون لضرورة الوزن فى الشعر .

(٢) المخضئين الموقدين ، وخزاز جبل خرازى ، والسلان واد واسع غامض ، ويروى البيت فى غير الأصل :

شهدت الموقدين على خزازى وبالسلان جمعا ذا ثواء

(٣) فى النسخة الأخرى : اللقا . (٤) الحداج هو المركب يعد للنساء كالمحفة .

وقال زهير بن جناب :

لَيْتَ شِعْرِى ، وَالدَّهْرُ ذُو حَدَثَانِ　　أَىُّ حِينٍ مَنِيَّتِى تَلْقَانِى

أَسُبَاتٌ عَلَى الْفِرَاشِ خُفَاتٌ　　أَمْ بِكَفَّى مُفَجَّعٍ حَرَّانِ

ويروى : مُفَجَّعٌ كأنه قُتِل له قتيلٌ .

قال أبو حاتم ، وذكر الكلبى أن زهير بن جناب أَوْقع بالعرب مائتى وقعة .

فقال الشَّرْقِىّ بن القُطَامىّ خمسمائة وقعة .

والشرقى ضعيف .

حدثنا أبو حاتم قال ، وزعم هشام بن محمد عن أبيه محمد بن السائب قال ، سمعت أشياخنا الكلبيين يقولون ، عاش زهير بن جناب بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عُذْرة بن زيد اللات بن رُفَيْدة بن ثور بن كلب [٣٣] بن وَبَرة بن تغلب بن حُلوان بن عِمران بن الحافِ بن قضاعة بن مالك بن مُرّة بن مالك بن حمير مائتى سنة .

فلم تجتمع قضاعة إلا عليه ، وعلى رِزَاح بن ربيعة بن حَرام بن ضِنَّة بن عبد كبير ابن عُذرة بن سَعْد ، وهو هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافِ بن قضاعة ؛ ورزاح ، وحُنّ أخوا قُصَىّ بن كلاب لأمّه .

وكان زهير على عهد كليب بن وائل ، وقد كان أسر مُهَلهِلا ، ولم يكن فى العرب أنطق من زهير بن جناب ، ولا أَوجَهُ عند الملوك ، وكان لشدة رأيه يسمى كاهناً .

قال أبو حاتم : وذكر أصحابنا عن هشام قال ، وكان زهير قال ، ألا إن الحىّ ظَعن .

فقال عبد الله بن عُلَيْم بن جناب : ألا إن الحىّ أقام .

فقال زهير : ألا إن الحىّ أقام .

فقال عبدُ الله : ألا إن الحى ظعن .

فقال زهير : من هذا المخالف علَىّ منذ اليوم ؟

قالوا : هذا ابن أخيك عبد الله بن عليم .

فقال : شر الناس للعمِّ ابن الأخ ، إلا أنه لا يَدَعُ قاتل عمه .

وأنشأ يقول :

وَكَيْفَ بِمَنْ لَا أَسْتَطِيعُ فِرَاقَهُ وَمَنْ هُوَ إِنْ لَا تَجْمَعِ الدَّارُ لَاهِفُ
أَمِيرُ خِلَافٍ إِنْ أُقِمْ لَا يُقِمْ مَعِي وَيَرْحَلْ ، وَإِنْ أَرْحَلْ يُقِمْ وَيُخَالِفُ

قال : ثم شرب زهير الخمر صِرْفًا أياما حتى مات .

وشربها أبو بَرَاء ، عامر بن مالك بن جعفر حين خولف صِرْفًا حتى مات ، وشربها عمرو بن كلثوم التغلبي صرفًا حتى مات ؛ ولم يبلغنا أن [٣٤] أحدا من العرب فعل ذلك إلا هؤلاء .

قالوا : وعاش زهير حتى أدركه من ولد أخيه أبو الأحوص ، عمرو بن ثَعْلَبَة بن الحارث بن حِصْن بن ضَمْضَم بن عدىّ بن جناب .

قالوا : وكان الشرقىّ بن قُطَامِىّ يقول : عاش ابن جناب أربعمائة سنة .

قال ، وقال المسيَّب بن الرِّفْل الزهيرىّ من ولد زهير بن جناب :

وَأَبْرَهَةُ الَّذِى كَانَ اصْطَفَانَا وَسَوَّسَنَا وَتَاجُ الْمُلْكِ عَالِي
وَقَاسَمَ نِصْفَ إِمْرَتِهِ زُهَيْرًا وَلَمْ يَكُ دُونَهُ فِى الْأَمْرِ وَالِي
وَأَمَّرَهُ عَلَى حَيَّىْ مَعَدٍّ وَأَمَّرَهُ عَلَى الْحَىِّ الْمُعَالِي
عَلَى ابْنَىْ وَائِلٍ لَهُمَا مُهِينًا يَرُدُّهُمَا عَلَى رَغْمِ السِّبَالِ(١)
بِحَبْسِهِمَا بِدَارِ الذُّلِّ حَتَّى أَلَمَّا يَهْلِكَانِ مِنَ الْهُزَالِ

* * *

قال : وعاش هُبَل بن عبد الله بن كنانة الكلبىّ ، وهو جَدُّ زهير بن جناب ابن هبل بن عبد الله سبعمائة سنة حتى خرف ، وغَرِضَ منه أهله .

---

(١) السبال جمع سبلة ، وهى ما ظهر من مقدم اللحية بعد العارضين ، وقال الجوهرى إنها الشارب .

فقالوا : إن بني بنيه ، وبني بناته وبني أخيه كانوا يضحكون منه ، ومن اختلاط كلامه» وأن نفراً من قومه يقال لهم بنو عَبْد وُدّ بن كنانة جلسوا يوما عنده ، فأكثروا التعجب منه ، ولم يكونوا فى الشرف مثله ، منهم جُبَيْل بن عامر بن عوف بن كنانة ، وحَجَل بن عمرو بن عوف بن كنانة ، وهما من كلب ، لم يكونا مثله ، ولا مثل ولده فى الشرف .

فقال هبل بن عبد الله :

رُبَّ يَوْمٍ قَدْ يَرَى فِيهِ هُبَلْ ذَا سَوَامٍ وَنَوَالٍ وَجَذَلْ

[٣٥] لَا يُنَاجِيهِ وَلَا يَخْلُو بِهَلْ عَبْدُ وُدٍّ وَجُبَيْلٌ وَحَجَلْ

(بِهَلْ ، يريد بِهِ ، واللام زائدة) .

وقال حاطب بن مالك بن الجُلاس النَّهْشَلِيّ يذكر طول عمر هبل :

كَأَنَّكَ تَرْجُو أَنْ تَعِيشَ ابْنَ مَالِكٍ كَعَيْشِ هُبَلْ ، لَقَدْ سَفِهْتَ عَلَى عَمْدِ[١]

وَمَاذَا تُرَجِّى مِنْ حَيَاةٍ ذَلِيلَةٍ تُعَمِّرُهَا بَيْنَ الْغَطَارِفَةِ[٢] الْمُرْدِ

وَأَنْتَ لَقًى فِي الْبَيْتِ كَالرَّأْلِ[٣] مُدْنِفٌ[٤]

وَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا إِلَى غَايَةِ الْمَجْدِ

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِامْرِئٍ مِنْ حَيَاتِهِ يَدِبُّ دَبِيبًا فِي الْمَحَلَّةِ كَالْقِرْدِ

فَلَوْ أَنَّ شَيْئًا نَالَ خُلْدًا لَنَالَهُ حَلِيفُ النَّدَى عَمْرٌو سَلِيلُ أَبِي الْجَعْدِ

فَتًى كَانَ سَبَّاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ يُبَادِرُ فِتْيَانَ الْعَشِيرَةِ لِلْحَمْدِ

قالوا : وكان عمرو سليل أبي الجعد خال حاطب ، وهو عمرو بن الحُمَيْس بن الجَعْد ابن رقَبَة بن لَوْذان ، أَحَد ثَوْرِ أَطْحَلَ ، وكان سيدا شجاعا ، جوادا ، قتله أنس ابن مُدْرِك الخَثْعَمِيّ .

* * *

(١) كذا فى الأصل ، والمصراع الثانى غير متزن ، وقد نبه على هذا تعليقا فى هامش النسخة.

(٢) الغطارفة جمع غطريف وهو الفتى الجميل . (٣) الرأل : ولد النعام ، وخص بعضهم به الحولى منها . (٤) فى رواية أخرى : مدنف بالكسر وهو جر المجاورة.

قالوا : قال عمارة بن عوف المدوانى ، ثم أحدُ بنى وَابِش ، وعُمِّر خمسين ومائتى سنة ، وكان كاهنا أدرك عمر بن الخطاب أول ما وَلِىَ ، وهو شيخ قد ذهب بصره ، وخرف ، وأُولِع بالهذيان ، يقول ، أقْرُوا ضَيْفَكم .

وهو الذى يقول :

تَقُولُ لِى عَمْرَةُ مَاذَا الَّذِى ... تَهْذِى بِهِ فِى السِّرِّ وَالْجَهْرِ
قُلْتُ لَهَا، وَالْجُودُ مِنْ شِيمَتِى ... آمُرُكُمْ فِى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
بِضَيْفِكُمْ إِنَّ لَهُ حُرْمَةً ... فَاقْرُوا ضَيْوفِى قَحَدَ الْجُزْرِ[1]
[٣٦] وَارْعَوا الجَارِ الْبَيْتِ مَاقَدْ رَعَى ... قَبْلَكُمْ ذَاكَ بَنُو عَمْرِو
قُومُوا لِضَيْفٍ جَاءَكُمْ طَارِقاً ... وَجَارِكُمْ بِالنَّىِّ وَالْخَمْرِ

قال أبو حاتم : من قال النَّىّ مفتوحة النون أراد الشَّحْمَ ، ومن قال النِّىّ بالكسر أراد اللحم الطرى .

وَذَبِّبُوا مَنْ رَامَ جِيرَانَكُم ... بِالسُّــوءِ بِالْبُتْرِ وَبِالسُّمْرِ[2]
وَاخْشَوْشِنُوا فِى الْحَرْبِ إِنْ أُوقِدَتْ ... بِكُلِّ خَطِّىٍّ وَذِى أُثْرِ[3]

(ذو أُثْر يريد السيفَ ، يراد به المأثورة ؛ والأُثْر هو الفرند الذى فيه) .

وَلَا تَهِرُّوا الْمَوْتَ إِنْ أَقْبَلَتْ ... خَيْلٌ تَعَادَى سَنَنَ الدَّبْرِ[4]
فَرُبَّ يَوْمٍ قَدْ شَهِدْتُ الْوَغَى ... بِسَابِحٍ يَنْقَضُّ كَالصَّقْرِ
أَقْدُمُ قَوْمًا سَادَةً ذَادَةً ... بِيضاً يُحَامُون عَنِ الْفَخْرِ

(ويروى : يحامون عن النَّجْرِ ، وهو الأصل) .

لَمَّا احْتَوَوْهُ جَالَدُوا دُونَهُ ... وَطَارَ أَقْوَامٌ مِنَ الذُّعْرِ
فَذَاكَ دَهْرٌ ، وَمَحَارُ الْفَتَى ... فِى غَيْرِ شَكٍّ مُظْلِمُ الْقَعْرِ[5]

---

(١) القحاد : السنام . (٢) الذب : المدافعة والمنع ، والبتر : السيوف القواطع .
(٣) الخطى : الرمح ، نسبة إلى موضع ببلاد البحرين تباع فيه الرماح.
(٤) الهر والهرير : الكره والخوف ، والدبر : الزنابير . (٥) المحار : الرجوع ، والمراد من مظلم القعر القبر .

أَوْ طَعْنَةٌ تَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ فَهَاقَةٌ تَأْبَى عَلَى السَّبْرِ

(يريد جياشة ، لا يرد دمها الفتل) .

عُمِّرْتُ دَهْرًا ثُمَّ دَهْرًا وَقَدْ آمُلُ أَنْ آتِيَ عَلَى دَهْرِ
فَإِنْ أَمُتْ فَالْمَوْتُ لِي خِيرَةٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَهْذِي وَلَا أَدْرِي
خَمْسُونَ لِي قَدْ أُكْمِلَتْ بَعْدَمَا سَاعَدَنِي قَرْنَانِ مِنْ عُمْرِي

(قرنان = مائتا سنة ، ويروى دهران من عمرى) .

* * *

قالوا : وعاش [٣٧] تَيْم الله بن ثَعْلَبَة بن عُكابة بن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أَفصى بن دُعْمِىّ بن جَدِيلة بن أَسَد بن ربيعة بن نِزَار ابن مَعَدّ خمسمائة سنة حتى أَخْلَق أربعة لُجُم حديد ، وكان من دهاة العرب فى زمانه .

فبلغنا أنه بعث بنيه ذات يوم فى طلب إِبلٍ له ضلّت ، فهبّت ريح بعد ما خرجوا من عنده شديدة ، وذلك فى الشتاء ، فقال لامرأته ، أمّ بنيه : انظرى من أين هبّت الريح .

فنظرت ، ثم قالت : من مكان كذا وكذا .

فقال لها : أَخُنْتِينِى فى بَنِىّ أم لا ؟

فقالت : لا والله ما خُنْتُك فيهم .

فقال : وَيْحَك ، والله إنى لأعلم أنها ريح تُدَهْدِى(١) البَعَر ، وتعفو الأثَر فلا يعرفون مُنْطَلَقًا ، وإنها لتسوق مطرا فلا يعرفون أثَرًا ، فإن رجعوا فإنهم بَنِىّ ، وإيّاىَ أشبهوا ، وإن مضوا فلن تَرَيْهِم أبدا ، وقد خُنْتِينى فيهم ، ووالله لَأَقْتُلَنَّكِ إذن قبل أن يرجعوا .

ثم لم يزل ليلَه أجمعَ ما ينام وما تنام امرأتُه حتى إذا كان عند طلوع الفجر رجع أحدُهم ، فقال له أبوه ، تيم الله :

(١) الدهدهة الدحرجة .

— ما ردُّك ؟

قال : هبَّت ريح تُدَهْدِي البَعَر ، وتعفو[1] الأثر ، وتسوق المطر فلم أر مُنْطَلَقًا .

فتتابعوا على مثل مقالته كُلُّهم ، ورجعوا إلى أبيهم ، فَسُرَّ بذلك ، وقال : أنتم بَنِيَّ حقًا ، وإياى أشْبَهْتم .

فلما حضره الموت أمر بنيه أن يحفروا قبره بمكان يقال له « حَضَنْ » .

وقال فى ذلك :

[٣٨] هَا ذَاكَ تَيْمُ اللهِ يُبْنَى بَيْتُهُ   بِحَضَنٍ حَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ

وكان الذى ولى كَبْرَتَه من بنيه هِلال ، وبنو هلال بن تيم الله أقل بنى تيم الله عددًا ، وأخْمَلُهُم ذكرا .

فقال فى ذلك الأخنس بن عباس بن خَنْسا بن عبد العُزّى بن هلال بن تَيْم الله ابن ثعلبة :

حَمَلْنَا الشَّيْخَ تَيْمَ اللهِ عَوْدًا   وَكَانَ وَلِيَّ كَبْرَتِهِ أَبُونَا
وَلَمْ يَكُ طِبُّ أَعْمَامِى عُقُوقًا   وَلَكِنَّا كَفَيْنَا مَا وَلِينَا
جَزَيْنَاهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا   وَأَطْرَفْنَاهُ حَتَّى مَاتَ فِينَا[2]

(أطرفناه = ابتدأناه بالنعم) .

* * *

قالوا : وعاش سُوَيْد بن خُذّاق ، من عبد القيس بن أَفصى بن دُعْمِيّ بن أسد ابن ربيعة بن نزار مائتى سنة .

وقال فى ذلك :

كَبِرْتُ ، وَطَالَ العُمْرُ حَتَّى كَأَنَّمَا   رَمَى الدَّهْرُ مِنِّى كُلَّ عُضْوٍ بِأَهْزَعَا[3]

(١) تعفو أى تمحو وتزيل . (٢) فى الأصل بنعمة ، وبه يختل الوزن والصواب ماذكر.
(٣) الأهزع : السهم الردىء الذى يبقى فى الكنانة وحده ، وقيل الأهزع خير السهام وأفضلها يدخر فى الكنانة لوقت شدة ، وقيل إنه آخر ما يبقى فى الكنانة جيدا كان أورديئا .

غَنِمْتُ بَعِيرَى شَيْخٍ مَنْ سُئِلَتْ بِهِ فَتَاةُ بَنِى مَنْ كَانَ أَزْمَانَ تُبَّعَا

* * *

قالوا : وقال عطاء الكلبى : عاش الجُعْشُمُ بن عوف بن جذيمة ، من عبدالقيس، مائتى سنة حتى هَرِم ، وملّ الحياة ، وهان على أهله .

فقال فى ذلك :

حَتَّى مَتَى الجُعْشُمُ فِى الأَحْيَاءْ لَيْسَ بِذِى أَيْدٍ وَلَا غَنَاءْ
هَيْهَاتَ مَا لِلْمَوْتِ مِنْ دَوَاءْ

* * *

قالوا : وعاش مُجَمِّعُ(١) بن هلال بن خالد بن مالك بن هلال بن الحارث بن هلال ابن تيم الله بن ثعلبة بن عُكَابة بن صعب بن على بن بكر [٣٩] بن وائل مائة سنة وتسع عشرة سنة .

فقال فى ذلك :

إِنْ أُمْسِ شَيْخًا قَدْ بَلِيتُ فَطَالَمَا عَمِرْتُ ، وَلَكِنْ لَا أَرَى الْعَيْشَ يَنْفَعُ
مَضَتْ مِائَةٌ مِنْ مَوْلِدِى فَنَضَيْتُهَا(٢) وَعَشْرٌ وَخَمْسٌ(٣) بَعْدَ ذَاكَ وَأَرْبَعُ
فَيَا رُبَّ خَيْلٍ كَالْقَطَا(٤) قَدْ وَزَعْتُهَا لَهَا سَبَلٌ ، فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ
شَهِدْتُ ، وَغُنْمٍ قَدْ حَوَيْتُ وَلَذَّةٍ أَصَبْتُ ، وَمَاذَا الْعَيْشُ إِلَّا تَمَتُّعُ(٥)

* * *

قالوا : وعاش عمرو بن ثعلبة من عبد القيس مائتى سنة .

وقال فى ذلك حين كبر ، وهان على أهله :

---

(١) مجمع على وزن اسم الفاعل من جمع . وهو مجمع بن هلال بن الحارث بن هلال ، كذا عند الكلبى — رحمه الله (زيادة فى هامش النسخة). (٢) ويروى فضيتها ، والمعنى أتت على مائة سنة من ميلادى فألقيتها ورائى كأنى لبستها ، ثم خلعتها ، واتبعت بعدها تسعا تولت ، ويروى فنضوتها ، يقال نضى ثوبه ينضو وينضى إذا نزعه ، لغتان . (٣) ويروى وخمس تباع .
(٤) وفى رواية : وخيل كأسراب القطا . (٥) فى رواية أخرى : التمتع .

تَهَزَّأَتْ عِرْسِيَ ، وَاسْتَنْكَرَتْ شَيْبِي ، فَفِيهَا جَنَفٌ وَازْوِرَارُ[1]
لَا تُكْثِرِي هُزْءًا ، وَلَا تَعْجَبِي فَلَيْسَ بِالشَّيْبِ عَلَى الْمَرْءِ عَارُ
عَمْرَكِ ، هَلْ تَدْرِينَ أَنَّ الْفَتَى شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْهِ مُعَارُ

قال أبو حاتم : وزعم عطاء بن مُصعب المِلْط أن خَلَفاً الأحمر وضع هذا البيت الآخِر.

* * *

وعاش أنس بن مُدْرِك[2] الخثعمِيّ[3] بن كُعَيْب بن عمرو بن سعد بن عوف[4] ابن حارثة بن سعد بن عامر بن تَيْم الله بن مُبَشِّر بن أَكْلَب بن ربيعة بن عِفْرِس بن حَلَف بن أَفْتَل ، وهو خَثْعَم بن أَنْمار بن بَجيلة بن أَراش[5] بن عمرو بن لِحْيان[6] مائة وأربما وخمسين سنة ، وكان سيد خثعم فى الجاهلية وفارسها ، وأدرك الإسلام فأسلم .

وقال فى كبره :

إِذَا مَا امْرُؤٌ عَاشَ الْهُنَيْدَةَ[7] سَالِماً وَخَمْسِينَ عَامًا بَعْدَ ذَاكَ وَأَرْبَعَا
تَبَدَّلَ مُرَّ الْعَيْشِ مِنْ بَعْدِ حُلْوِهِ وَأَوْشَكَ أَنْ يَبْلَى وَأَنْ يَتَسَعْسَعَا[8]
[٤٠] وَيَأْذَى بِهِ الْأَدْنَى ، وَيَرْضَى بِهِ الْعِدَا إِذَا صَارَ مِثْلَ الرَّأْلِ أَحْدَبَ أَخْضَعَا

---

(١) هكذا القوافى الثلاث مرفوعة ، وحقها السكون لأن مفعولات لا تنقل إلى مثل فاعلاتن وإنما إلى فاعلات (تعليق فى هامش النسخة). (٢) فى رواية أخرى : مدركة .

(٣) وكانت ابنة أنس بن مدرك تحت خالد بن الزبير ، وهى أم ولده عبد الرحمن ، والمهاجر وعبد الله . (٤) ابن العتيك ، كذا عند ابن الكلبي . (٥) صوابه كما فى اليعقوبى وفى جمهرة ابن الكلبي أنمار بن أراش ، وبجيلة أم ولد أنمار إلا خثعم فإن أمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك . (٦) صوابه عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (عن الكلبي فى الجمهرة) . (٧) الهنيدة مائة سنة ، وقال ابن سيده هى اسم للمائة ولما دونها ولما فويقها ، وقال بعض اللغويين إنها اسم للمائة من الإبل خاصة . (٨) تسعسع الرجل إذا كبر وهرم واضطرب ، وقد جاء فى كتاب الإصابة تشعشعا ، والتشعشع الانقضاء .

رَهِينَةَ قَعْرِ الْبَيْتِ لَيْسَ يَرِيمُهُ[1] لَقًى[2] ثَاوِياً لَا يَبْرَحُ الْمَهْدَ مَضْجَمَا
يُخَبِّرُ عَنْ مَنْ مَاتَ حَتَّى كَأَنَّمَا رَأَى الصَّعْبَ ذَا الْقَرْنَيْنِ أَوْ رَأَى تُبَّعَا

* * *

قالوا : وعاش ذُو جَدَنٍ[3] الحِمْيَرِىّ الملك ثلاثمائة سنة .

وقال فى ذلك :

لِكُلِّ جَنْبٍ اجْتَنَا[4] مُضْطَجَعْ وَالْمَوْتُ لَا يَنْفَعُ مِنْهُ الْجَزَعْ
اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ كُلُّ امْرِئٍ يَحْصُدُ مِمَّا زَرَعْ
لَوْ كَانَ شَىْءٌ مُفْلِتاً حَتْفَهُ[5] أَفْلَتَ مِنْهُ فِى الْجِبَالِ الصَّدَعْ

وقال أيضا :

يَا إِجْتَنَا مَهْلًا ذَرِينَا أَفِى سِفَاءٍ[6] تَعْذُلِينَا
يَا إِجْتَنَا تَسْتَعْتِبِينَا فَلَا وَرَبِّكِ تُعْتِبِينَا[7]
يَوْمٌ يُغَيِّرُ ذَا النَّعِيمِ وَتَارَةً يُشْقِى الْحَزِينَا
إِنَّ الْمَنَايَا يَطَّلِعْنَ عَلَى الْأُنَاسِ الْآمِنِينَا
فَيَدَعْنَهُمْ شَتَّى وَقَدْ كَانُوا جَمِيعاً وَافِرِينَا

* * *

قالوا : وعاش عبد الله بن سُبَيْع الحِمْيَرِىّ مائة وخمسين سنة .

وقال فى ذلك :

أَرَانِى كُلَّمَا هَرَّمْتُ يَوْمًا أَتَى مِنْ بَعْدِهِ يَوْمٌ جَدِيدُ
يَعُودُ شَبَابُهُ فِى كُلِّ فَجْرٍ وَيَأْبَى لِى شَبَابِى لَا يَعُودُ

* * *

---

(١) فى الإصابة : يريعة ، والريم : البراح والتباعد . (٢) اللقى : الشيء الملقى .

(٣) فى الجمهرة : علس بن جدن . (٤) اسم امرأة منقول من الفعل الماضى اجتنى الثمرة ، وهو منادى بحرف النداء المحذوف . (٥) ويروى حينه كما فى الجمهرة . (٦) السفاء : الدنو من الأرض . (٧) الإعتاب مصدر أعتبه إذا أزال عتابه وشكواه ، فالهمزة للسلب .

قالوا : وعاش مِرْداس بن صُبَيح، من الحكم بن سعْد العشيرة بن مالك بن أُدَد، من مَذْحِج مائتى سنة وثلاثين سنة .

[٤١] وقال فى ذلك :

أَعَاذِلَتِى ، دَعِى عَذْلِى ، فَإِنِّى ... أَتَتْنِى عَنْ حَجُورٍ مُنْدِيَاتُ

(وحَجُور بطن من هَمْدان ، منهم مَعْيُوف بن يحيى[1]) .

قَوَافِى قَدْ أَتَتْنِى مِنْ بَعِيدٍ ... فَمَا أَدْرِى أَزُورٌ أَمْ ثَبَاتُ

فَإِنْ تَكُ كَذْبَةً مِنْ قَوْمِ سُوءٍ ... فَمَا إِنْ تَزْدَهِينِى المَعْذِرَاتُ[2]

فَإِنِّى قَدْ كَبِرْتُ وَرَقَّ عَظْمِى ... وَأَسْلَمَنِى لَدَى الدَّهْرِ الهَنَاتُ

مَرَازِئُ قَدْ تَنُوبُ وَطُولُ عُمْرٍ ... تَنُوبُ لَهَا الهُمُومُ الطَّارِقَاتُ

أَدِبُّ عَلَى العَصَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا ... لِسَانٌ صَارِمٌ عَضْبٌ خُتَاتُ[3]

فَلَا يَغْرُرْكُمُ كِبَرِى فَإِنِّى ... كَرِيمٌ ، لَيْسَ فِى أَمْرِى شَتَاتُ

قال أبو حاتم : وأظن البيت الأخير ليس منها .

***

قالوا : وعاش عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَىّ بن حارثة بن عَمْرو بن عامر بن حارثة الغِطْرِيف بن ثَعْلَبة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأَزْد ؛ وعمرو بن لُحَىٍّ هذا هو أبو خُزاعة غير ولد أَفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر .

قالوا : وقد يقال أنه لُحَىّ بن قَمَعَة[4] بن خِنْدِف بن مُضَر .

---

(١) جاء فى كتاب الأنساب للأزجى ، وآل معيوف بدمشق بالغوطة فى قرية يقال لها عين ترماء ، وينتسبون ، يقولون معيوف بن يحيى بن معيوف بن علقمة بن الحارث بن سعد بن عبدالله ابن عليان بن مرهبة بن حجور .

(٢) كذبة بفتح الكاف وكسرها سواء .

(٣) العضب هو الشتم والتناول، والختات هو القاتل،والمراد باللسان الختات اللسان الشديد .

(٤) وقد جاء مضبوطا قمعة فى كتاب المعارف وفى كتاب اليعقوبى .

قالوا : وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أول من بَحَرَ البَحِيرَةَ[١] ووَصَلَ الوَصِيلَةَ[٢] ، وحَمَى الحامِىَ ، وغَيَّر دين أبيه إسماعيل عليه السلام عمرُو بنُ لُحَىّ بن قمعة بن خِنْدِف أبو خُزاعة ، فكأنّى أنظر إليه يَجُرُّ قُصْبَه فى النـار ، وأَشْبَه ولده به أَكْثَم بن الجَون » .

فقال أكثم ـ وكان قاعدا ـ : [٤٢] يا رسول الله ، بأبى وأمى ، هل يضرُّنى الشَّبَهُ ؟ .

قال : « لا يضرّك ، كان كافرا ، وأنت مسلم » .

عاش ثلاثمائة سنة وأربعين سنة ، فكثر ماله وولده حتى بلغنا ـ والله أعلم ـ نه كان يقاتل معه من ولده ألف مقاتل .

* * *

قال أبو حاتم ، قالوا ، وعاش فيما ذكر ابن الكلبى عن أبيه ، أوس بن حارثة ابن لأم بن عمرو بن طَريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذُهْل بن لَوْذان ابن رُومان بن خارجة بن سعد بن جُنْدب بن فُطرة بن طَـيِّء ، وهو جُلْهُمَة بن أُدَد ابن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وهو عبد شمس ابن يشجب بن يعرُب ، وهو قحطان بن عابر ، وإلى قحطان تجتمع قبائل اليمن كلها .

عاش مائتى سنة وعشرين سنة حتى هرم ، وذهب سَمْعُه وعقلُه ، وكان سيّد قومه وفى بيتهم ؛ فبلغنا أن بنيه ارتحلوا ، وتركوه فى عَرْصَتِهِم[٣] حتى هلك فيها ضَيْعَةً ؛ وهم يُسَبُّون بذلك اليوم .

---

(١) البحيرة على وزن فعيلة بمعنى مفعول ، وهى الناقة مشقوقة الأذن ، وكان من عادة العرب أن يشقوا أذن الناقة إذا نتجت سبعة أبطن ، فلا تركب ولا يحمل عليها .

(٢) الوَصِيلة : الشاة ، وكان من عادة العرب فى الجاهلية إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(٣) العرصة : ساحة الدار ، وقد سميت بذلك لأن الصبيان يعترصون فيها أى يلعبون ، وقال أبو منصور الثعالبى فى كتاب فقه اللغة ، كل بقعة ليس فيها بناء فهى عرصة .

وفى ذلك يقول الأَسْحَم بن الحارث ، أحد بنى طَرِيف بن مالك بن جَدْعاء بن ذُهْل بن لَوْذان بن رُومان من جَدِيلَةِ طيء .

أَتَانِى بِالْمَحَلَّةِ أَنَّ أَوْسًا ... عَلَى شَطْنَانَ مَاتَ مِنَ الْهُزَالِ
تَحَمَّلَ أَهْلُهُ وَاسْتَوْدَعُوهُ ... خَسِيًّا مِنْ نَسِيجِ الصُّوفِ بَالِ
تَظَلُّ الطَّيْرُ تَعْفُوهُ وُقُوعًا ... أَلَا يَا بُوسَ لِلشَّيْخِ الْمُذَالِ

(الخَسِيّ الصوف الذى لم يُجَزّ إلا مرة واحدة ، وكان الإعرابُ [٤٣] بالياء ، ولكن لغة طـيء أن يقولوا : رأيت زيدَ ، فيحذفوا الألف ، وشَطْنَانُ أرضٌ ترك الشيخَ بنوه بها) .

***

قالوا : وعاش عَدِىّ بن حاتم الطائى بن عبد الله بن حَشْرَج بن امرئ القيس بن عدى بن أَخْزَم بن أبى أخزم، وهو هَزُومَةُ[1] بن ربيعة بن جَرْوَل بن ثُعَل بن عمرو ابن الغوث بن طيئ مائة وثمانين سنة ، فلما أَسَنّ استأذن قومه فى وِطَاء يجلس عليه فى ناديهم ، وقال ، إنى أكره أن يظنّ أحدكم أنّى أرى لى عليه فضلا ، ولكنى قد كبرت ورقّ عظمى .

فقالوا : ننظر .

فلما أبطأوا عليه أنشأ يقول :

أَجِيبُوا يَا بَنِى ثُعَلَ بْنِ عَمْرٍو ... وَلَا تَكِمُوا الْجَوَابَ مِنَ الْحَيَاءِ
فَإِنِّى قَدْ كَبِرْتُ وَرَقَّ عَظْمِى ... وَقَلَّ اللَّحْمُ مِنْ بَعْدِ النَّقَاءِ
وَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أُرِيدُ شَيْئًا ... يَقِينِى الْأَرْضَ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ
وِطَاءً يَا بَنِى ثُعَلَ بْنِ عَمْرٍو ... وَلَيْسَ لِشَيْخِكُمْ غَيْرُ الْوِطَاءِ
فَإِنْ تَرْضَوْا بِهِ فَسُرُورُ رَاضٍ ... وَإِنْ تَأْبَوْا فَإِنِّى ذُو إِبَاءِ
سَأَتْرُكُ مَا أَرَدْتُ لِمَا أَرَدْتُمْ ... وَرَدُّكَ مَنْ عَصَاكَ مِنَ الْعَنَاءِ

---

(١) الهزومة : الشجة ، لأنه كان قد شج .

لِأَنِّى مِنْ مَسَاءَتِكُمْ بَعِيدٌ   كَبُعْدِ الْأَرْضِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ
وَإِنِّى لَا أَكُونُ بِغَيْرِ قَوْمِى   فَلَيْسَ الدَّلْوُ إِلَّا بِالرِّشَاءِ(١)

فأذنوا له أن يبسط فى ناديهم ، وطابت به أنفسهم ، وقالوا ، أنت شيخنا وسيّدنا وابن سيدنا ، وما فينا أحد يكره ذلك ولا يدفعه(٢) .

***

قالوا : وعاش عبدالمسيح بن عمرو بنقيس بن حيّان(٣) [٤٤] بن بُقَيْلَةَ الغسّانِىّ ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام فلم يسلم ، وكان منزله الحيرة ، وكان شريفا فى الجاهلية(٤) .

وقال :

لَقَدْ بَنَيْتُ لِلْحَدَثَانِ(٥) بَيْتاً   لَوَ انّ الْمَرْءَ تَنْفَعُه الحُصُونُ
رَفِيعَ الرَّأْسِ أَجْوَى مُشْمَخِرًّا   لِأَنْوَاعِ الرِّيَاحِ بِهِ حَنِينُ(٦)

وقال يذكر من كان معه من ملوك قومه الذين مضوا :

أَبَعْدَ الْمُنْذِرَيْنِ أَرَى سَوَامًا   تُرَوَّحُ بِالْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ(٧)

---

(١) الرشاء : الحبل يدلى به الدلو فى البئر . (٢) وفى غير الأصل زيادة فى ترجمة عدى : ولما غلب المختار بن عبيد على الكوفة وقع بينهما ، فهم عدى بالخروج عليه ، ثم عجز لكبر سنه ، وكان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، فقال :

أصبحت لا أنفع الصديق ولا   أملك ضُرًّا للشانئ الشَّرِسِ
وإن جرى بى الجواد منطلقا   لا يملك الكف رجعة الفَرَسِ

(٣) فى الأصل (خيال) .

(٤) وفى رواية أخرى زيادة : قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة ، أخرجوا الى رجلا من عقلائكم ، فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حبان بن نفيلة الغسانى ، وهو الذى بنى القصر ، وهو يومئذ ابن خمسين وثلاثمائة سنة . (٥) ويروى :

بنيت لطارق الحدثان ... البيت، فى غير الأصل .

(٦) أجوى أى أقعس والقعس ضد الحدب ؛ والمشمخر : الجبل العالى .

(٧) الخورنق والسدير : قصران كانا بالحيرة زمن ملوكها المناذرة .

تَحَامَاهُ فَوَارِسُ كُلِّ حَيٍّ   مَخَافَةَ أَغْضَفٍ عَالِي الزَّئِيرِ(١)
وَبَعْدَ فَوَارِسِ النُّعْمَانِ أَرْعَى   رِيَاضًا بَيْنَ مُرَّةَ وَالْحَفِيرِ
وَصِرْنَا بَعْدَ هُلْكِ أَبِي قُبَيْسٍ   كَجُرْبِ الشَّاءِ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ
تَقَسَّمَنَا الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ   عَلَانِيَةً كَأَيْسَارِ الْجَزُورِ
وَكُنَّا لَا يُرَامُ لَنَا حَرِيمٌ   فَنَحْنُ كَضَرَّةِ الضَّرْعِ الْفَخُورِ
نُؤَدِّي الْخَرْجَ بَعْدَ خَرَاجِ بُصْرَى   وَخَرْجِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ(٢)
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجَالٌ   فَيَوْمٌ مِنْ مَسَاءَةٍ أَوْ سُرُورِ

قالوا : وخرج بُقَيْلَةَ فى ثَوْبَيْنِ أَخْضَرَيْنِ ، فقال له إنسان : ما أنت إلا بُقَيْلَة ؟ فسمّى بقيلة بذلك ، واسمه ثَعْلَبَة بن سُنَيْن(٣) .

* * *

قالوا : وعاش عَدِيّ بن وَدَاع بن العِقِى(٤) ، الحارث بن مالك بن فهم بن غَنْم ابن دَوْس بن عبد الله ، من الأزد ، ثلاثمائة سنة ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وغزا .

وقال فى ذلك :

[٤٥] لَا عَيْشَ إِلَّا الْجَنَّةُ الْمُخْضَرَّهْ   مَنْ يَدْخُلِ النَّارَ يُلَاقِ ضَرَّهْ

وقال :

أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ فَتًى مَرَّةً   لِلتُّرْبِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الْجَنْدَلِ
ذَلِكَ مَكْرُوهٌ وَأَدْعَى ، فَإِنْ   أُحْمَلْ عَلَى الثِّقْلَةِ لَا أَثْقُلِ

* * *

(١) الأغضف : الأسد .   (٢) فى رواية السعودى، بعد خراج كسرى .

(٣) مصغر سِنَن ، ويقال إنه الحارث بن سنين ، قاله المرزبانى فى معجم الشعراء ، وقال ابن الكلبي ، فولد سنين الحارث ، وهو بقيلة صاحب القصر الذى يقال له قصر بنى بقيلة، وفى غير الأصل .. قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة ، أخرجوا إلى رجلا من عقلائكم ، فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو ...   (٤) (بن) زيادة فى النسخة الأخرى .

قالوا : وعاش شُرَيح بن هانئ بن يزيد بن نَهِيك بن دُرَيد بن سفيان بن سَلَمة ، وهو الضِّباب بن الحارث بن كعب بن مذحج عشرين ومائة سنة فيما ذكر ابن الكلبي عن أبي مخنف ، قال : أخبرنا أشياخنا من بني الحارث قالوا : ثم قُتِل في ولاية الحجاج بن يوسف مع ابن أبي بكرة :

فقال وهو يرْتَجز قبل أن يُقْتَل :

قَدْ عِشْتُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ أَعْصُرَا ثُمَّتَ أَدْرَكْتُ النَّبِيَّ الْمُنْذِرَا
وَبَعْدَهُ صِدِّيقَهُ وَعُمَرَا وَيَوْمَ مِهْرَانَ وَيَوْمَ تُسْتَرَا[1]
وَالْجَمْعَ فِي صِفِّينِهِمْ وَالنَّهَرَا هَيْهَاتَ ، مَا أَطْوَلَ هٰذَا عُمُرَا[2]

* * *

قالوا : وعاش شَرْيَةُ بن عبد الجُعْفِيّ من جُعْفِيّ بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدَد بن مَذْحِج[3] ثلاثمائة سنة ، وأدرك الإسلام .

حدثنا أبو حاتم قال : وذكر الكلبيّ قال : سمعت أبا بكر بن قيس الجُعفيّ يذكر عن أشياخه ، وقد ذكره غيره وقالوا : هو شَرْية بن عبد الله الجُعفيّ ، وقال في زمن عمر بن الخطاب ، وهو بالمدينة :

لقد رأيت هذا الوادي الذي أنتم به وما به قَطْرة ولا قَصَبَة ولا شجرة مما ترون ، وأدركت أخريات قومي [٤٦] يشهدون بمثل شهادتكم ، يعني قول « لا إله إلا الله » ومعه ابن له يُهادَى به في شِجارٍ ، قد خرف ، فقيل له : يا شَرْيَةُ ، ما بال ابنك قد خَرِف وبك بقيّة ؟

قال : أما والله ما تزوّجتُ أُمّه حتى أتت عليّ سبعون سنة ، وتزوّجتها ستِيرَةً

(١) يوم مهران ويوم تستر يومان من أيام المسلمين المشهورة في تاريخ الفتوحات الإسلامية ببلاد الفرس . (٢) إشارة إلى حرب صفين (٣) هو شرية بن عبد الله بن فليت بن خولي بن ربيعة بن عوف بن معاوية بن ذهل بن مالك بن حريم بن جعفي .

عفيفة ، إن رضيتُ رأيت ما تقربه عيني ، وإن سَخِطتُ تَأَتَّتْ لى حتى أرْضَى ، وإن ابنى هــذا تزوّج امرأة فاحشة بَذِيَّةً ، إن رأى ما تقرّ به عينه تعرّضتْ له حتى يَسْخَط ، وإن سَخِط تَلَغَّبَتْه[1] حتى يهلك .

ثم قال شَرْيَة : وأحلف لا يَبْتَزُّ ثَوْبِى واحدٌ ولا اثنان ، وإنِّى بالثلاثة معذورٌ .

قال أبو روق : حدثنا الرياشىّ قال ، حدّثنا الأصمعى قال، مَرّ رجلٌ بقوم يدفنون ميّتا ، ورجل يقول :

أُحْثُوا عَلَى دَيْسَمَ مِنْ بَرْدِ الثَّرَى ‏ ‏ ‏ ‏ قِدْمًا أَبَى رَبُّكَ إِلَّا مَا تَرَى[2]

قال : فقلت له ، من هؤلاء ؟ . فقال : هذا ابنى ، وهذا بنوه .

***

قالوا : وعاش عُبَيْد بن شَرْيَة الجرهمىّ ثلاثمائة سـنة ، وقال بعضهم ، مائتين وعشرين سنة ، إلا أنّا نظنّ أنه عاشها فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، فأسلم ؛ وقدم على معاوية بن أبى سفيان .

فبلغنا أن معاوية قال له : أخبرنى ، كم أتى عليك ؟

قال : مائتان وعشرون سنة .

قال : ومن أين علمت ؟

قال : من كتاب الله .

قال : ومن أىّ كتاب الله ؟

قال : من قول الله تبارك وتعـالى [٤٧] « وَجَعَلْنَا اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ آيَتَـيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْـلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّـكُم » الآية[3] .

---

(١) اللغب هو التعب والإعياء . (٢) الديسم : الظلمة ، وديسم اسم ، ويروى البيت :

أخشى على ديسم من برد الثرى ‏ ‏ ‏ ‏ أبى قضاء الله إلا ما ترى

وقد أنشده ابن دريد ، وترك صرفه للضرورة . (٣) الآية رقم ١٢ من سورة الإسراء .

فقال له معاوية : وما أدركت ؟

قال : أدركت يوما فى أثر يوم ، وليلةً فى أثرِ ليلةٍ متشابِهاً كتشابُه الحَذَفِ يَحْدُوان بقومٍ فى ديار قوم يَكْذِبون ، ما يَبيدُ عنهم ولا يَعْتَبِرُون بما مضى منهم ، حَيُّهم يَتْلَف ، ومولودُهم يخلُف ، فى دهر قد تصرّف أيّامُه ، تَقَلَّبُ بأهلها كتقلُّبها دهرَها ، بينا أخوه فى الرَّخاء إذ صار فى البلاء ، وبينا هو فى الزيادة إذ أدركه النُّقصانُ ، وبينا هو حُرٌّ إذ أصبح فَيْئاً لايدوم على حال ، ولا تدوم له حال ، بين مسرور بمولود ومحزونٍ بمفقود ، فلولا أن الحىّ يتلف لم يَسَعْهم بلدٌ ، ولولا أن المولود يخلف لم يبق أحد .

قال معاوية : يا عُبَيْد ، أخبرنى عن المال ، أيّه أحسن فى عينك ؟

قال : أحسن المال فى عينى ، وأنفعه غناءً ، وأقلّه عناء ، وأبعدُه من الآفة ، وأجْدَاهُ على العامّة عين خَرّارة فى أرض خَوّارة ، إذا استُودِعَتْ أدَّتْ ، وإن استحلَبْتَها دَرَّت فأفعمت ، تَعُولُ ولا تُعَال .

قال معاوية : ثم ماذا ؟

قال : فرسٌ فى بطنها فرسٌ قد ارتبطتَ منها فرسا .

قال معاوية : فأىّ النَّعَم أحبّ إليك ؟

قال : النَّعَم لغيرك يا أمير المؤمنين .

قال : فلمن ؟

قال : لمن فَلَاها بيده وباشرها بنفسه .

قال معاوية : حَدِّثنى عن الذهب والفضة .

قال : حجران إن أخرجتَهما نَفِدا ، وإن خَزَنْتَهما [٤٨] لم يزدا .

قال معاوية : فأخبرنى عن قيامك وقعودك ، وأكلك وشربك ، ونومك ، وشهوتك لِلْبَاءَة .

قال : أما قيامى فإن قمت فالسماء تبعُدُ ، وإن قعدت فالأرض تقرُبُ ؛

وأما أكْلى وشربى فإنى إن جُعتُ كَلِبْتُ ، وإن شَبِعْتُ بُهِرْتُ ؛ وأما نومى فإن حضرت مجلسا حالَفَنِى ، وإن خَلَوْتُ أطْلُبُه فارَقَنى ؛ وأما الباءَةُ فإن بُذِلَتْ لى عجزتُ ، وإن مُنِعَتْ غَضِبْتُ .

قال معاوية : فأخبرنى عن أعجب شىء رأيته .

قال : أعجبُ شىء رأيته ، أنى نزلت بحَىٍّ من قضاعة ، فخرجوا بجنازة رجل من عُذْرة ، يقال له ، حُرَيْث بن جَبَلَة ، فخرجت معهم حتى إذا وارُوه انْتَبَذْتُ جانبا عن القوم ، وعيناى تذرفان ، ثم تمثلت شعرا كنت رويته قبلَ ذلك[1] :

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِى أَسْمَاءَ مَغْرُورُ ... اُذْكُرْ، وَهَلْ يَنْفَعَنْكَ اليَوْمَ تَذْكِيرُ؟
قَدْ بُحْتَ بِالْحُبِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ ... حَتَّى جَرَتْ بِكَ أَطْلَاقًا مَحَاضِيرُ[2]
تَبْغِى أُمُورًا فَمَا تَدْرِى أَعَاجِلُهَا ... خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ
فَاسْتَقْدِرِ[3] اللهَ خَيْرًا، وَارْضَيَنَّ بِهِ ... فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِى الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطًا ... إِذْ صَارَ فِى الرَّمْسِ[4] تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهُ ... وَالدَّهْرُ أَيَّةَ مَا حَالٍ[5] دَهَارِيرُ
يَبْكِى الغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... وَذُو قَرَابَتِهِ فِى الحَىِّ مَسْرُورُ
وَذَاكَ آخِرُ عَهْدٍ مِنْ أَخِيكَ إِذَا ... مَا الْمَرْءُ ضَمَّنَهُ اللَّحْدَ الخَنَاسِيرُ

[٤٩] الخِنْسِير والجمع الخَناسير ، ويقال الخَناسِرَة ، وهم الذين شيّعوا الجنازة .

فقال رجل إلى جانبى يسمع ما أقول : يا عبد الله ، مَن قال هذه الأبيات ؟

قلت : والذى أحلف به ، ما أدرى إلا أنى قد رويتها منذ زمان .

قال : قائله الذى دفنّاه آنفا ، وإن هـذا ذو قرابته أسرُّ الناس بموته ، وإنك لَلغَريبُ الذى وصف تبكى عليه . فعجبتُ لما ذكر فى شعره والذى صار إليه من قوله ، كأنه كان ينظر إلى موضع قبره .

---

(١) جاء فى كتاب نزهة الألبا أن هذه الأبيات لعثمان بن لبيد العذرى .

(٢) المحضيرة من الناس الجماعة .　　(٣) ويرى فاسترزق .　　(٤) القبر .

(٥) فى كل حاليه والدهارير جمع دهر .

فقلت : إن البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِق .

***

قالوا : وعاش سيف بن وَهْب بن جَذِيمَة بن عمرو بن ثعلبة بن حيّان بن ثعلبة ، وهو جَرْم ، وإنما سمى بجَرْم لحَاضِنَةٍ كانت له تسمى « جَرْماً » مائتى سنة فيما ذكر ابن الكلبيّ عن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى ، وهو من بَلِيّ ، ثم من بنى العجلان عن أشياخه .

وأما ابن الكلبى فقال : عاش ثلاثمائة سنة ، وقال فى ذلك(١) :

أَلَا إِنَّنِى عَاجِلًا ذَاهِبُ فَلَا تَحْسَبُوا أَنَّهُ كَاذِبُ
لَبِسْتُ شَبَابِى فَأَفْنَيْتُهُ وَأَدْرَكَنِى القَدَرُ الْغَالِبُ
وَصَاحَبَنِى حِقْبَةً فَانْقَضَى شَبَابِى ، وَوَدَّعَنِى الصَّاحِبُ
وَخِصْمٍ دَفَعْتُ ، وَمَوْلًى نَفَعْتُ حَتَّى يَثُوبَ لَهُ ثَائِبُ
وَجَارٍ مَنَعْتُ ، وَفَتْقٍ رَتَقْتُ إِذَا الصَّدْعُ أَعْيَا بِهِ الشَّاعِبُ

***

قالوا : وعاش عامر بن جُوَيْن بن عبد رُضا بن قُمران بن ثعلبة بن عمرو بن حيّان ابن ثعلبة ، وهو جَرْمُ بن عمرو(٢) بن الغوث بن طيّىء مائتى سنة .

وقال فى ذلك :

[٥٠] مَاذَا أُرَجِّى مِنَ الْفَلَاحِ إِذَا قُنِّعْتُ وَسْطَ الظَّعَائِنِ الْأُوَلِ
مُسْتَعْنِزًا أَطْرُدُ الْكِلَابَ عَنِ الظِّلِّ إِذَا مَا دَنَوْنَ لِلْحَمَلِ

وقال :

الْمَرْءُ يَبْكِى لِلسَّلَامَةِ ، وَالسَّلَامَةُ لَا تُحِسُّهْ
أَوَ سَالِمٌ مَنْ قَدْ تَثَنَّى جِلْدُهُ وَابْيَضَّ رَأْسُهْ

---

(١) القائل هو سيف بن وهب الطائى . (٢) وفى هامش النسخة بخط مخالف تصحيح جاء فيه (بن حيان بن ثعلبة ، وهو جرم بن عمرو) .

أَوْ دَبَّ مِنْ هَـرَمٍ وَأَوْ دَى سَمْعُهُ وَانْقَقَّ(١) ضِرْسُهْ
أَوْدَى الزَّمَانَ بِأَهْـلِهِ وَبِأَقْرَبِيْهِ ، فَقَلَّ أُنْسُـهْ

* * *

قالوا : وعاش الحارث بن مُضاض(٢) الجُرْهُمِىّ ، من جرهم الأكبر ، وهو جرهم بن قحطان بن عابَر بن شالح بن أرنخشذ بن سام بن نوح عليه السلام أربعمائة سنة.

وهو القائل :

يَا أَيُّهَا الْحَىُّ بِالنَّعْفِ(٣) الْمُقِيمُونَا هُبُّوا ، فَيُوشِكُ يَوْمًا لَا تَهُبُّونَا
إِذَا قَالَ رَكْبٌ لِرَكْبٍ سَائِرِينَ مَعًا لَا بُدَّ أَنْ تَسْمَعُونَا أَوْ تُغَنُّونَا
حُثُّوا الْمَطِىَّ ، وَأَرْخُوا مِنْ أَزِمَّتِهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ ، وَقَضُّوا مَا تُقَضُّونَا
كُنَّا أُنَاسًا كَمَا أَنْتُمْ فَغَيَّرَنَا دَهْرٌ ، فَسَوْفَ كَمَا كُنَّا تَكُونُونَا
قَدْ مَالَ دَهْرٌ عَلَيْنَا ثُمَّ أَهْلَكَنَا بِالْبَغْىِ مِنْهُ ، فَكُلُّ النَّاسِ يَأْسُونَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ سِيرُوا إِنَّ قَصْرَكُمُ أَنْ تُصْبِحُوا ذَاتَ يَوْمٍ لَا تَسِيرُونَا(٤).

وقال أيضا :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا ، فَأَزَالَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِى وَالْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

* * *

[٥١] قالوا : وعاش جعفر بن قُرْط(٥) العامرى ثلاثمائة سنة ، وأدرك الإسلام ، فقال :

---

(١) الانقفاق : الانفراج ، ويروى انقف . (٢) فى رواية أخرى زيادة : الأصغر .
(٣) النعف : ما انحدر من حزونة الجبل وارتفع من منحدر الوادى . وجمعه نعاف .
(٤) وفى غير الأصل زيادة البيت التالى .
كنا زمانا ملوك الناس قبلكم نأوى بلادا حراما كان مسكونا
(٥) وهو ابن كعب بن قيس بن سعد ، وقد ذكر ابن الكلبى أنه جعفر بن قرط بن عبد يغوث بن كعب بن ردة الشاعر .

لَمْ يَبْقَ يَا خَذْلَةُ مِنْ لِدَاتِى ... أَبُو بَنِينَ لَا وَلَا بَنَاتِ
مِنْ مَسْقَطِ الشَّمْسِ إِلَى الْفُرَاتِ ... إِلَّا يُعَدُّ الْيَوْمَ فِى الْأَمْوَاتِ
هَلْ مُشْتَرٍ أَبِيعُهُ حَيَاتِى

***

وعاش عبّاد بن أنف الكلب الصيداوىّ ، من بنى أسد عشرين ومائة سنة ، وقال :

عَمِرْتُ ، فَلَمَّا جُزْتُ سِتِّينَ حِجَّةً ... وَسِتِّينَ ، قَالَ النَّاسُ : أَنْتَ مُفَنَّدُ
فَقُلْتُ لَهُمْ بِاللهِ هَلْ تُنْكِرُونَنِى ... وَهَلْ عَابَنِى إِلَّا السَّخَا وَالتَّمَجُّدُ

(السخاء ممدود ، والرواية : إلا النَّدَى والتمجد) .

وَإِنِّى جَوَادُ الْكَفِّ سَمْحٌ بِمَا حَوَتْ ... يَدَاىَ مِنَ الْمَعْرُوفِ لَا أَتَلَدَّدُ
أَجُودُ وَأَحْمِى الْمُسْتَجِيرَ مِنَ الرَّدَى ... إِذَا عَرَّدَ النِّكْسُ الْأَحَمُّ الْأَلَنْدَدُ(١)
وَيَوْمًا تَرَى الْأَبْطَالَ مِنْ خَوْفِ شَرِّهِ ... سَكَارَى ، عَلَيْهِمْ غَبْيَةٌ تَتَرَدَّدُ(٢)
شَهِدْتُ فَجَلَّيْتُ الْبَلَايَا وَأَوْقَهَا ... بِأَسْمَرَ نَحْوَ الْمُبْتَغِى الشَّرَّ يَقْصِدُ
وَزِقٍّ كَمُسْتَدْمِى الْغَزَالِ سَبَأْتُهُ ... لِفِتْيَانِ صِدْقٍ رِفْدُهُمْ لَيْسَ يَنْفَدُ(٣)
فَقُلْتُ لَهُمْ عُلُّوا وَتِلْكَ مَطِيَّتِى ... بِكَفِّىَ عَضْبٌ مَشْرَفِىٌّ مُهَنَّدُ(٤)
فَفَادَتْ وَقَامَ الطَّاهِيَانِ فَأَوْقَدَا ... بِعَلْيَاءَ نَارًا حَمُّهَا لَيْسَ يَبْرُدُ
فَلَمَّا اشْتَفَوْا مِنْهَا وَأَدْبَرَ وَحْشُهُمْ ... صَبَبْتُ لَهُمْ صَهْبَاءَ فِى الْكَأْسِ تَزْبِدُ
وَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّى حَمِيلٌ بِمِثْلِ مَا ... رَأَيْتُمْ طُوَالَ الدَّهْرِ لَا أَتَزَيَّدُ(٥)

ففادت أى بردت وماتت ، ويروى فكاستْ ، يعنى قامت على [٥٢] ثلاث قوائم. الأَوْق الشدة ، يقال ، إنه لذو أوق .

---

(١) عرد : هرب ، والنكس : الضعيف ، والألندد : كثير الخصومة .
(٢) الغبية من الغباوة وهى قلة الفطنة (٣) الزق : وعاء السقاء . وسبأته أى اشتريته .
(٤) العضب : السيف . (٥) المعنى ، لم أعمل لكم شيئا فوق ما اعتدته من القرى .

قال أبو روق ، وقال الرياشى : رأى رجل فى المنام رجلا مسرفا على نفسه ، فسأله عن حاله ، فقال ، ما لقيت بعدكم أَوْقَةً[1] .

وَحْشُهم جُوعهم ؛ ويقال بات فلان وَحْشًا .

الحميل ، والكفيل ، والضَّمين ، والصَّبير ، والزعيم سواء .

* * *

قالوا : وعاش عامر بن الظَّرِب العَدْوانى مائتى سنة ، وكان حكما للعرب .

وفيه يقول ذو الإصْبَع العَدْوانىّ :

وَمِنَّا حَكَمٌ يَقْضِى فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِى

وهى أبيات .

وإنما قيل له ذو الإصبع ، لأنه كانت له فى رجله إصبع زائدة ، وكان من أمره ، أن وَجًّا ، وهو وادى الطائف ، وهو حرم الطائف الذى حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يصاد صَيْدُها ، ولا يُختلَى خَلاؤها ، وكان ثَقِيف ، وهو قَسِىّ بن مُنَبِّه باليمن ، فأتاه أبو رِغَال فصدّقه ، فأخذ شاته اللَّبُونَ ، وترك الأخرى ، فأبى ثقيف أن يتركها ، وقال ، فيها قُوتِى ، فأبى أن يتركها ، فرماه ثقيف ، فقتله ، ثم لحق بالطائف فوجد فيها ظَرِبا شيخا كبيرا ، فأخذه ، فقال ، لَتُؤْمِنَنِّى أو لأَقْتُلَنَّك ، ثم لِتُنْزِلَنّى أفضلَ أرضِك منزلا ، فآمنه ، وأنزله .

فلما جاء عامر ابنه قال له : يا أبتاهِ ، من هذا ؟

قال : هذا رجل تبوّأ وادينا بغير حَمْد أحدٍ .

فقال عامر بن ظَرِب :

أرَى شَعَرَاتٍ عَلَى حَاجِبَىّ بِيضاً نَبَتْنَ جَمِيعاً تُؤَامَا

[٥٣] أظَلّ أهَاهِى بِهِنّ الْكِلَابَ أحْسَبُهُنّ صِوَارًا[2] قِيَامَا

أُهَاهِى أزجرها ، أقول هَأْهَأْ .

(١) الأوقة : الجماعة من الناس . (٢) الصوار : القطيع من البقر .

وَأَحْسَبُ أَنفِي إِذَا مَا مَشَيْـ ... تُ شَخْصًا أَمَامِي رَآنِي فَقَامَا

قال أبو حاتم ، وذكر أصحابنا عن الشعبيّ أن ابن عباس قال ، قضى عامر بن الظرب العدوانى ، من جَدِيلة قيس ، على العرب بعد عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسِيّ ، فأُتِي عامر بخُنْثَى له[1] ، ما للرجل وما للمرأة ، فأشكلت عليه ، فأقام أربعين يوما لايقضى فيه بشىء ، فأتته أمة سوداء تسمى « خُصَيْلَة »[2] ، فقالت : أيها الشيخ ، أفنَيْت علينا ماشيتنا ؛ وإنما أفناهُنَّ أنه كان يذبح لأصحاب المسألة كل يوم شاةً .

فقال : وَيْـلَكِ ، إنى أُتِيت فى أمر لا أدرى أُصَمِّدُ فيه أم أُصَوِّبُ .

فقالت : وما ذاك ؟

قال : أُتيت بمولود له ، ما للرجل وما للمرأة .

قالت : وما يشُقّ عليك من ذلك ؟ أَتْبِـعْه المَبَالَ ، أَقْعِدْه ، فإن كان يَبُول من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن كان يبول من حيث تبول النساء فهى امرأة .

قال ـ وكان كثيرا ما يعاتب الأَمَة فى رِعْيَتِها إذا سَرَحَت ـ فقال ، أَسِيئى يا خُصَيل أو أَحْسِنى فلا عِتَاب عليك ، قد فَرَّجْتِها عنى .

فلما أصبح قضى بالذى أشارتْ .

فلما جاء الإسلام شدّد القضية، فصارت سنّة فى الإسلام، يعنى الإسلام شَدّدها.

قالوا : وعاش عامر مائتى سنة ، وقالوا ، ثلاثمائة سنة .

قال أبو حاتم ، ذكروا ذلك عن مُجالد عن [٥٤] الشَّعْبيّ ؛ قال أبو روق ، وحدثناه الرياشيّ ، قال ، حدثنا عمر بن بُكَير عن الهيثم بن عدى عن مجالد عن الشعبى قال ، كنا عند ابن عباس ، وهو فى صَفَّة زمزم يُفْتى الناس إذ قال أعرابى ، أَفْتَيْتَ الناس فأَفْتِنَا .

قال : هاتِ .

---

(١) الخنثى : الذى خلق وله ذكر رجل وفرج امرأة .

(٢) وقد ورد فى السيرة لمحمد بن هشام أن اسمها سخيلة .

قال : أرأيت قول الشاعر المتلمّس[١] :

لِذِى الحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرَعُ الْعَصَا   وَمَا عُلِّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا

قال ابن عباس : ذاك عمرو بن حَمَمَة الدَّوسىّ ، قضى على العرب ثلاثمائة سنة ، فكَبِر ، فألزموه السابع من ولده ، فكان معه ، فكان الشيخ إذا غفل كانت الأمارة بينه وبينه أن تُقرع العصا حتى يعاوده عقله ، فذلك قول المتلمس اليشكرىّ من بكر ابن وائل :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ الْعَصَا   . . . . . .

قال ذو الإصبع العدوانىّ بعد ذلك بدَهْر :

عذيرَ الْحَىِّ مِنْ عَدْوَا   نَ كانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا   فَلَمْ يَرْعَوا[٢] عَلَى بَعْضِ
وَمِنْهُمْ كانَتِ السَّادَا   تُ والمُوفُونَ بالقرْضِ[٣]
وَهُم بَلَغُوا عَلَى الشَّحْنَا   ءِ وَالشَّنآنِ والبُغْضِ
مَبَالِغَ لَمْ يَنَلْهَا النَّا   سُ فِى بَسْطٍ وَلَا قَبْضِ
وَهُم إِنْ وَلَدُوا أَشْبَوا   بِسِرِّ النَّسَبِ الْمَحْضِ
وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِى   فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِى

يعنى عامر بن الظَّرِب .

أَشْبَى الرجلُ إذا شَبَّ ولدُه .

---

(١) اختلف النسابون فى هذه الحكومة ، وفيمن حكم بها ، وكان أبو عبيدة ينسبها للمتلمس ابن سحول ، ويقول ما سبق المتلمس إلى هذا أحد ؛ وقال غيره ، اليمن تدعى هذا الحكم ، وتزعم أنه عمرو بن حممة الدوسى ؛ وربيعة تدعيه ، وتزعم أنه مسعود بن قيس بن خالد بن عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام بن مرة ، وأن خالدا هذا هو الذى يعرف بذى الجدين ، وقال ابن الكلبى ، والذى لا شك فيه أنه عبد الله بن همام ، ويزعم ناس أنه عامر بن الظرِب ، وهو المجمع عليه .

(٢) لم يرعَ بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد . ويقال ، فلان يرعى على أبيه أى يرعى غنمه ، وأرعى عليه أبقى .

(٣) القرض : الاقتراض .

فلما كبر [٥٥] عامر وتخوّف قومُه أن يموت اجتمعوا إليه ، فقالوا له ، ياسيدنا وشريفنا ، أَوْصِنا .

فقال :

« يا معشر عدوان ، كلفتمونى تعبا ، إن القلب لم يُخْلِق ، ومن لك بأخيك كُلِّه ، إن كنتم شرَّفتمونى فقد التمَسْتُ ذلك منكم ، وإنى قد أَرَيْتُكم ذلك من نفسى ، وأنّى لكم مِثْلِى ، افهموا عنى ما أقول لكم ؛ من جمع بين الحق والباطل لم يَجْتَمِعا له وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل يَنْفُرُ من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ، لا تفرحوا بالعِلْق ولا تشمَتوا بالزلّة ، وبكل عيش يعيش الفقير ، ومن يرِ يوما يُرَ به ، وأَعِدّوا لكل أمر قَدْرَه ، قبل الرِّماء تُمْلَأُ الكنائن[1] ، ومع السفاهة الندامِة ، والعقوبة نَكَالٌ وفيها ذَمَامَةٌ ، فلا تذُمُّوا العُقوبة ، واليد العليا معها عافية ، والقَوَد[2] راحة لا عَلَيْك ولا لك ، وإذا شِئْتَ وَجَدْتَ مِثْلَك ، إنَّ عليك كما أَنّ لك ، وللكثرة الرُّعْب وللصبر الغَلَبة ، من طلب شيئا وجده ، وإلّا يَجِدْه يوشكْ أن يَقَع قريباً منه .

فيا معشر عَدْوان ، إياكم والشر فإن له باَقِيَةً ، وادفعوا الشر بالخير يغلبه ، إنه من دفع الشرَّ بالشرِّ رجع الشرُّ عليه ، وليس فى الشرِّ أُسْوَةٌ ، ومن سبقكم إلى خير فاتبعوا أثره تجدوا فَضْلا ، إن خالق الخير والشر وسعهما ، ولكل يد منهما نَصيبٌ .

يا معشر عدوان ، إن الأوّل كفِى الآخِرَ ، فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه [٥٦] فِعْلُه ، فاجتنبوا ذلك الذى فعله ؛ يا معشر عدوان ، إن الشرّ ميّتٌ ، وإنما يأتيه الحىّ فيصيبه ، ومن اجتنب الشرّ لم يَنَب الشرُّ عليه ؛ يا معشر عدوان ، إن الخير عَزُوفٌ أَلُوف ، ولم يفارق الخير صاحبَه حتى يفارقه ولن يرجع إليه حتى

---

(١) الرماء : الرمى ، والكنائن جمع كنة : وهى جعبة السهام .

(٢) القود : القصاص ، وأقيد القاتل بالقتيل إذا قتل به .

يأتيه ؛ يا معشر عدوان ، رَبُّوا صغيركم ، واعتبروا بالناس ولا يعتبر الناس بكم ، وخذوا على أيدى سفهائكم تقلِلْ جرائركم ، وإياكم والحسد فإنه شؤم ونكد ، وإن كلَّ ذى فَضْلٍ وَاجِدٌ أفضلَ منه ، ومن بلغ منكم خُطَّةَ خَيْرٍ فأعينوه واطلبوا مثلها ، ورغِّبُوه فى نيّته ، وتنافسوا فى طريقته ، ومن قصّر فلا يلومَنّ إلا نفسه ، وإنى وجدت صدق الحديث طَرَفاً من الغَيْب فاصدُقوا تصدَّقوا .

(يقول من لزم الصدقَ وعوّده لسانه وُفِّق فلا يكاد يتكلم بشىء يظنّه إلا جاء على ظنّه) .

وإنّى رأيت للخير طُرُقاً فسلكتُها ، ورأيت للشرّ طُرُقاً فاجتنبتُها ، وإنى والله ما كنت حكيما حتى تَبِعْتُ الحكماء ، وما كنت سَيِّدَكم حتى تعبّدت لكم ، إن الموعظة لا تنفع إلا عاقلا ، وإن لكلّ شىء داعيا ، فأجيبوا إلى الحق وادعوا إليه وأذعنوا له (يريد ذِلُّوا للحق) .

وكان من حديث عامر أنه زوّج ابنته فَعْمَةَ ابنة عامر ابنَ أخيه عامر بن الحارث ابن ظرِب ، وقال لأمها ، وهى ماوِية بنت عوف بن فهر حين أراد البِناء بها :

« يا هذه [٥٧] ، مُرِى ابنتَكِ فلا تنزلن فَلَاةً[١] إلا معها ماء ، وأن تُكثر استعمال الماء فلا طيبَ أطيبُ منه ، وإن الماء جُعِل للأَعْلى جِلَاءً وللأسفل نَقَاءً ، وإياكِ أن تميلى إلى هواكِ ورأيك فإنه لا رأى للمرأة ، وإيّاىَ ووصيّتَكِ ، فإنه لا وصيّةَ لكِ ، أَخبِرى ابنتك ، أن العِشق حُلوٌ ، وأن الكرامة المؤاتاةُ ، فلا تستكرِهَنّ زوجها من نفسها ، ولا تمنعه عند شهوته ، فإن الرضا الإتيان عند اللذة ، ولا تكثر مُضاجَعَتَه فإن الجسد إذا مَلّ مَلّ القلب ، ومُرِيها فلا تمزَحَنّ معه بنفسه ، فإن ذلك يكون منه الانقباض ، ومُرِيها فلتَخْبَأْ سَوْءَتَها[٢] منه ، فإنه وإن كان لابد من أن يراها فإن كثرة النظر إليها استهانةٌ وخفّة » .

فلما أدخلت الجارية عليه نفَرَتْ منه ولم تُرِدْه .

---

(١) الفلاة : الأرض التى لا ماء فيها . والجمع فلا ، وجمع الجمع أفلاء . (٢) السوأة : الفرج .

فأتى ابنُ أخيه العمّ ، فشـكا ذلك إليه ، فقال له عامر : « يا ابن أخى ، إنها وإن كانت ابنتى فإن لك نصيباً منى (أو قال ، فإن نصيبَك الأوفرُ منى) فاصدُقْنى ، فإنه لا رأى لمكذوب ، فإن صَدَقْتَنِى صَدَقْتُك ، إن كنت نَفَّرْتها فذعَرْتها ، فاخفض عصاكَ عن بَكْرَتك تَسْكُن ، وإن كانت نفرت منك من غير إنفار فذلك الداء الذى ليس له دواء ، وإلا يكنْ وِماق[1] فَفِراق ، وأجمل القبيحَ الطلاقُ ، ولم نَتِرْكَ أهلَك ومالك ، وقد خَلَعْتُها منك بما أعطيتها ، وهى فعلتْ ذلك بنفسها .

فزعمت علماء العرب أن هذا أول خُلْع كان فى العرب وثبت فى الإسلام[2] .

[٥٨] وكان من حديث عامر بن الظَّرِب أيضا ، أنه كان يدفع بالناس فى الحج ، وذلك أنه كان وقومه طلبوا أن يُجيزوا من وَرَدَ عليهم من تِلْقاء مَحلّتهم ببطن وَجّ ، وكان طريق أهل السَّرَاةِ ، وهم أزْدِ شَنُوءَة ، فدخلوا على صُوفَةَ ، فكانوا يجيزون عدوانَ يوما ، وصوفةَ يوما ، وكان الذى يتولى إجازةَ الحج من عَدْوَان أبو سَيّارة العدوانىّ (هكذا أملاه أبو حاتم ، وليس بمستو العدوانى) ، فقال :

يَا رَبَّةَ الْعَـيْرِ[3] رُدِّيهِ لِمَرْتَعِهِ ... لَا تَطْعُنِى فَتَهِيجِى النَّاسَ بِالطَّعَنِ
أَضْحَتْ أَيَادِى بَنِى عَمْرٍو مُجَلَّلَةً ... تَمَّتْ بِلَا كَدَرٍ فِيهَا وَلَا مِنَنِ
ثَوَابُ مَا قَدْ أَتَوْهُ عِنْدَنَا لَهُمُ ... الشُّكْرُ مِنَّا لِمَا أَسْدَوا مِنَ الحَسَنِ

فأجاز أبو سيّارة العدوانىّ بالناس أربعين سنة على عَيْرٍ له ، حتى إن كانت العرب لتضرب المَثَل به فتقول : أَصَحُّ مِنْ عَيْرِ أَبِى سَيَّارَةَ .

قال : فبينا عامر يدفع بالناس إذ بَصُر به رجل من ملوك غسّان فأعجبه نَحْوُه[4] ،

---

(١) الوماق هو الوفاق .

(٢) جاء فى مسند أحمد الجزء الرابع : كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى فكرهته ، وكان رجلا دميا ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إنى لأراه ، فلولا مخافة الله لبزقت فى وجهه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتردين عليه حديقته التى أصدقك ؟ قالت نعم ، فأرسل إليه ، فردت عليه حديقته ، وفرق بينهما ، فكان هذا أول خلع كان فى الإسلام .

(٣) الحمار الوحشى .

(٤) المراد النحو فى اللغة العربية .

فكلّمه ، فإذا أحكمُ العرب وأحلمُهم ، قولاً ، وفعْلا . فحسده الغسّانِىّ ، وقال فى نفسه ، لأفسدنّه .

فلما صدر الحاجّ أرسل الملك إلى عامر ، أن زُرْنِ حتى أتّخِذَك خِلا ، وأُحْسِنَ حِباءَك[1] ، وأُعَظِّمَ شرَفَك .

فأقبل عامر على قومه ، فقال ، ماذا ترون ؟

قالوا : نرى ألا تَرُدَّ رسوله ، اِشْخَص ، ونشخَص معك ، فتُصيبَ من رِفْدِه ونفعه ، ونُصِيبَ معك ، ونَتَّجِهَ [٥٩] بجاهك . فخرج وخرج معه نفرٌ من قومه .

فلما دخل بلادَه تكشّف له رأيُه وأبصرَ أنه قد أخطأ ، فجمع إليه أصحابُه ، فقال :

« ألا ترون أن الرأىَ نائمٌ والهوى يقظانُ ، وقد يغلب الهوى الرأى ، ومن لم يغلب الهوى بالرأى نَدِم ، وعَجِلتُ حين عَجِلْتُم علىّ ، ولئن سلمتُ لا أعود بعدَها لمثلها ، وإنا قد تورّطنا فى بلاد هذا الرجل ، فلا تسبقونى بَرَيْث[2] أمر أُقيم عليه ، ودعونى ورأيى وحيلتى لكم » .

فقدم على الملك ، فضرب له قبّة[3] ونحر له جَزُورا .

فقال له القوم : قد أكرمنا كما ترى ، وما وراء هذا خيرٌ منه .

فقال : لا تعجلوا ، فلكلّ عام طعامٌ ، ولكل راعٍ مرعًى ، ولكل مُرَاحٍ مُرِيحٌ ، وتحت الرُّغْوَة الصريحُ[4] .

فمكثوا أياما ، ثم أرسل إليه الغسانى ، قد رأيتُ أن أجعلك الناظرَ فى أمر قومى ، فإنى قد رضيتُ عقلك وأتفرغَ لِلَذّاتى ومركبى ، فما رأيك ؟

فقال : أيها الملك ، ما أحسب أن رغبتك فىّ بلغتْك أن تجعل لى مُلْكك ، فقد

---

(١) الحباء هو العطاء بغير عوض . (٢) الريث هو الإبطاء كالتريث .

(٣) أقام له خيمة . (٤) الرغوة : الزبد ، يعلو الشىء عند غليانه ، والصريح : اللبن أو الشراب إذا ذهب زبده .

قبلتُ إذ ولّيْتَنِى أمور رعيّتك وقومك ، وإن لى كَنْزَ علمٍ ، وإن الذى أعجبك من علمى إنما هو من ذلك الكنز ، أحْتَذِى عليه وقد خلّفته خَلْفى ، فإن صار فى أيدى قومى عَلِمَ كلُّهم مثل علمى ، فائذن لى حتى أرجع إلى بلادى فآتيك به ، فإن صِرْتُ بهذا العلم إلى بلدك أبَحْتُه ولدكَ وقومَك حتى يكونوا كلهم علماء .

وكان الملك جاهلا ، فطمع أن يقطع أصل العلم من عندهم ، ويصيرَ لقومه دونهم.

[٦٠] فقال له الملك : قد أذِنتُ لك بتعجيل الرَّجْعَة .

فقال له عامر : إن قومى أَضِنَّاء بى ، فاكتبْ لى كتابا بجباية[1] الطريق فيرى قومى طمعاً يُطيّبُ أنفسهم عنى ، وأستخرج كنزى ، وأرجع إليك .

فكتب له بذلك .

فعاد إلى أصحابه ، فقال : ارتحلوا .

فقالوا : تالله ما رأينا وافدَ قومٍ قطُّ أبعدَ عن نوالٍ ، ولا أحْيَدَ عن مالٍ .

قال لهم : مَهْلًا ، فإن أفضل الرزق الحياةُ ، ولها يُرَاد الرزق ، وقال ، ليس على الرِّزْق فوت ، وغَنِم من نجا من الموت ، ومن لا يَرَ بَاطِناً يَعِشْ وَاهِناً ،

(يقول من لم ينظر فى المتعقِّب عاش واهنا ضعيفا ، والباطن ها هنا المتعقَّب والنظر فى العاقبة) .

ولو أخذ فىّ لَوْمُكم لاتّبعْتُ قولكم ، وَيْلُ امِّ[2] الآياتِ والعلامات ، والنظر والاعتبار ، والفكر والاختبار .

ثم قدم على قومه ، فقال : رُبَّ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلَاتٍ ، وَسَنَةٍ تَجْبُر سَنَوَات .

ثم أقام ، فلم يعد .

وكان من حديث عامر بن الظَّرِب أيضا أنه خطب إليه صَعْصَعَةُ بنُ معاوية ابنتَه[3] ، فقال : يا صعصعَ ، قد جِئْتَ تشترى منى كَبِدى ، وأكرَمَ[4] ولدى عندى،

(١) المراد أن يأمر له بالمال .
(٢) اصطلاح لغوى يستعمل فى الدعاء على الشىء .
(٣) عمرة (زيادة فى إحدى الروايات) .
(٤) فى رواية : وأرحم .

مَنَعْتُك أو بِعْتُك ، النكاحُ خيرٌ من الأَيْمَة[1] ، والحَسَبُ كِفاءُ الحسب ، والزوج الصالح يُعَدّ أبا ، قد أنكحتُك خشية ألا أجد مثلك ، يا معشر دَوْس[2] : (قال[3] ، وقال[4] أكثر أصحابنا يا معشر عَدوان) : خرجت كريمتُكم من بين أَظْهُرِكم من غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطّ له شيء جاءه ، ربّ زارعٍ لنفسه ما حاصدُه [٦١] غيرُه ، ولولا قَسْم الحظوظ ما أدرك الآخر مع الأول شيئا يعيش به ، ولكن رزق آكلٍ من آجل وعاجل ، إن الذى أرسل الحَيَا[5] أنبت المَرْعَى ثم قسمه (أى حفظ) ، وكلّأ لكل فمٍ بَقْلَةً ، ومن الماء جُرْعة ، ترون ولا تعلمون ، ولن يرى ما أصف لكم إلا كلُّ قلب واعٍ ، ولكل مَرْعًى راعٍ ، ولكل رِزْقٍ سَاعٍ ، ولكل خَلْقٍ خُلُقٌ ، كَيْسٌ أو حُمْق ، وما رأيت شيئاً قطّ إلا سمعت حِسَّهُ ووجدت مَسَّه ، وما رأيت شيئا خَلَق نفسه ، وما رأيت موضوعا إلا مَصْنُوعاً ، وما رأيت جَائِياً إلا ذاهبا ، ولا غانماً إلا خائبا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يُمِيتُ الناسَ الداء لأَعَاشَهم الدواء ، فهل لكم فى العِلمِ العَلِيم ؟

قيل : وما هو ؟ فقد قلت فأصبتَ ، وأخبرتَ فصدقتَ .

فقال : أرى أمورا شتّى ، وشيئاً شيئاً حتّى .

قالوا : وما حتّى ؟

قال : حتى يرجع الميت حيًّا ويعودَ لا شيء شَيْئاً ، ولذلك خلقت الأرض والسموات .

فتولّوا عنه ذاهبين .

فقال : وَيْلُ امِّها نصيحةً ، لو كان لها من يقبلها بقبولها .

***

---

(١) المعنى أن الزواج خير من عدمه . (٢) جاء فى كتاب الأمالى لأبى على القالى : حدثنا أبو بكر بن دريد قال : كان أبو حاتم يضن بهذا الحديث ، ويقول ما حدثنى به أبو عبيدة حتى اختلفت إليه مدة وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين ، وكان لهم مؤاخيا ، قال: حدثنا أبو حاتم قال : حدثنى أبو عبيدة قال : حدثنى غير واحد من هوازن من أولى العلم قال : اجتمع عامر بن الظرب العدوانى وحممة بن رافع الدوسى ، وتزعم النساب أن ليلى بنت الظرب أم دوس بن عدنان وزينب بنت الظارب أم ثقيف . (٣) القائل هو أبو حاتم . (٤) رواية لأبى روق .

(٥) الحيا هو ماء المطر الذى تحيا به الأرض .

قالوا : وعاش سِمْعان بن هُبَيْرة ، وهو أبو السَّمَّال الأسدى(١) سبعا وستين ومائة سنة .

وهو الذى يقول :

وَهَادِئَةٍ(٢) مِنْ شَيْبَتِى وَتَحَنُّنِى ... وَطُولِ قُعُودِى بِالْوَصِيدِ(٣) أُفَكِّرُ
تَقُولُ فَتَى سِمْعَانُ بَعْدَ اعْتِدَالِهِ ... وَبَعْدَ سَوَادِ الرَّأْسِ ، فَالرَّأْسُ أَزْعَرُ(٤)
[٦٢] فَقُلْتُ لَهَا، لَا تَهْزَئِى إِنَّ قَصْرَكِ الْـ ... مَنَايَا ، وَرَيْبُ الدَّهْرِ بِالْمَرْءِ يَغْدِرُ
فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ عَاشَ دَهْرًا بِنِعْمَةٍ ... فَحَلَّ بِهِ يَوْمٌ أَغَرُّ مُشَهَّرُ
فَصَارَ لَقًى فِى الْبَيْتِ لَا يَبْرَحُ الْفِنَا ... رَذِيًّا عَلَيْهِ كَآبَةٌ وَتَوَقُّرُ
وَقَدْ كَانَ مِدْلَاجًا إِلَى الْمَجْدِ مُتْعِبًا ... إِلَيْهِ الْمَطَايَا عُمْرَهُ لَيْسَ يَفْتُرُ
فَلَمَّا تَرَامَتْه الْمَنَايَا وَرَيْبُهَا ... تَقَوَّسَ مِنْهُ الظَّهْرُ فَالْخَطْوُ مُقْصَرُ

(كذا قال أبو حاتم مُقْصَر ، وهو غلط ، لأنه لا يقال : أقصر الخَطْوُ ، إنما يقال قَصَر ، ويجوز فالْخَطْوُ مَقْصَر ، فجعل المصدر [الميمى] صفة للخَطْو) .

وَعَادَ كَفَرْخِ النَّسْرِ أَعْمَى عَنِ الَّتِى ... يُرِيدُ طَوَالَ الدَّهْرِ يَهْذِى وَيَهْذِرُ
فَإِنْ أَكُ شَيْخًا فَانِيًا فَلَرُبَّمَا ... أَصَبْتُ الَّذِى أَهْوَى وَمَا كُنْتُ أَحْذَرُ
وَرُبَّ خُيُورٍ جَمَّةٍ قَدْ لَقِيتُهَا ... وَشَرٍّ كَثِيرٍ عَنْ شَوَاتِى تَحَدَّرُ

(شواته جلدةُ رأسه) .

وَخَيْلٍ دَعَتْنِى لِلنِّزَالِ أَجَبْتُهَا ... وَفِى الْكَفِّ مِنِّى مَشْرَفِىٌّ مُذَكَّرُ
وَتَحْتِى طِمِرٌّ(٥) مُسْتَطَارٌ فُؤَادُهُ ... سَلِيمُ الشَّظَا نَهْدٌ كُمَيْتٌ مُضَمَّرُ

---

(١) وكان شاعرا فى الردة .
(٢) وفى رواية : وهازئة .
(٣) الوصيد : فناء الدار أو البيت .
(٤) الرأس الأزعر قليل الشعر .
(٥) الطمر : الفرس الجواد ، وقيل هو الطويل القوائم الخفيف والأنثى طمرة ، وقد يستعار للأتان

فَنَازَلْتُ إِذْ نَادَوْا نَزَالِ ، وَنِلْتُ مَا ... يَنَالُ الْكَرِيمُ الْأَحْوَذِيُّ الْمُشَمِّرُ(١)
فَذَلِكَ دَهْرٌ قَدْ مَضَى حُلْوُ عَيْشِهِ ... وَغَادَرَنِي شِلْوًا(٢) لِي الذِّئْبُ يَكْشِرُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبَّاءً عَلَى الْقِرْنِ مِرْجَماً ... أَجُودُ وَأَحْمِي الْمُسْنِفَاتِ(٣) وَأَحْبُرُ(٤)
وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِامْرِئٍ مِنْ حَيَاتِهِ ... بِدَارَةِ ذُلٍّ عَلْبَلَايَا يُوَقَّرُ

(علبلايا يريد على البلايا فادّغم اللام ؛ وقال أبو حاتم : وآخر حرف [٦٣] فى كتاب سيبويه، علماءِ بنو فلان ، يريد على الماء).

* * *

قالوا : وعاش فالِجُ بن خَلَاوة بن سُبَيْع بن بكر بن أشجع بن رَيْث بن غطفان ثمانين ومائة سنة ، وكان فارسا ، وكان عِرِّيضاً، يَعْرِض فيما ليس يَعْنيه ، وهو الذى تَضْرِب العرب به المثل ، يقال للرجل إذا عرض فيما لا يعنيه « أَنْتَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ فَالِجُ بْنُ خَلَاوَةَ » .

حدثنا أبو حاتم : قال أخبرنا به أبو زيد فقال « أنت كفالج بن خلاوة ، ولا عقب لفالج » .

وقال يذكر اعتراضه فيما لا يعنيه :

أَلَا رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ قَدْ رَكِبْتُهُ ... بِثِنْيَيَّ فِعْلَ التَّيَّحَانِ الْمُضَلَّلِ(٥)
فَأَقْشَعَ عَنِّي لَمْ يَضِرْنِي وَرُبَّمَا ... أَجَرَّ الْفَتَى مَا كَانَ عَنْهُ بِمَعْزِلِ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا بَأْوٍ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً ... إِذَا جِئْتُ أَمْرًا جِئْتُهُ الدَّهْرَ مِنْ عَلِ(٦)
فَلَمَّا رَمَانِي الدَّهْرُ صِرْتُ رَزِيَّةً ... لِكُلِّ ضَعِيفِ الرُّكْنِ أَكْشَفَ أَعْزَلِ
فَيَا دَهْرُ قِدْمًا كُنْتُ صَعْباً فَلَمْ تَزَلْ ... بِسَهْمِكَ تَرْمِي كُلَّ عَظْمٍ وَمِفْصَلِ

---

(١) الأحوذى من الرجال هو المشمر فى الأمور القاهر لها الذى لا يشذ عليه منها شىء ، وفى الخيل السريع . (٢) الشلو : الجسد بدون روح . (٣) الخيل المتقدمة فى السير والمرجم الشديد . (٤) المعنى أقول الشعر، أوتترك ضرباتى آثارا بالعدو . (٥) الثنى ضم الرجلين على الفرس ، والتيحان : الفرس يعترض فى مشيه نشاطا ويميل على قطريه ، أو هو كثير الحركة .
(٦) البأو : العظمة والكبر .

فَقَدْ صِرْتُ بَعْدَ الْعِزِّ أُغْضِي مَذَلَّةً ... عَلَى الْهَوْلِ وَالْأَزْمَانُ ذَاتُ تَنَقُّلِ
فَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هُمَامٍ مُتَوَّجٍ ... مِنَ التِّيهِ يَمْشِي طَامِحًا كَالسَّبَهْلَلِ (١)
فَأَصْبَحَ بَعْدَ التِّيهِ كَالْبَمْرِ ذِلَّةً ... قَلِيلَ الْبَتَاتِ كَالضَّرِيكِ الْمُعْيَلِ (٢)
وَآخَرَ قَدْ أَبْصَرْتُهُ مُتَعَلِّفًا ... بِرَيْطَةِ ذُلٍّ كَانَ غَيْرَ مُبَجَّلِ (٣)
يَدِينُ لَهُ الْأَقْوَامُ سِرًّا وَجَهْرَةً ... يَرُوحُ وَيَغْدُو كَالْهُمَامِ الْمُرَفَّلِ
كَذَلِكَ هَذَا الدَّهْرُ صَارَتْ بُطُونُهُ ... ظُهُورًا وَأَعْلَى الْأَمْرِ صَارَ كَأَسْفَلِ
فَصَبْرًا عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ وَعَضِّهِ ... وَلَا تَكُ ذَا تِيهٍ وَلَا تَتَعَلَّلِ
[٦٤]خُذِ الْعَفْوَ وَاقْنَعْ بِالصَّحَاحِ فَرُبَّمَا ... أَكُونُ لِزَازَ (٤) الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

الصَّحاح الصحة مثل الضَّجاج والضَّجَّة ، وأنشد :

وَخُطَّ أَيَّامُ الصَّحَاحِ وَالسَّقَمْ

وقال :

مُعْتَرِضٌ لِعَنَنٍ (٥) لَمْ يَعْنِهِ ... أَدْرَكَ مَالَ غَيْرِهِ بِجُنِّهِ
فَاحْتَازَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ مِنْ ظَنِّهِ ... كَأَنَّمَا يَحْتَازُ مَاءَ شَنِّهِ

* * *

قالوا : وعاش جِرْوَةُ بن يزيد الطائىّ ، وكان ينزل بَلْخَ خراسان ، نزلها أيام عبد الله بن عامر ، وهو ابنُ قريب من مائة سنة ، وقتل مع سورة بن أَبْجر (٦) ، وهو أشلّ اليد اليسرى ، ضربت يده يوم زَحْف التُّرك إلى الأَحْنَف بن قَيْس ، فشُلَّتْ يده ، فأعطاه الأحنف دِيَتَها ، وكتب إلى ابن عامر فأعطاه ديتها أيضا ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

(١) السبهلل : الرجل المختال فى مشيته الذى يذهب ويجىء فى غير شىء .
(٢) البتات : الزاد والجهاز ، والضريك : الفقير الجائع ، وقال الأصمعى الضريك : الضرير ، والمعيل : ذو العيال ، والمراد الفقير سيىء الحال . (٣) الريطة بالفتح كل ملاءة ليست قطعتين .
(٤) اللزاز : نطاق الباب الذى يشد به ، وكل شىء دونى بين أجزائه أو قرن ، ورجل لزاز بشديد اللزوم . (٥) العنن : الاعتراض . (٦) فى اليعقوبى : الحر .

وكتب إلى الأحنف : كَافٍ عَلَى الْبَلَاءِ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ .

وكان يُكْثِرِ الغزْو ، وهو شيخ كبير ، وكان لا يُليق[1] شيئا سَخَاء ، وكان شجاعاً مُشَيَّماً ، وهو الذى يقول :

تَلُومُ حَلِيلَتِى بِالغَزْوِ جَهْلًا وَعَمْرُ الْغَزْوِ أَوْلَى بِالْمَلَامِ
وَلَوْلَا الغَزْو كُنْتُ كَمَنْ يُغادَى بِأَنْوَاعِ الشَّبَارِقِ وَالْمُدَامِ

(الشبارق الطعام[2] ، لفظ فارسي معرب) .

قَلِيلُ الْهَمِّ يَزْهَدُ فِى الْمَعَالِى وَيَرْضَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الطَّعَامِ
فَهَمِّى غَيْرُ هَمِّكِ فَاتْرُكِينِى وَغَزْوِى ، إِنَّهُ هَمُّ الْكِرَامِ
سَأَغْزُو التُّرْكَ إِنَّ لَهُمْ عُرَامًا[3] وَبَأْسًا حِينَ تَزْحَفُ لِلزِّحَامِ
[٦٥] هُوَ الْمَوْتُ الزُّؤَامُ إِذَا تَنَادَوْا لِحَرْبٍ يُسْتَطَارُ لَهَا عُقَامِ

حدثنا أبو حاتم قال ، أخبرنا أبو عبيد قال ، الزؤام الموت الوَحِيّ .

تَرَاهُمْ فِى الْحَدِيدِ كَأُسْدِ غَابٍ عَلَى جُرْدٍ عَوَابِسَ كَالْجِلَامِ[4]
طَوَوْهَا لِلْغِوَارِ فَأَضْمَرُوهَا فَآضَتْ لَا تَضِجُّ مِنَ الْكَلَامِ[5]
وَلَا تَنْحَاشُ مِنْ ذُعْرٍ وَلَا مِنْ مُبَاشَرَةِ الْأَسِنَّةِ وَالسِّهَامِ[6]
وَعِنْدِى حِينَ أَغْزُوهُم عَتَادٌ عَتِيدٌ ، كُلُّ مَصْقُولٍ حُسَامِ
وَكُلُّ طِمِرَّةٍ مَرَطَى سَبُوحٍ أَمَامَ الْخَيْلِ ظَاهِرَةِ الْقَسَامِ[7]
وكل مُثَقَّفٍ لَدْنٍ عَسُولٍ عَلَيْهِ مِثْلَ نِبْرَاسِ النِّهَامِ[8]
إِذَا أَنْحَيْتُهُ فِى الْقِرْنِ أَصْمَى وَلَا يَنْآدُ لِلْحَلَقِ التُّؤَامِ[9]

لا ينآد لا ينثنى ، والتؤام يعنى حلقتين ، وهذه دروع حَلَقُها مضاعف .

---

(١) لا يليق شيئا أى لا يمسك شيئا بسبب كثرة العطاء . (٢) من اللحم المطبوخ .

(٣) العرام: الشدة والقوة . (٤) الجلام جمع جلم ، وهو تيس الظباء ، وقد شبه بها الخيل فى سرعتها. (٥) آض يئيض سار وغاد ، وآض إلى أهله رجع إليهم . (٦) لا تنحاش أى لا تكترث .

(٧) الفرس الجواد المستعد للعدو ، والمرطى السريع ، وقيل هو نوع من العدو .

(٨) النهامى : الراهب لأنه ينهم أى يدعو. (٩) أصمى الفرس على لجامه إذا عض عليه ومضى.

وَفِتْيَانٍ إِذَا نُدِبُوا لِحَرْبٍ ... تَمَشُّوا مِشْيَةَ الْإِبِلِ الهِيَامِ
يَرَوْنَ عَلَيْهِمُ لِلَّهِ حَقًّا ... مُقَارَعَةَ الطَّمَاطِمَةِ الطَّغَامِ (١)
يُرِيدُونَ الْمَثُوبَةَ مِنْ إِلٰهٍ ... بَصِيرٍ تَحْتَ قَسْطَالِ القَتَامِ

قسطال، غبار .

وَكُلُّهُمُ يُرَادِي التُّرْكَ قِدْمًا ... وَيَحْوِي مُنْفِسًا فِي كُلِّ عَامِ
وَيَرْجُو اللهَ لَا يَرْجُو سِوَاهُ ... وَرَاجِي اللهَ يَرْجِعُ بِالسَّلَامِ
وَقَالَتْ قَدْ كَبِرْتُ فَقُلْتُ كَلَّا ... وَرَبِّ الْبَيْتِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ
لَقَدْ أَبْطَلْتِ، مَا كِبَرِي بِمُدْنِي ... إِلَيَّ، حَلِيلَتِي، قَدَرَ الحِمَامِ (٢)
[٦٦] سَأَغْزُو أَوْ أَمُوتُ كَذَا خُفَاتًا (٣) ... وَلَا آتِي بِدَاهِيَةٍ وَذَامِ
فَإِنَّ الدَّهْرَ يُلْعِبُ أَبْرَدَيْهِ ... بِكُلِّ مُذَمَّمٍ جَلْدِ العِظَامِ
وَيَتْرُكُ كُلَّ مَضْعُوفٍ جَرِيءٍ ... عَلَى الْأَبْطَالِ يُعْرَفُ بِالزِّحَامِ

وهو الذى يقول لامرأته :

وَقَالَتْ قَدْ كَبِرْتَ ، وَقُلْتُ حَقًّا ... كَبِرْتُ ، فَكَفْكِفِي وَدَعِي عِتَابِي
عِتَابُكِ كُلَّ يَوْمٍ لِي عَذَابٌ ... وَمِثْلِي لَا يَقَرُّ عَلَى الْعَذَابِ
فَإِنْ لَمْ تَصْبِرِي وَكَرِهْتِ قُرْبِي ... فَدُونَكِ مَا أَرَدْتِ مِنِ اجْتِنَابِي
سَأَغْزُو التُّرْكَ فِي نَفَرٍ كِرَامٍ ... سِرَاعٍ حِينَ نُدْعَى لِلضِّرَابِ
يَرَوْنَ الْمَوْتَ أَفْضَلَ مِنْ حَيَاةٍ ... تُصَيِّرُهَا الدُّهُورُ إِلَى تَبَابِ (٤)
وَفِي الْأَيَّامِ لِي عِظَةٌ وَنَاهٍ ... وَمَا أَرْضَى مُعَاتَبَةَ الكِعَابِ (٥)
لِأَنِّي أَطْلُبُ الْأَمْرَ الَّذِي لَا ... يُنَالُ بِغَيْرِ ضَرْبٍ لِلرِّقَابِ
فَيَا لَيْتَ السُّيُوفَ تَعَاوَرَتْنِي ... بِأَيْدِي مَعْشَرٍ كَأُسُودِ غَابِ
فَأَلْقَى الْمَوْتَ مُشْتَهِرًا فَمَالِي ... وَلَمْ تَدْنَسْ بِمَخْزِيَةٍ ثِيَابِي

(١) الطماطمة هم الأعاجم . (٢) قدر الحمام أى الموت . (٣) الخفات : الموت فجأة.
(٤) التباب : الهلاك . (٥) الكعاب جمع كاعب ، وهى المرأة .

وَكُفِّى طَلَّتِي[1] وَتَجَنَّبِينِي ... وَكُلُّ الْعَيْشِ وَيْحَكِ لِلذَّهَابِ
وَقَدْ أَغْدُو أَقُودُ إِلَى الْمَنَايَا ... فُتُوًّا زَجْرُهُم بِهَلٍ وَهَابِ
إِذَا مَا عَايَنُوا مَوْتًا زُؤَامًا ... تَمَشَّوا مِشْيَةَ الإِبِلِ الطِّرَابِ
رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُمُ الْمَنَايَا ... فَيَنْجُوا مِنْ أَلِيمَاتِ العِقَابِ

وقال أيضا :

لَعَمْرِي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً ... وَتِسْعِينَ أَرْجُو أَنْ أُعَمَّرَهَا غَدَا
[٦٧] فَمَا زَادَنِي صَبْرِي عَلَى مَا يَنُوبُنِي ... مِنَ الدَّهْرِ ضَعْفًا لَا، وَلَا كَدَّ لِي زِنْدَا
وَأَرْجُو وَأَخْشَى أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ أَقُمْ ... تُخَدِّعُنِي بِيضٌ ضَرَبْنَا بِهَا السُّغْدَا[2]
أَذَلَّتْ لَنَا أَرْكَانَهُمْ بَعْدَ عِزَّةٍ ... وَكَانُوا أُبَاةً حِينَ تَعْلَقُهُمْ صَمْدَا
فَلَا تَهْزَئِي مِنَّا وَلَا تَتَعَجَّبِي ... فَلَسْتُ أَرَى مِمَّا قَضَى اللهُ لِي بُدَّا

* * *

وعاش بَحْر بن الحارث بن امرئ القيس بن زُهَير بن جَناب بن هُبَل الكلبي مائة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام ، فلم يسلم ، وقال :

مَنْ عَاشَ خَمْسِينَ حَوْلًا بَعْدَهَا مِائَةً ... مِنَ السِّنِينَ وَأَضْحَى بَعْدُ يَنْتَظِرُ
وَصَارَ فِي الْبَيْتِ مِثْلَ الحِلْسِ مُطَّرِحًا ... لَا يُسْتَشَارُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَذَرُ[3]
مَلَّ الْمَعَاشَ وَمَلَّ الْأَقْرَبُونَ لَهُ ... طُولَ الْحَيَاةِ ، وَشَرُّ العِيشَةِ الْكَدَرُ

* * *

قالوا : وعاش مسعود بن مَصاد بن حِصن بن كَعْب بن عُلَيم بن جَناب بن هُبَل ، مِنْ[4] كلب ، مائةَ سنة وأربعين سنة ، وقال :

---

(١) الطلة : الزوجة وحرف النداء محذوف ، ويروى خلتي .

(٢) جيل من الناس . والبطل المخدع المضروب بالسيف .

(٣) الحلس : ما يبسط تحت حر المتاع حفظا له ، أو هو المرشحة تكون تحت البرذعة ، ويقال فلان حلس من أحلاس البيت للذي لا يبرح البيت ، وهو ذم . (٤) في النسخة الأخرى (بن) .

أَصْبَحْتُ يَا أُمَّ بَكْرٍ قَدْ تَخَوَّنَنِي رَيْبُ الزَّمَانِ وَقَدْ أَزْرَى بِيَ الْكِبَرُ
لَا أَسْتَطِيعُ نُهُوضًا بِالسِّلَاحِ وَلَا أَمْضِي الهُمُومَ كَمَا قَدْ كُنْتُ أَبْتَكِرُ
أَمْشِي عَلَى مِحْجَنٍ[1] وَالرَّأْسُ مُشْتَعِلٌ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، طَالَ الْعَيْشُ وَالْعُمُرُ
قَدْ كُنْتُ فِي عُصُرٍ لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ فَبَانَ مِنِّي ، وَهٰذَا بَعْدَهُ عُصُرُ

* * *

قالوا : وعاش[2] امرؤ القيس بن حُمام بن عَبيدَة بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عُذْرة بن زيد الله بن رُفَيْدة ، فقال في ذلك :

إِنَّ الْكَبِيرَ إِذَا طَالَتْ زَمَانَتُهُ فَإِنَّمَا حَمْلُهُ جِنَازَةٌ عَارُ
وَمَنْ يَعِشْ زَمَنًا فِي أَهْلِهِ خَرِفًا كَلًّا عَلَيْهِمْ إِذَا حَلُّوا وَإِنْ سَارُوا
[٦٨] يَذُمُّ مَرَارَةَ عَيْشٍ كَانَ أَوَّلُهُ حُلْوًا ، وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

* * *

قالوا : وعاش عَوْف بن سُبَيْع بن عُمَيْرة بن الهُوْن بن أَعْجَبَ بن قُدامة بن جَرْم بن ربّان بن حُلْوان بن عِمْران بن الحافِ بن قُضاعة مائة سنة وثمانين سنة .

وقال في ذلك :

أَلَا هَلْ لِمَنْ أَجْرَى ثَمَانِينَ حِجَّةً إِلَى مِائَةٍ عَيْشٌ وَقَدْ بَلَغَ الْمَدَى
وَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تُزْرِي صِفَاتَهُ وَتَمْتَاتُهُ حَتَّى تَضَعْضَعَ وَانْحَنَى
وَصَارَ كَفَرْخِ النَّسْرِ يَهْتَزُّ جِيدُهُ يَرَى دُونَ شَخْصِ الْمَرْءِ شَخْصًا إِذَا رَأَى
وَبُدِّلَ مِنْ طَرْفٍ جَوَادٍ حَشِيَّةً وَمِنْ قَوْسِهِ وَالرُّمْحِ والصَّارِمِ الْعَصَا
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَظْعَنُ جَارُهُ لِنِيَّتِهِ لَا بُدَّ يَوْمًا وَإِنْ ثَوَى

* * *

(١) المحجن هو العصا المعوجة. (٢) جاء فى هامش النسخة تعليق (لم يذكر عمره) .

قالوا : وعاش عامر ، وهو طابخة بن تغلب[1] بن حُلوان بن عِمْران بن الحافِ ابن قُضاعة خمسمائة سنة وعشرين سنة ، ولا أعلمه . قال شعرا ، وهو معروف بطول العمر .

* * *

قالوا : وعاش أبو الطَّمَحان القَيْنِيّ حَنْظَلَة بن الشَّرْقِيّ ، من بنى كنانة بن القَيْن ابن جَسْر بن شَيْع الله[2] بن الأسد بن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحافِ ابن قضاعة مائتى سنة .

وقال فى ذلك :

حَنَتْنِيَ حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى ... كَأَنِّى خَاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ[3]

قَرِيبُ الخَطْوِ يَحْسِبُ مَنْ رَءَانِى ... وَلَسْتُ مُقَيَّدًا أَنِّى بِقَيْدِ

حدثنا أبو حاتم ، قال حدثنى عدة من أصحابنا ، أنهم سمعوا يونس بن حَبيب النحوىّ ينشد هذين البيتين كثيرا فيما زعم أصحابنا ، وكان [٦٩] ينشد أيضا :

تَقَارَبَ خَطْوُ رِجْلِكَ يَا سُوَيْدُ ... وَقَيَّدَكَ الزَّمَانُ بِشَرِّ قَيْدِ[4]

* * *

قالوا : وعاش حارثة بن صَخْر بن مالك بن عَبْد مَناة بن هُبَل بن عبدالله بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عُذْرة بن زيد الله بن رُفَيْدة بن ثَوْر بن كَلْب بن وَبْرة مائة سنة وثمانين سنة حتى أدرك الإسلام فلم يسلم ، وأسلم ابنه جَناب بن حارثة بن صَخْر ، وهاجر إلى المدينة ، فجزع من ذلك جزعا شديدا .

---

(١) قال غير أبى حاتم : ليس لتغلب بن حلوان ولد غير وبرة ، وعامر ، وهو طابخة أخو عمرو ، وهو مدركة ، وعمير وهو قمعة . (٢) ورد فى الجمهرة وغيرها .. ابن شيم اللاة .

(٣) الخاتلة : مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية لئلا يسمع الصيد حسه ، وقد أورده غير أبى حاتم * كأنى حابل أدنو لصيد * وتعزى روايته للفراء .

(٤) المراد من قيد الزمان الضعف وقلة الحركة .

وأنشأ يقول :

تَرَكْتَ أَبَاكَ بِالأَدَوَاتِ كَلًّا وَأُمَّكَ كَالمَجُولِ مِنَ الظِّرَابِ (١)
فَلَا وَأَبِيكَ مَا بَالَيْتَ وَجْدِى وَلَا شَوْقِى الشَّدِيدَ وَلَا اكْتِئَابِى (٢)
وَلَا دَمْعاً تَجُودُ بِهِ المَآقِى وَلَا أَسَفِى عَلَيْكَ وَلَا انْتِحَابِى
فَعَمْرَكِ لَا تَلُومِينِى وَلُومِى جَنَاباً حِينَ أَزْمَعَ بِالذَّهَابِ
إِذَا هَتَفَ الحَمَامُ عَلَى غُصُونٍ جَرَتْ عَبَرَاتُ عَيْنِى بِانْسِكَابِ
يُذَكِّرُنِى الحَمَامُ صَفِىَّ نَفْسِى جَنَاباً ، مَنْ عَذِيرِى مِنْ جَنَابِ
أَرَدْتَ ثَوَابَ رَبِّكَ فِى فِرَاقِى وَقُرْبِى كَانَ أَقْرَبَ لِلثَّوَابِ

***

قالوا : وعاش عبّاد بن شدّاد اليربوعىّ مائة وثمانين سنة .

وقال فى ذلك :

يَا بُؤْسَ لِلشَّيْخِ عَبَّادِ بْنِ شَدَّادِ أَضْحَى رَهِينَةَ بَيْتٍ بَيْنَ أَعْوَادِ (٣)
وَتَهْزَأُ العِرْسُ مِنِّى إِنْ رَأَتْ جَسَدِى أَحْدَبَ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ أَجْلَادِ
فَإِنْ تَرَيْنِى ضَعِيفاً قَاصِرًا عُنُقِى فَقَدْ أُكَمْكِعُ عَنِّى عَدْوَةَ العَادِى (٤)
[٧٠] وَقَدْ أَفِى بِأَثْوَابِ الرَّئِيسِ وَقَدْ أَغْدُو عَلَى سَلْهَبٍ لِلْوَحْشِ صَيَّادِ (٥)

***

قالوا : وعاش همّام بن رياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم مائة وثمانين سنة .

وقال فى ذلك :

إِنَّ الغَوَانِىَ قَدْ عَجِبْنَ كَثِيرَا وَرَأَيْنَنِى شَيْخاً صَحَوْتُ كَبِيرَا

(١) الظراب جمع ظرب بكسر الراء ، وهو كل ما نتأ من الحجارة وحد طرفه .
(٢) فى الأصل : اكتيابى . (٣) يرويه غير أبى حاتم * أضحى رهين صفيحات وأعواد *
(٤) أكمكم أى أنحى وأبعد . (٥) السلهب : الطويل عامة ، وقيل هو الطويل من الخيل والناس

قَصْدُ الغَوَانِى أَنْ أَرَدْنَ هَوَادَتِى ... حَسْبُ الكَبِيرِ مُجَرَّباً مَخْبُوراً[1]
إِنِّى لَأَبْذُلُ لِلْحَلِيلِ إِذَا دَنَا ... مَالِى وَأَتْرُكُ مَالَهُ مَوْفُوراً
وَإِذَا أَرَدْتُ ثَوَابَ مَا أَعْطَيْتُهُ ... فَكَفَى بِذَاكَ لِنَائِلٍ تَكْدِيراً
إِنِّى امْرُؤٌ عَفُّ الْخَلَائِقِ لَا أَرَى ... طُرُقَ السَّمَاحَةِ يَا أُمَيْمَ وُعُوراً[2]

* * *

قالوا: وعاش أُسَيِّد بن أوسٍ التَّميميّ مائة وتسعين سنة، وقتل له ثلاثون ابناً فى حربٍ كانت بينه وبين بنى يشكر بن بكر بن وائل، فقال لمن بقى من ولده، وهو يوصيهم: « يا بَنِىّ، إنى رأيتُ مَطْلَماً تزايلت حجارتُه، وقد رأيته أملس ليس فيه صَدْعٌ، ورأيت الدّهر فَلَّ الصُّخورَ، فليقترب بعضكم من بعض فى المودّة، ولا تتّكلوا على القرابة، فإن القريب من قرُبَ نفسُه، والأمور بدَوَاتٌ ».

قالوا: وانطلق أُسَيِّد بن أَوْس إلى الحارث بن الهَبولة الغسانى، كان[3] أخا معاوية بن شُريف لأمّه، أمُّهما[4] ابنة رضا البارقىّ، يستمدّه فى حرب بنى الشَّقِيقة، فلما قدم عليه قال « حَمْلٌ (وهو رجل) يُوثَق فى الشدّة بالقرابة وبصدق أهل الوفاء، إن خير السجيَّة ما لم يتكلّف، وخير الأعوان على النَّجْل النساء (يعنى بالنجل الأولاد) [٧١]، ومن اتّخذ أداءَ الحقّ الحَيْطةَ فقد كَمَلَ (والحيطة غاية الحفظ) والعفو مُنْتهى البِرّ، ومنتهى البِرِّ الهوَى، وبالصِّدْقِ تمام المروءة، وبالكذب يُحْسَر الأنصار، وبالقُرَناء تُعْتَبَر الرجال، وأغنى الخصال عن المادّة العَفاف، والعفو ترك العقوبة، وترك العقوبة يَسُلُّ السَّخيمة ».

وقال أُسَيِّد بن أوس فى حَجَّة الغَدْر، عام قاتلوا أبا كرب بن زيد بن حسان بن تُبّع، فرجع إلى قومه بما أصاب، فقال « اِلْزَمُوا البِرَّ يَبَرَّكم بنوكم، أَجِرُّوا

---

(١) المعنى: يكفى الكبير عقله ورجاحة فكره بالخبرة والتجربة. (٢) أميم هى أميمة اسم حليلته. (٣) جاء فى كتاب الوصايا: وكان أسيد. (٤) وفى كتاب الوصايا (أمهما مارية).

الغضب ودافعوا بالأيّام القُروضَ ، فإن الرفق أبلغُ ، وآخر الدواء الكَيُّ ، وخير الثواب الشكر ، وخَطَلُ القول عورة ، وبالمُرْسَل يعتبر المُرْسِل .

***

قالوا : وعاش الأُبَيْرِدُ بن المُعَذِّر الرِّياحِيّ مائة وعشرين سنة ؛ وقال بعضهم ، بل هو الأبيرد بن الحارث ، من تَيْم الرِّباب بن عبد مناة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس ابن مُضَر .

وقال فى ذلك :

أَلَا هَزِئَتْ مَوْدُودَةُ اليومَ أَنْ رَأَتْ ... شَكِيرَ[1] أَعَالِي الرَّأْسِ مِنِّي تَلَفَّعَا

وَأَنْ شَابَ أَصْدَاغِي وَغَمَّمَ مَفْرِقِي ... مَشِيبٌ وَأَمْسَى لَوْنُ وَجْهِيَ أَسْفَعَا[2]

فَقُلْتُ لَهَا لَا تَهْزَئِي مِنْ مُجَرِّبٍ ... تَرَامَتْ بِهِ الْأَيَّامُ حَتَّى تَسَعْسَعَا[3]

فَإِنَّكِ لَوْ صَاحَبْتِنِي لَمْ تَعَتَّبِي ... وَلَمْ تَجِدِي فِينَا لِكَفَّيْكِ مَصْنَعَا

لَيَالِيَ لَوْنِي وَاضِحٌ وَذُؤَابَتِي[4] ... غَرَابِيبُ[5] فِي رَأْسِ امْرِئٍ غَيْرِ أَنْزَعَا

***

قالوا : وعاش عَبِيد بن الأَبْرَص الأَسَدِيّ الشاعر من بنى سعد بن ثعلبة بن دُودان بن أسد مائتى سنة وعشرين سنة ، ويقال [٧٢] ، بل ثلاثمائة سنة[6] .

وقال فى ذلك :

وَلَتَأْتِيَنْ بَعْدِي قُرُونٌ جَمَّةٌ ... تَرْعَى مَخَارِمَ[7] أَيْكَةٍ وَلُدُودَا[7]

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ ، وَلَيْلٌ كَاسِفٌ ... وَالنَّجْمُ يَجْرِي أَنْحُسًا وَسُعُودَا

---

(١) الشكير هو الشعر الذى فى أصل عرف الفرس كأنه زغب ، وكذا فى الناصية أو هو ما نبت من صغير الشعر بين كبيره . (٢) اللون الأسفع الأسود المشرب حمرة .

(٣) سعسم الشيخ : قارب الخطو واضطرب من الكبر .

(٤) الذؤابة : الشعر فى أعلى الناصية . (٥) غرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد الذى لا يشيب شعر رأسه . (٦) وقد قتله المنذر بن ماء السماء ، وهو أحد فحول شعراء العصر الجاهلى ، وأخباره مشهورة ، وشعره مجموع . (٧) موضعان .

حَتَّى يُقَالَ لِمَنْ تَعَرَّقَ دَهْرُهُ يَاذَا الزَّمَانَةِ هَلْ رَأَيْتَ عَبِيدَا(١)
مِائَتَىْ زَمَانٍ كَامِلٍ وَنَصِيَّةٍ عِشْرِينَ عِشْتُ مُعَمَّرًا مَحْمُودَا
أَدْرَكْتُ أَوَّلَ مُلْكِ نَصْرٍ نَاشِئًا(٢) وَبِنَاءَ شَدَّادٍ(٣) وَكَانَ أُبِيدَا
وَطَلَبْتُ ذَا الْقَرْنَيْنِ(٤) حَتَّى فَاتَنِى رَكْضًا وَكِدْتُ بِأَنْ أَرَى دَاوُدَا(٥)
مَا تَبْتَغِى مِنْ بَعْدِ هٰذَا عِيشَةً إِلَّا الْخُلُودَ ، وَلَنْ يَنَالَ خُلُودَا
وَلَيَفْنَيَنْ هٰذَا وَذَاكَ كِلَاهُمَا إِلَّا الْإِلٰهَ وَوَجْهَه الْمَعْبُودَا

وقال أيضا(٦) :

فَنِيتُ وَأَفْنَانِى الزَّمَانُ وَأَصْبَحَتْ لِدَاتِى بَنُو نَعْشٍ وَزُهْرُ الْفَرَاقِدِ(٧)

* * *

قالوا : وعاش كبير بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة مائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام فأسلم ، وقال ابن الكلبىّ وغيره ، بل عاش ثلاثين ومائة سنة ، وكان يوم جَبَلَة ابن تسع سنين ، وولد عامر بن الطُّفَيل فى ذلك اليوم .

ووفد عامر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن نَيِّف وثمانين .

وقالوا : كانت أَعْطِيات الناس أَلْفَيْن وخمسمائة ، فكتب معاوية إلى زياد أن ينقُصَ الخمسمائة .

وحدثنا أبو حاتم قال ، سمعت الأصمعىّ يقول ، أراد أن يردّه إلى أَلْفَيْن .

فقال : ما بالُ العِلاوة بين [٧٣] العِدْلَيْن(٨) ؟

---

(١) تعرق الدهر: أصاب الإنسان وصرعه ، فتعرقه أى أخذ رأسه تحت إبطه فصرعه ، والمعنى المراد كبر العمر . (٢) فى الأصل : ناشيا . (٣) هو شداد بن عاد .
(٤) ذوالقرنين هو الاسكندر . (٥) المراد داود النبى . (٦) فى رواية أخرى : وقاله الحارث بن حبيب الباهلى ويروى لغيره . (٧) الفراقد جمع فرقد ، وهو النجم الذى يهتدى به .
(٨) العدلان مثنى عدل ، وهو مثل الشىء فى جنسه أو مقداره .

فجاء لبيد ليأخذ عطاءه .

فقال زياد : أبا عَقيل ، هذان الخُرْجان .

(يعنى الألفَيْن) .

— فما بال العلاوة ؟

(يعنى الخمسمائة) .

قال : ألحق العِلاوة بالخرجين ، فإنك لا تلبث إلا قليلا حتى يصير لك الخُرجان والعِلَاوة .

قال : فأعطاه زياد ألفين وخمسمائة ، ولم يُعطِها غيْرَه .

فما أخذ عطاء آخر حتى مات رحمه الله .

وقال لبيد :

أَلَيْسَ وَرَائِى أَنْ تَراخَتْ مَنِيَّتِى ... لُزُومَ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِى مَضَتْ ... أَدِبُّ كَأَنِّى كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

وقال :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِى أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِى خَلَفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ[1]

وقال حين مضت له سبع وسبعون :

نَفْسِى تَشَكَّى إِلَىَّ الْمَوْتَ مُجْهِشَةً ... وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينَا[2]
إِنْ تُحْدِثِى أَمَلًا يَا نَفْسِ كَاذِبَةً ... فَفِى الثَّلَاثِ وَفَاءٌ لِلثَّمَانِينَا

فلما بلغ مائة وعشرا قال :

أَلَيْسَ فِى مِائَةٍ قَدْ عَاشَهَا رَجُلٌ ... وَفِى تَكَامُلِ عَشْرٍ بَعْدَهَا عُمُرُ

فلما بلغ عشرين ومائة ، قال :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَسُؤَالِ هٰذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدُ

---

(١) الخلف مقابل السلف والمقصود من جلد الأجرب النبذ والابتعاد . (٢) تشكى أى تتشكى ، وجهش إليه إذا فزع إليه ، والمراد البكاء كالصبى إذا فزع إلى أمه باكيا .

قال : وحدثنا الرِّياشيّ قال أبو رَوْق ، وحـدثناه أبو الخطاب زياد بن يحيي الحسّانيّ عن الهيثم بن الربيع قال ، حـدثنا أبي عن الشَّعْبِيّ قال ، أرسل إليّ عبد الملك بن مروان ، وهو شاكٍ [٧٤] ، فدخلت عليه ، فقلت : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟

فقال : أصبحتُ كما قال ابن قمئة أخو بنى قيس بن ثعلبة .

قال : وما قال ؟

قال : قال :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً ... خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لِجَامِي (١)

رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى ... فَكَيْفَ بِمَنْ يُرْمَى ، وَلَيْسَ بِرَامِي

فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ ، إِذَنْ لَاتَّقَيْتُهَا ... وَلَكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ

إِذَا مَا رَآنِي النَّاسُ قَالُوا أَلَمْ يَكُنْ ؟ ... جَلِيدًا شَدِيدَ الْبَطْشِ غَيْرَ كَهَامِ (٢)

فَنِيتُ وَلَمْ تَفْنَ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةٌ ... وَلَمْ يُغْنِ مَا أَفْنَيْتُ سِلْكَ نِظَامِ (٣)

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا ... أَنُوءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي (٤)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولـكنك كما قال لبيد بن ربيعة أخو بنى جعفر بن كلاب.

قال : وما قال ؟

قلت : قال :

نَفْسِي تَشَكَّى إِلَيَّ الْمَوْتَ مُجْهِشَةً (٥) ... وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَا

فَإِنْ تُزَادِي ثَلَاثًا تَبْلُغِي أَمَلًا ... وَفِي الثَّلَاثِ وَفَاءٌ لِلثَّمَانِينَا

فعاش والله يا أمير المؤمنين حتى بلغ تسعين حجة ، فقال :

---

(١) العذار من اللجام ما تدلى منه على وجه الفرس . (٢) الرجل الـكهام : البطىء الضعيف الذى لاغناء عنده . (٣) يغنى : يصرف ويكف . (٤) وفى رواية أخرى زيادة :

وأهلـكنى تأميل يوم وليلة ... وتأميل عام بعد ذاك وعام

(٥) وقد روى البيت فى ديوانه : باتت تشكى إلىّ النفس مجهشة .

كَأَنِّى وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّـةً خَلَعْتُ بِهَا عَنْ مَنْكِبَىَّ رِدَائِيَا

فعاش حتى بلغ عشرا ومائة سنة ، فقال فى ذلك :

أَلَيْسَ فِى مِائَةٍ قَدْ عَاشَهَا رَجُـلٌ وَفِى تَـكَامُلِ عَشْرٍ بَعْدَهَا عُمُرُ

فعاش والله يا أمير المؤمنين حتى بلغ عشرين ومائة ، فقال فى ذلك .

[٧٥] وَغَنِيتُ سَبْتاً(١) بَعْدَ مُجْرَى دَاحِسٍ(٢)
لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُـوجِ خُلُودُ

فعاش حتى بلغ أربعين ومائة ، فقال فى ذلك :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هٰذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدُ

فقال عبد الملك ، والله ، مَا بِى بَأْسٌ ، اُقْعُد حدّثنى ما بينك وبين الليل .

فقعدت ، فحدّثته حتى أمسيت ، ثم فارقته ؛ فمات فى ليلته .

***

قال أبوحاتم ، وعاش النَّمِر بن تَوْلَب بن أُقَيْش(٣) العُكلىّ مائتىسنة حتى أنكر بعضَ عقله .

فقال فى ذلك :

لَعَمْرِى ، لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِى وَرَابَنِى مَعَ الشَّيْبِ أَبْدَالِى الَّذِى أَتَبَدَّلُ
وَتَسْمِيَتِى شَيْخًا وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ لِىَ اسْمٌ فَلَا أُدْعَى بِهِ وَهْوَ أَوَّلُ
وَزُهْدِى فَيَكْفِينِى الْيَسِيرُ وَإِنَّنِى أَنَامُ إِذَا أُمْسِى وَلَا أَتَعَلَّلُ
وَظَلْعِى وَلَمْ أُكْسَرْ وَإِنَّ حَلِيلَتِى تَحُوزُ بَنِيهَا فِى الْفِرَاشِ وَأَعْزَلُ(٤)

---

(١) السبت هو الدهر . (٢) مجرى داحس ، إشارة إلى السباق بين داحس جواد قيس بن زهير ، سيد بنى عبس وبين الغبراء فرس حمل بن بدر من ذبيان ، وهو السباق الذى انتهى بحرب استمرت بين عبس وذبيان وقتا طويلا حتى وقع الصلح بين القبيلتين ، وقد أنشأ زهير بن أبى سلمى معلقته فى مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذين أصلحا بين عبس وذبيان ، وتحملا ديات القتلى . (٣) فى الجمهرة وغيرها : ابن لقيس .

(٤) الظلع هو الغمز فى المشى لعاهة فى الرجل ، وتحوز أى تضم إليها أولادها .

فُصُولٌ أَرَاهَا فِي أَدِيمِي بَعْدَ مَا ... يَكُونُ كَفَافَ اللَّحْمِ أَوْ هُوَ أَجْمَلُ[1]
يُحِبُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى ... فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ[2]

* * *

قالوا : وعاش نَصْر بن دُهْمان بن بِصار بن بكر بن سُلَيم بن أَشْجَع بن الرَّيْث ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان مائة وتسعين سنة حتى سقطت أسنانه وابيضّ رأسه ، فحزب قومَهُ أمرٌ احتاجوا فيه إلى عقله ورأيه .

فدعوا الله أن يرد عليه عقلَه وشبابَهُ .

فردّ الله عليه عقله وشبابه وفهمه ، واسودّ شعره .

فقال سَلَمَة بن الخُرْشُب الأنماريّ ، من أنْمار بن [٧٦] بغيض ، ويقال ، بل عياض بن مرداس :

نَصْرُ بْنُ دُهْمَانَ الْهُنَيْدَةَ عَاشَهَا ... وَتِسْعِينَ حَوْلًا ثُمَّ قُوِّمَ فَانْصَاتَا[3]
وَعَادَ سَوَادُ الرَّأْسِ بَعْدَ ابْيِضَاضِهِ ... وَرَاجَعَهُ شَرْخُ الشَّبَابِ الَّذِي فَاتَا
وَرَاجَعَ عَقْلًا بَعْدَ عَقْلٍ وَقُوَّةً ... وَلَكِنَّهُ مِنْ بَعْدَ ذَا كُلِّهِ مَاتَا

* * *

قالوا : وعاش زُهَير بن مِرْخَةَ[4] ، من بنى وابِش بن عَدوان بن عمرو بن قيس ابن عيلان مائة وسبعين سنة .

وقال في ذلك :

كَبِرْتُ وَأَمْسَتْ عِظَامِي رَمَادَا ... وَمَا تَأْمُلُ الْعَيْنُ إِلَّا رُقَادَا
أَقُولُ لِأَهْلِي لَا تَظْعَنُوا ... وَهَاتُوا فِرَاشًا وَطِيئًا وَزَادَا

* * *

---

(١) الفصول جمع فصل وهو كل ملتقى عظمين من الجسد كالمفصل ، والمعنى أن الجسم قد نحل حتى بدت عظامه . (٢) ويروى بعد هذا فى غير رواية أبى حاتم .

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام فيحمل

(٣) انصات الرجل إذا أجاب . (٤) مرخة أمه ، وهى بنت أبى معاوية بن الأعزل من بنى سيارة .

قالوا : وعاش ربيعة ، وهو أبو جُماد من بنى عَدوان مائةً وسبعين سنة .

وقال فى ذلك :

أَبَا جُمَادٍ الْيَوْمَ أَفْنَاكَ الْكِبَرْ
وَالدَّهْرُ فِيْنَانِ ، فَحَرٌّ وَخُصَرْ
أَيَّامَ إِذْ تَجْنِى لَكَ السَّمْنَ مُضَرْ
فِى قَيْسٍ عَيْلَانَ وَأَحْيَاءٍ أُخَرْ

***

قالوا : وعاش نابغة بنى جَعْدة ، واسمه ، قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة مائتى سنة ، وأدرك الإسلام، وأسلم(١).

وقال حين وَفَتْ له مائة واثنتا عشرة سنة :

مَضَتْ مِائَةٌ لِعَامٍ وُلِدْتُ فِيهِ ... وَعَشْرٌ بَعْدَ ذَاكَ وَحِجَّتَانِ
فَأَبْقَى الدَّهْرُ وَالأَيَّامُ مِنِّى ... كَمَا أَبْقَى مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِ
تَفَلَّلَ وَهْوَ مَأْثُورٌ جُرازٌ ... إِذَا جُمِعَتْ بِقَائِمِهِ الْيَدَانِ
أَلَا زَعَمَتْ بَنُو كَعْبٍ بِأَنِّى ... أَلَا كَذَبُوا كَبِيرَ السِّنِّ فَانِى
[٧٧] فَمَنْ يَحْرِصْ عَلَى كِبَرِى فَإِنِّى ... مِنَ الْفِتْيَانِ أَزْمَانَ الْخُنَانِ(٢)

الخُنان مرض أصاب الناس فى أنوفهم وحلوقهم ، وربما أخذ النَّعَم ، وربما قتل.

---

(١) فى رواية أخرى زيادة : وروى أبو حاتم السجستانى قال : كان النابغة الجعدى أسن من النابغة الذبيانى ، والدليل على ذلك قوله :

تذكرت والذكرى تهيج على الهوى ... ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
ندامای عند المنذر بن محرق ... أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهول وفتيان كأن وجوههم ... دنانير مما شيف فى أرض قيصرا

فهذا يدل على أنه كان مع المنذر بن محرق ، والنابغة الذبيانى كان مع النعمان بن المنذر بن محرق.

(٢) الخنان : داء يصيب الإبل فى مناخيرها وتموت منه ، فصار ذلك تاريخا ، وقد جاء فى القاموس أن الخنان كان فى زمن المنذر بن ماء السماء .

وقال أيضا :

لَبِسْتُ أُنَاسًا فَأَفْنَيْتُهُمْ ... وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسَا
ثَلاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ ... وَكَانَ الإلٰهُ هُوَ الْمُسْتَآسَا(١)

الْمُسْتَآس المستعاض ، مستفعل من الأَوْس ، والأوس المطيّة عوضا .

وقال أيضا :

قَالَتْ أُمَامَةُ كَمْ عَمِرْتَ زَمَانَةً ... وَذَبَحْتَ مِنْ عِتْرٍ(٢) عَلَى الْأَوْثَانِ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ عُكَاظَ قَبْلَ مَحَلِّهَا ... فِيهَا وَكُنْتُ أُعَدُّ مِلْفِتْيَانِ(٣)

أراد من الفتيان .

وَالْمُنْذِرَ بْنَ مُحَرِّقٍ فِي مُلْكِهِ ... وَشَهِدْتُ يَوْمَ هَجَائِنِ النُّعْمَانِ(٤)
وَعَمِرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى ... وَقَوَارِعٍ تُتْلَى مِنَ الْفُرْقَانِ
وَلَبِسْتُ مِلْإِسْلَامِ(٣) ثَوْبًا وَاسِعًا ... مِنْ سَيْبِ لَا حَرِمٍ وَلَا مَنَّانِ(٥)

* * *

(١) وفي كتاب الوصايا صحيفة ٧١ تروى للحارث بن كعب الأبيات التالية :

أكلت شبابى فأفنيته ... وأمضيت بعد دهور دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم ... فبادوا وأصبحت شيخا كبيرا
قليل الطعام عسير القيام ... وقد ترك الدهر قيدى قصيرا
أبيت أراعى نجوم السماء ... أقلب أمرى بطونا ظهورا

(٢) العتر هى العتيرة ، وكانت ناقة تنحر لآلهتهم فى شهر رجب ، وفى رواية أخرى : العتر بالتاء ، وهى الذبيحة للصنم ، وكانت تعترها الجاهلية ، أى تذبحها للأصنام ، وتصب دمها على رأسها .

(٣) أراد من الفتيان ، ومن الإسلام فحذف .

(٤) يروى عن أبى حاتم فى غير الأصل أنه قال : كان النابغة الجعدى أسن من النابغة الذبيانى ، وأنشد :

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى ... ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماى عند المنذر بن محرق ... أرى اليوم منها ظاهر الأرض مقفرا
كهول وفتيان كأن وجوههم ... دنانير مما شيف فى أرض قيصرا

وهذا يدل على أنه كان مع المنذر بن محرق ، والنابغة الذبيانى كان مع النعمان بن المنذر بن محرق .

(٥) وأنشد غير أبى حاتم للنابغة مما قاله فى آخر عمره : =

قالوا : وعاش قَرَدَةُ بن نُفَاثَةَ السَّاولِىّ ، من عمرو بن مُرَّة بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفَةَ بن قيس بن عيلان مائة سنة وأربعين سنة ، وأدرك الإسلام .

وقال فى إسلامه :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ إذْ لَمْ يَأْتِنِى أَجَلِى   حَتَّى لَبِسْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَا
وَقَدْ أُرَوِّى نَدِيمِى مِنْ مُشَعْشَعَةٍ   وَقَدْ أُقَلِّبُ أَوْرَاكًا وَأَكْفَالَا(١)

[٧٨] قال أبو حاتم ، ويزعمون أن البيت الأول للبيد ، وأنه لم يقل فى الإسلام غيره ، والله أعلم .

* * *

قالوا : وعاش زهير بن أبى سُلْمى الشاعر ، وهو زهير بن ربيعة بن عمرو ، ويقال ، إنه من مُزَيْنَة ، وكذلك قال ابنه كعب فى شعره ؛ ويقال ، إنه من عبد الله ابن غطفان مائةً وعشرين سنة .

وقال حين بلغ الثمانين :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ ، وَمَنْ يَعِشْ   ثَمَانِينَ حَوْلاً ، لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

قال أبو حاتم ، وكان الأصمعى يزعم أن القصيدة(٢) لأنس بن زُنَيْم .

= أكلت شبابى فأفنيته   وأمضيت بعد دهور دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم   فبادوا وأصبحت شيخا كبيرا
قليل الطعام عسير القيام   وقد ترك الدهر قيدى قصيرا
أبيت أراعى نجوم السماء   أقلب أمرى بطونا ظهورا

(١) وأنشد له غير أبى حاتم قبل هذين البيتين:
بان الشباب فلم أحفل به بالا   وأقبل الشيب والإسلام إقبالا

(٢) المراد من القصيدة هى القصيدة التالية التى مطلعها :
* ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى *
لا قصيدة زهير المشهورة التى مطلعها :
* أمن أم أوفى دمنة لم تكلم *

(قال أبو روق : غَلِطَ أبو حاتم ، إنما كان الأصمعى يقول ، القصيدة لصِرْمة ابن أنس الأنصارى) .

وأنس بن زُنَيم كان على عهد زياد وابنه .

قال أبو حاتم ، ثم قال بعد ذلك :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى ، هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى
مِنَ الْأَمْرِ ، أَوْ يَبْـدُو لَهُمْ مَا بَدَا لِيَا

بَدَا لِيَ أَنِّى عِشْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرًا وَتِسْعًا بَعْـدَهَا وَثَمَانِيَا

فَلَمْ أُلْفِهَا لَمَّا مَضَتْ وَعَدَدْتُهَا بِحِسْبَتِهَا فِى الدَّهْرِ إِلَّا لَيَالِيَا

* * *

قال : وعاش ثَوْب بن تَلْدَةَ الأسدى ، من بنى والبة بن الحارث بن ثعلبة بن دُودان بن أسد بن خُزَيمة عشرين ومائتى سنة ، وأدرك معاوية بن أبى سفيان ، وقال:

وَإِنَّ امْرَءًا قَدْ عَاشَ عِشْرِينَ حِجَّةً إِلَى مِائَتَيْنِ ، كُلُّهَا ، هُوَ دَائِبُ

لَرَهْنٌ لِأَحْـدَاثِ الْمَنَايَا وَإِنَّمَا يُلَهِّيهِ فِى الدُّنْيَا مُنَاهُ الْكَوَاذِبُ

حدثنا أبو حاتم عن الكلبى قال ، قال ابن الكلبىّ : سمعت أبى يقول ، أدرك [٧٩] ثَوْب بن تَلْدَة معاوية ، فدخل عليه ، فقال[١] :

---

(١) وقد ورد فى كتاب الأمالى للقالى طبعة أوربة ١٩٣٥ قوله :

وحدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال : حدثنا العكلى عن ابن أبى خالد عن الهيثم بن عدى قال : دخل الخيار بن أوفى النهدى على معاوية فقال له : ياخيار ، كيف تجدك ؟ وماصنع بك الدهر؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتى وأثكلنى لداتى وأوهى عمادى وشيب سوادى وأسرع فى تلادى ، ولقد عشت زمانا أصبى الكعاب وأسر الأصحاب وأجيد الضراب ، فبان ذلك عنى ، ودنا الموت منى ، وأنشأ يقول :

جَرَيْتُ زمانا يرْهَبُ القربُ جَانِبِى كَأَنِّى شَتِيمٌ بَاسِلُ القَلْبِ خَادِرُ

يَخَافُ عَدُوِّى صَوْلَتِى فَيهَابُنِى وَيُكْرِمُنِى قِرْنِى وَجَارِى الْمُجَاوِرُ

وَتُصْبِى الْكَعَابُ لِمَّتِى وَشَمَائِلِى كَأَنِّى غُصْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ =

— ما أدركت ؟ وكم عمرك ؟

قال : لا أدرى ، إلا أنى أدركت بنى وَالِبة ثلاث مرات ـ يريد أفنيت ثلاثة قرون ـ .

قال : فكيف بصرك اليوم ؟

قال : أَحَدُّ ما كان قطُّ ، كنت أرى الشخص واحدا فأنا أراه اليوم شخصين.

قال : فكيف مشيك ؟

قال : أَمْشَى ما كنت قطّ ، كنت أمشى تَيْدًا ، فأنا اليوم أُهَرْوِل هَرْوَلة .

فقال : أدركت أمية بن عبد شمس ؟

(١قال : نعم ، وهو أعمى يقوده عبدٌ له ، يقال له « ذَكْوان »١) .

فقال له معاوية : كُفَّ ، فقد جاء غيرُ ما رأيتَ يا ثَوْبُ .

ثم قال معاوية : ليس فى البيت إلا أُمَوِىّ ، فانْظُرْ ، أىّ هؤلاء أشبه بأمية .

فنظر ، ثم قال : هذا ، لعمرو بن سعيد بن العاص ، وهو عمرو الأَشْدَق .

قال أبو حاتم ، قال العُتبِىّ ، قيل له : الأشدق ، لأنه كان خطيبا مُفْلِقًا .

***

قالوا : وعاش أُمَيّة بن الأَسْكر من بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة دَهْرا طويلا ، وأدرك الإسلام فأسلم ، وأسلم ابنٌ له ، يقال له « كِلاب » وهاجر إلى المدينة ، فخرج فى بَعْثٍ إلى العراق .

=فبَانَ شبَابِى وَاعتَرَتنِى رَثِيَّةٌ كأنِّى قَنَاةٌ اطَّرَتهَا المَآطِرُ

أَدِبّ إذَا رُمْتُ القِيَامَ كَأَنَّنِى لَدَى المَشْى قِرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ

وَقصرُ الفتَى شَيْبٌ وَمَوْتٌ كِلَاهُمَا لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاظِرُ

وَكَيفَ يَلَذّ العَيْشَ مَنْ لَيسَ زَائِلا رَهِينُ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

فقال معاوية : أحسنت القول ، واعلم أن لها مصادر، فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يصدرنا عنها وهو راض .

(١) هذه العبارة ساقطة من متن الأصل . وقد كتبت على الهامش بخط مخالف .

فلما بلغ ذلك أباه أمية أنشأ يقول :

لِمَنْ شَيْخَانِ قَدْ نَشَدَا كِلَابًا ... كِتَابَ اللهِ لَوْ ذَكَرَ الْكِتَابَا

أُنَاشِدُه وَيَعْرِضُ لِي إِبَاءً ... فَلَا وَأَبِي كِلَابٍ مَا أَصَابَا

إِذَا هتفتْ حَمَامَةُ بَطْنِ وَجٍّ(١) ... إِلَى بَيْضَاتِهَا ذَكَرَا كِلَابَا

أَتَاهُ مُهَاجِرَانِ تَكَنَّفَاهُ ... بِتَرْكِ كَبِيرَةٍ خَطِئًا وَخَابَا

تَرَكْتُ أَبَاكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ ... وَأُمَّكَ مَا تُسِيغُ لَهَا شَرَابَا

تُمَسِّحُ مَهْدَهُ شَفَقًا عَلَيْهِ ... وَتَجْنُبُهُ أَبَاعِرُنَا الصِّعَابَا(٢)

فَإِنَّكَ وَابْتِغَاءَ الْأَجْرِ بَعْدِي ... كَبَاغِي الْمَاءِ يَتَّبِعُ السَّرَابَا

[٨٠] قال وَمُرَبَّعَةُ كلابٍ منسوبة إليه ، كان نزلها حين قدم البصرة .

وقال أيضا أمية :

أَعَاذِلَ قَدْ عَذَلْتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... وَمَا يُدْرِيكِ وَيْحَكِ مَا أُلَاقِي

فَإِمَّا كُنْتِ عَاذِلَتِي فَرُدِّي ... كِلَابًا إِذْ تَوَجَّهَ لِلْعِرَاقِ

سَأَسْتَعْدِي عَلَى الْفَارُوقِ رَبًّا ... لَهُ، رَفَعَ الْحَجِيجُ إِلَى بُسَاقِ(٣)

إِنِ الْفَارُوقُ لَمْ يَرْدُدْ كِلَابًا ... عَلَى شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَوَاقِ(٤)

فَلَوْ فَلَقَ الْفُؤَادَ حَمَاطُ وَجْدٍ ... لَهَمَّ سَوَادُ قَلْبِي بِانْفِلَاقِ(٥)

فلما بلغ عمر كِبَرُه وشوقُه كتب إلى سعد بن أبي وقاص بالكوفة ، يأمره بإقفال كلاب بن أُمَيّة إليه بالمدينة .

فلما قدم عليه قال لأبيه أُمَيّة : أي شيء أحب إليك ؟ .

قال : النظر إلى ابني كلاب .

---

(١) اسم واد بالطائف . (٢) الأباعر جمع أبعرة ، ومفردها بعير ، فهو جمع الجمع .

(٣) بساق جبل بالحجاز مما يلي الغور . (٤) هامهما زواق كناية عن قرب موتهما ، والزواق : الصياح ، والهامة : طائر من طيور الليل ، وقد قال أبو عبيدة : كانت العرب تقول : إن أرواح الموتى تصير هامة فتطير ، ولما جاء الإسلام نفاه ، ونهاهم عنه . والهام جمع هامة .

(٥) حماط القلب : حبته .

فدعاه .

فلما رآه قام إليه فاعتنقه ، وبكى بكاء شديدا ، وبكى عمر رقة لهما ؛ ثم قال : « يا كلابُ ، الزَمْ أباكَ وأمك ، ولا تؤثرن عليهما شيئا ما بقيا .

* * *

قالوا : وعاش قُسّ بن ساعِدَة بن حُذَافة بن زُفَر(١) ، وقيل حذافة بن زُهْر بن إياد بن نزار ثلاثمائة وثمانين سنة ، وقد أدركَ نبيَّنَا عليه السلام ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم حكمته ؛ وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأوّل من توَكّأَ على عصا ، وأوّل من قال ، أما بعد ؛ وكان من حكماء العرب .

وهو أول من كتب من فلان إلى فلان(٢) ، وأول من قال فى كتابه، أما بعد .

زعمت العرب أنه سِبْط من أَسْباطها .

وفيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

[٨١] وَأَحْكَمَ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَأَ مِلَّذِى(٣)
بِذِى الْغِيلِ مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ حَارِدَا(٤)

وقال الحطيئة :

وَأَقْوَلُ مِنْ قُسٍّ وَأَمْضَى إِذَا مَضَى   مِنَ الرُّمْحِ إِنْ مَسَّ النُّفُوسَ نَكَالُهَا(٥)

---

(١) ويقال إنه قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك بن أيدعان بن النمر بن واثلة ابن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمى بن إياد الطشان (جمهرة الأنساب لابن دريد)؛ وحكى غير أبى حاتم فقال : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدى بن مالك .

(٢) وفى النسخة الأخرى إلى فلان بن فلان ، وقد جاء فى هامش النسخة تعليق : قال الخطيب وإن بدأ المكاتب باسم المكتوب إليه ، فقد كره ذلك غير واحد من السلف ، وأجازه بعضهم ، وكان أحمد بن حنبل يستحب إذا كتب الصغير إلى الكبير أن يقدم اسم المكتوب إليه ، وكان رحمه الله يبدأ باسم من يكاتبه كبيرا كان أو صغيرا ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل قال: رأيت أبى إذا كتب يكتب إلى أبى فلان بن فلان من أحمد بن حنبل .

(٣) أى من الذى .   (٤) الحادر المتنحى عن الناس .

(٥) قس هو قس بن ساعدة الإيادى حكيم الجاهليين ، والنكال هو الجبن .

وقُسٌّ الذى يقول :

هَلِ الْغَيْثُ مُعْطِى الْأَمْنَ عِنْدَ نُزُولِهِ　　بِحَالِ مُسِيءٍ فِى الْأُمُورِ وَمُحْسِنِ

وَمَا قَدْ تَوَلَّى فَهو قَدْ فَاتَ ذَاهِباً　　فَهَلْ يَنفَعَنِّى لَيْتَنِى وَلَوَ انَّنِى

قال أبوحاتم : وذكروا أن وَفْد بكر بن وائل قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم، فقال :

— هل فيكم أحدٌ من إيادٍ ؟

قالوا : نعم .

قال : هل لكم عِلْمٌ بِقُسٌ بن ساعدة ؟

قالوا : مات يا رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جمل أحمر(١) ، وهو يقول « أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعُوا ، من عاش مات، ومن مات فات ، وكُلّ ما هو آتٍ آت ؛ ثم قال ، أمّا بعد ، فإن فى السماء لَخبَرًا ، وإن فى الأرض لعبرا ، نُجُومٌ تَغُور ، وبحار تَمُور ولا تغُور ، وسقف مرفوع ، ومِهَادٌ موضوع ، أقسم قُسٌّ قسما بالله وما أَثِم ، لَتَطْلُبُنّ من الأمر شَحَطا ، ولَئِنْ كان بعض الأمر رِضًى إن لِله فى بعضه سَخَطًا ، وما بهذا لَعِباً ، وإن من وراءهذا عَجَبا ، أقسم قُسٌّ قسمابالله وما أَثِم ، إن لله دينا هو أَرْضَى من دين نحن عليه ، ما بالُ الناس يذهبون فلا يرجعون ، أَنعِمُوا فأقاموا ، أو تُرِكوا فناموا ؟ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٨٢] أيضا : وسمعته لَفَظَ بِشِعْر ولسانى لا ينطلق به .

فقال بعضهم : أنا أحفظه يا رسول الله ، فهل ترى عَلَيَّ فيه شيئا ؟

قال: لا ، الشعر كلام ، فحَسَنُهُ حسن ، وقَبِيحُه قَبيح ، فهاتِه .

---

(١) ذكر البغدادى .. على جمل أورق ، والأورق من الإبل ما فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحما ، لا سيرا وعملا .

وذكروا أنه ابن عباس(١) ، فقال وهو يومئذ غلام لم يبلغ ، فأنشده :

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِيـ ... نَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ... لِلْمَوْتِ ، لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ... يَمْضِي الأَصَاغِرُ وَالأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا ... يَنْجُو مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرْ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا ... لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرْ

قال أبوحاتم ، وذكروا أن قوما من إياد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن حِكْمَة قُسّ فأخبروه ، وكان أحسن أهل زمانه موعظة ، وأنشدوه قوله :

يَا نَاعِيَ الْمَوْتِ وَالأَمْوَاتُ فِي جَدَثٍ ... عَلَيْهِمُ مِنْ بَقَايَا بَزِّهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ ، فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ ... كَمَا يُنَبَّهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
حَتَّى يَجِيءَ بِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمُ ... خَلْقٌ مَضَوْا ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ ذَاكَ لَقُوا
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمَوْتَى فِي ثِيَابِهِمُ ... مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الأَوْرَقُ الْخَلَقُ(٢)

قال أبو حاتم ، وذكر حزم بن أبي راشد قال ، أملى عليّ رجل من أهل خراسان من مواعظ قُسّ : « مَطَرٌ ونبَاتٌ ، وآباء وأُمَّهات ، وذَاهِبٌ وآتٍ في أَوانات ، وأموات بعد أموات ، وضوء وظلام [٨٣] ، وليالٍ وأيام ، وغَنِيٌّ وفقير ، وشَقِيٌّ وسعيد ، ومُسِيءٌ ومُحْسِن ، أين الأرباب العَمِلَة (أو قال الفَعَلَة) ، إن لكل عامل عَمَلَه ، كَلّا ، بل هو الله إلهٌ واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعادَ وأَبْدَى ، وإليه المَعَادُ غدا ، أما بعد ، يا معشر إياد ، فأين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين الحسن(٣) الذى لم يُشْكر ، والظلم الذى لم يُنْتَقَم ؟ (أو قال : لم يُنْكَر) ، كلا وربِّ الكعبة ليَعُودَنَّ ما باد ، ولئن ذهب يوما ليعودَنّ يوما » .

* * *

(١) ذكر البغدادى .. فقال أبو بكر : يارسول الله فإنى أحفظه ، ولم يقل ابن عباس .
(٢) الأورق الذى لونه بين السواد والغبرة . (٣) فى رواية أخرى : المعروف .

قالوا : وعاش عوَّام (أو عَرّام)[١] بن المُنْذر بن زُبَيْد بن قيس بن حارثة بن لأم ، وأُدْخِل على عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لِيزَمَّنَ (أى يكتب فى الزَّمْنَى) .

قالوا : وكان عَمّر فى الجاهلية دهرا طويلا .

فقال له عمر : ما زَمَانَتُك هذه ؟

فقال فيما زعم ابن الكلبى ، أخبرنى رجل من بنى قيس بن حارثة أنه قال لعمر ابن عبد العزيز :

وَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَأَدْرَكْتُ أُمَّةً ... عَلَى عَهْدِ ذِى الْقَرْنَيْنِ أَمْ كُنْتُ أَقْدَمَا
مَتَى تَنْزِعَا عَنِّى الْقَمِيصَ تَبَيَّنَا ... جَآجِئَ لَمْ يُكْسَيْنَ لَحْماً وَلَا دَمَا[٢]

***

قالوا : وعاش أَنس بن نُواس بن مالك بن حُبَيْش ، ويقال خُنَيْس ، بن ربيعة الجسْرىّ ، من جَسْر مُحارب دهرا ، ونبتت أسنانه بعد ما سقطت ؛ فقال :

أَصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِ الْبَزُولِ رَبَاعِياً ... وَكَيْفَ الرَّبَاعِى بَعْدَ مَا شُقَّ بَازِلُهْ[٣]
وَيُوشِكُ أَنْ يُلْفَى ثَنِيًّا وَإِنْ يَعُدْ ... إِلَى جَذَعٍ تَشْكَلْ أَخَاكُمْ ثَوَاكِلُهْ[٤]
إِذَا مَا اتَّغَرْنَا مَرَّتَيْنِ تَقَطَّعَتْ ... حِبَالُ الصِّبَا وَانْبَتَّ مِنَّا وَسَائِلُهْ[٥]

***

قالوا : وعاش ثَعْلبة بن كَعْب بن زيد بن عبد الأَشْهل الأَوْسِىّ فيما ذكر [٨٤] ابن الكلبىّ ، عن عبد الحميد بن أبى عَبْس الأنصارى ، عن أَشْيَاخ قومه ثلاثمائة سنة ، وقال غيرهم ، مائتى سنة .

---

(١) قال العمرى : وعرام العين معجمة والراء غير معجمة أحد المعمرين ، وهو الذى يقول : والله ما أدرى ، البيت . (٢) جآجىء جمع جؤجؤ وهو الصدر ، وقيل عظامه ، وهو المراد.
(٣) البعير البزول : هو الذى انشق نابه ذكرا كان أو أنثى ، ويكون ذلك فى السنة التاسعة ، والبعير الرباعى المتاز فى زمن الربيع . (٤) الثنى من الإبل ما استكمل الخامسة وطعن فى السادسة ، والجذع ما استكمل أربعة أعوام ودخل فى الخامسة . (٥) اتغرنا كذا فى الأصل ، وقد ذكر صاحب القاموس أنه لم يسمع « تغر » وإنما تصحف على الخليل وتبعه الجوهرى وغيره ، وأن الصواب نغر ، والتناغر : التناكر .

وقال ثعلبة :

لَقَدْ صَاحَبْتُ أَقْوَامًا فَأَضْحَوا ... خُفَاتًا مَا يُجَابُ لَهُمْ دُعَاءُ
وَقَوْمًا بَعْـدَهُمْ قَدْ نَادَمُونِى ... فَأَضْحَى مُقْفِرًا مِنْهُمْ قُبَاءُ(١)
مَضَوا قَصْدَ السَّبِيلِ وَخَلَّفُونِى ... فَطَالَ عَلَىَّ بَعْـدَهُمُ الثَّـوَاءُ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ رَهِينَ بَيْتِى ... وَأَخْلَفَنِى مِنَ الْمَوْتِ الرَّجَاءُ

قال أبو حاتم ، وقال هشام ، كانت اليهود تسمّى قباء قُبَاذ بالذّال ، فسمّتها الأنصار قباء .

* * *

قالوا : وعاش طيّىء بن أُدَد خمسمائة سنة ، وذكر هشام أنه سمع أشياخا من طيّىء يذكرون ذلك ، وأنه حمل من جَبَلِه باليمن ، وكان يقال له «ظَرِيب» إلى جَبَلَى طيّىء ، فنُسبا إليه ، وأقام بهما حينا ، وقتل العادِىّ الذى كان بالجَبَلَيْن .

وقال طيّىء فى ذلك :

اِجْعَلْ ظَرِيباً كَحَبِيبٍ يُنْسَى ... لِكُلِّ قَوْمٍ مُصْبَحٌ وَمُمْسَى

وأقام بالجَبَلَيْن حتى دفن بهما .

وقال فيما سمعت من أشياخهم :

إِنَّا مِنَ الْحَىِّ الْيمَانِينَا ... إِنْ كُنْتِ عَنْ ذَلِكَ تَسْأَلِينَا
فَقَـدْ ثَوَيْنَا بِظَرِيبٍ حِينَا ... ثُمَّ تَفَرَّقْنَا مُبَاغِضِينَا
لِنِيَّـةٍ كَانَتْ لَنَا شَطُونَا ... إِذْ سَامَنَا الضَّيْمُ بَنُو أَبِينَا(٢)

* * *

قالوا : وعاش يزيد بن جابر بن حُرْثان بن جَزْء بن كعب بن الحارث بن معاوية ابن وائل بن مَرّان(٣) بن جُعْفِىّ خمسين ومائة سنة ؛ وهو القائل :

---

(١) قباء جبل بالمدينة المنورة . (٢) نية شطون أى بعيدة .

(٣) مران كذا ضبطت فى الجمهرة

[٨٥] إِمَّا تَرَيْنِي قَدْ بَلِيتُ وَغَاضَنِي ... زَمَانٌ ، فَقَدْ أَوْدَى أَخُو الْجُودِ حُرْثَانُ
وَأَوْدَى أَبُو جَزْءٍ وَعَمْرٍو كِلَاهُمَا ... وَعَبْدُ يَغُوثٍ قَبْلَ ذَاكَ وَمُرَّانُ
وَأَوْدَى بِشَيْخِي ذِي الْمَهَابَةِ جَابِرٍ ... وَنَالَ نَذِيرًا وَسْطَ أَرْكَاحِ غُمْدَانِ

غُمدان قصر باليمن[1] قال الأصمعيّ : ويقال لفلان ساحة يَتَرَكَّحُ فيها ، ونذير مَلِكٌ ، وأَرْكَاحُ أَفْنِية ، وفاد فلان هلك .

فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلُ مَنْ فَادَ فَاعْلَمِي ... وَلَا تَجْزَعِي ، كُلُّ امْرِئٍ مَرَّةً فَانِي
فَلَوْ أَنَّ حَيًّا سَالِمٌ مِنْ سِهَامِهِ ... لَعَاشَ الأُلَى سَمَّيْتُ مَا عَاشَ إِنْسَانُ

***

قالوا : وعاش هاجر بن عبد العُزّى الخُزَاعِيّ دهرا فيما ذكر ابن الكلبي عن أبى السائب المخزومى قال ، حدثنى به طلحة بن عبيدالله بن كَرِيز الخزاعىّ ، قال غيره ، هو عُمَيْرة بن هاجر بن عُمَيْر بن عبد العُزّى بن قُمَيْر الخزاعىّ ، وهو جدّ عبد الله ابن مالك بن الهيثم بن عوف بن وهب بن عُمَيْرة بن هاجر بن عمير بن عبد العُزّى بن قُمَيْر الخزاعى عاش سبعين ومائة سنة .

وقال :

بَلِيتُ وَأَفْنَانِي الزَّمَانُ وَأَصْبَحَتْ ... هُنَيْدَةُ قَدْ أَنْضَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا عَشْرَا
وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْفَرْخِ لَا أَنَا مَيِّتٌ ... فَأُسْلَى وَلَا حَيٌّ فَأُصْدِرُ لِي أَمْرَا
وَقَدْ كُنْتُ دَهْرًا أَهْزِمُ الْجَيْشَ وَاحِدًا ... وَأُعْطِي ، فَلَا مَنًّا عَطَائِي وَلَا نَزْرَا
وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا تُجِنُّ عَشِيرَتِي ... لَهَا مَيِّتًا حَتَّى أَخُطَّ لَهُ قَبْرَا

***

قالوا : وعاش جليلة بن كعب بن الحارث بن معاوية بن وائل بن مَرّان بن جُعْفِيّ تسعين ومائة سنة فيما ذكر ابن الكلبي عن الوليد بن عبد الله الجُعْفِيّ .

---

(١) يروى المؤرخون القدامى أن الذى بنى القصر هو ليشرح ، وقد بناه بأربعة وجوه ، أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، وأخضر ، وبنى داخله قصرا بسبعة سقوف مرتفعة .

وقال :

وَإِنَّ امْرَأً قَدْ عَاشَ تِسْعِينَ حِجَّـةً إِلَى مِائَةٍ يَرْجُو الْفَــلَاحَ لَجَاهِلُ

[٨٦] يُؤَمِّلُ أَنْ يَبْقَى وَقَدْ مَاتَ ذُو النَّـدَى أَبُوكَ وَأَوْدَى ذُو الحِمَالَةُ وَائِلُ

وَجَارُ الصَّفَا وَالْأَرْقَمَانِ كِلَاهُمَا فَـكَيْفَ تُرَجِّى الْخُلْدَ أُمُّكَ هَابِلُ(١)

فَلَا تَرْجُ عُمْرًا بَعْدَ مَنْ قَالَ إِنَّمَا بَقَاؤُكَ فِي الدُّنْيَا لَيَالٍ قَلَائِلُ(٢)

* * *

قالوا : وعاش كعب بن رداة النخعىّ فيما ذكر ابن الـكلبىّ عن بعض النخعيّين ثلاثمائة سنة ، وقال :

لَقَدْ مَلَّنِي الْأَدْنَى وَأَبْغَضَ رُؤْيَتِي وَأَنْبَأَنِي أَلَّا يَحِلَّ كَلَامِي

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنُوءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

فَيَا لَيْتَنِي قَدْ سِخْتُ فِي الْأَرْضِ قَامَةً وَلَيْتَ طَعَامِي كَانَ فِيــهِ حِمَامِي

* * *

قالوا : وعاش عبد يغوث بن كَعْب بن الرَّداة بن ذُهْل بن كَعْب بن قُعَيْن بن مالك بن النَّخَع بن عمرو بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك بن أُدَد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ سبعين ومائة سنة .

وقال فى ذلك :

بَلِيتُ وَقَدْ كُنْتُ دَهْرًا جَدِيدَا وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا أَبِيًّا جَلِيـدَا

أَبَعْـدَ ثَمَانِينَ أَنْضَيْتُهَا وَتِسْعِينَ يَا سَلْمَ أَرْجُو الْخُلُودَا

وَمَاتَ أَبِي وَأَبُو وَالِدِي وَذُهْلٌ فَأَصْبَحْتُ مِنْهُمْ وَحِيدَا

* * *

---

(١) الأم الهابل أى الثكلى ، والهبل : الثكل ، والأرقمان مثنى أرقم ، وهو حى من قبيلة تغلب . (٢) فاد يفيد أى مات .

قالوا : وعاش رجل من أَسْلَم ، ويقال هو أَوْس بن ربيعـــة بن كَعْب بن أُمَيّة الأسلمىّ مائتى سنة وأربع عشرة سنة .

وقال فى ذلك :

لَقَدْ خُلِّفْتُ(١) حَتَّى مَلَّ أَهْلِى ثَوَائِى فِيهِمُ ، وَسَئِمْتُ عُمْرِى
وَحُقَّ لِمَنْ أَتَتْ مِائَتَـيْنِ عَامٍ عَلَيْهِ وَأَرْبَـعٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرِ
[٨٧] يَمَـلُّ مِنَ الثَّوَاءِ وَصُبْحُ يَوْمٍ يُغَادِيهِ ، وَلَيْـلٌ بَعْـدُ يَسْرِى
فَأَبْلَى جِدَّتِى وَبَقِيتُ شِلْوًا(٢) وَبَاحَ بِمَا أُجِنُّ ضَمِيرَ صَدْرِى

* * *

قالوا : وعاش حارثة بن عبيد الـكلبىّ ، ومن ولده بطونٌ ، مَنْظور ، ومَنْصور ابن جُمْهورٍ من بنى حارثة ، وأدرك الإسلام ، وقد حُجِب دهرا طويلا .

قال أبو حاتم ، قال هشام ، وكذا كانت العرب تفعل بالـكبير منهم تَحْجُبُه(٣) .

قال هشام : وقال لى شَمْلَةُ بن مُغيث ، رجل من ولده ، قال ، أظنه عاش خمسمائة سنة ، قال ، وأنشدنى شَمْلَةُ له :

أَلَا يَا لَيْتَنِى أَنْضَيْتُ عُمْرِى وَهَلْ يُجْدِى عَلَىَّ الْيَوْمَ لَيْتِى

---

(١) فى رواية أخرى . عمرت . (٢) الشلو بقية الشىء ، والمشلى من الرجال الخفيف اللحم.

(٣) جاء فى كتاب الوصايا رواية عن أبى حاتم تحت عنـوان ، وصية أبى جهم بن حذيفة العدوى ، قال أبو حاتم ، وحدثنا الثقة عن أبى يعقوب الثقفى عن عبد الملك بن عمير اللخمى قال : جاء أبو جهم بن حذيفة العدوى ، وهو يومئذ ابن مائة سنة إلى مجلس القريش ، فأوسعوا له عن صدر المجلس ، وقائل يقول بل كان عروة بن الزبير ، فقال أبو جهم : يا بنى أخى أنتم خير لـكبيركم من مهرة لـكبيرهم . قالوا : وما شأن مهرة وكبيرهم ؟ قال : كان الرجل منهم إذا أسن وضعف أتاه ابنه أو وليه فعقله بعقال ، ثم قال : قم ، فإن استتم قائما ، وإلا حمـلهُ إلى مجلس لهم يجرى على أحدهم فيه رزقه حتى يموت .

فجاء شاب منهم إلى أبيه ، ففعل ذلك به ، فلم يستتم قائمـا ، فحمله ، فقال ، يا بنى ، أين تذهب بى ؟ قال . إلى سنة آبائك ، فقال : يابنى لا تفعل ، فوالله لقد كنت تمشى خلفى فما أخلفك، وأماشيك فما أبذك (أى أسبقك) وأسقيك الدواية (أى اللبن) قائما ، وكانت العرب تقول إذا أسقى الغلام اللبن قائما كان أسرع لشنابه . فقال : لا جرم ألا أذهب بك ، فاتخذته مهرة سنة .

حَنَتْنِى حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى ... بَقِيتُ رَذِيَّةً فِى قَعْرِ بَيْتِى
تَأَذَّى بِى الْأَقَارِبُ إِذْ رَأَوْنِى ... بَقِيتُ ، وَأَيْنَ مِنِّى الْيَوْمَ مَوْتِى

***

قالوا : وعاش حارثة بن مُرّة بن حارثة بن عبد رُضا بن جُبَيْل الـكلبىّ خمسين ومائة سنة ، وأصابتهم سنةٌ أجحفتْ بأموالهم . فقال :

لَمْ يَدَعِ الدَّهْرُ لَنَا ذَخِيرَهْ
وَلَمْ يَدَعْ شَحْماً وَلَا مَرِيرَهْ
وَلَا لَنَا حَامٍ وَلَا بَحِيرَهْ
وَشَيَّبَ الْعَارِضَ وَالْغَدِيرَه
فَصِرْتُ كَالنَّسْرِ عَلَى الْجَذِيرَهْ
بُرَاضَةً مِنْ عُمُرٍ يَسِيرَهْ

الجذيرة أصل حائط أو بناء ، وجَذْرُ كل شىء أصله ، بُرَاضَةٌ بَقِيَّة ، ويقال تَبَرَّضْتَ الماء وغيرَه إذا أخذت بَقِيَّتَه .

***

قالوا : وعاش المِسْجاح(١) بن خالد بن الحارث بن قيس بن نصر [٨٨] بن عائذة ابن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبَّة حتى هرم ، ومَلّ من الحياة .

وزعموا أنه قال :

لَقَدْ طَوَّفْتُ فِى الْآفَاقِ حَتَّى ... بَلِيتُ وَقَدْ أَنَى لِى لَوْ أَبِيدُ
وَأَفْنَانِى وَمَا يَفْنَى نَهَارٌ ... وَلَيْلٌ كُلَّمَا يَمْضِى يَعُودُ
وَشَهْرٌ مُسْتَهِلٌّ بَعْدَ شَهْرٍ ... وَحَوْلٌ بَعْدَهُ حَوْلٌ جَدِيدُ
وَمَفْقُودٌ عَزِيزُ الْفَقْدِ تَأْتِى ... مَنِيَّتُهُ وَمَأْمُولٌ وَلِيدُ

***

(١) فى رواية أخرى : المسحاج ، وصوابه ما ذكر قاله المرزبانى ، وجاء فى كتاب الجمهرة لابن دريد : مسحاج بن سباع كان من المعمرين ، وهو غيره .

قالوا : وعاش القدار العنزى مائتى سنة فيما ذكر ابن الكلبى عن خِراش ، قال، حدثنى به قوم من عنزة ، وقال :

رُبَّ حَىٍّ رَأَيْتُهُمْ وَرَأَوْنِى ثُمَّ قَالُوا ، مَتَى يَمُوتُ قُدَارُ
رُبَّ نَهْبٍ حَوَيْتُه مَلْثَ اللَّيْـ لِ ظَلَامًا تَزِينُهُ الْأَبْكَارُ(١)
وَجِيَادٍ كَأَنَّهَا قُضُبُ الشَّوْ حَطِ، تُزْجَى أَمَامَهُنَّ الْعِشَارُ(٢)
ذَاكَ دَهْرٌ أَفْنَيْتُه وَتَعَرَّتْـ نِى لَيَالٍ يُنْضِينَنِى وَنَهَارُ(٣)

***

قالوا : وعاش ربيعة بن عبد الله البَجَلِىّ تسعين ومائة سنة .

قال أبو حاتم ، قال ابن الكلبىّ حدثنى به عُلَيل بن مُحَمّد البجلىّ ، وقال :

أُمَيْمَ أُمَيْمَ قَدْ أَوْدَى شَبَابِى وَأَخْلَفَنِى الْبَطَالَةُ وَالتَّصَابِى
وَقَدْ ذَهَبَ الَّذِينَ وُلِدْتُ فِيهِمْ وَقَدْ رَحَلَتْ لِشُقَّتِهِمْ رِكَابِى
وَسَلْهَبَةٍ(٤) وَهَبْتُ لِغَيْرِ صِهْرٍ فَلَمْ أَبْكُرْ أُمَيْمَ عَلَى الثَّوَابِ

***

قالوا : وعاش الحارث بن حبيب الباهِلىّ من بنى أَوْد بن مَعْن(٥) ستين ومائة سنة فيما ذكر هشام عن طارق بن حَمْزة [٨٩] الغَنَوِىّ عن رجل من باهِلَة ، كان عالما .

وقال الحارث :

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ تَائِهٍ فَدَيْتُهُ وَمِنْ كَمِىٍّ مُعْلِمٍ أَرْدَيْتُهُ(٦)
وَمُسْرِعٍ بِسَرْوِهِ جَازَيْتُهُ وَمُبْطِئٍ بِرِفْدِهِ كَفَيْتُهُ(٧)
وَمُعْلِنٍ بِضِغْنِهِ كَوَيْتُهُ لَوْ كَانَ يُشْرَى الْمَوْتُ لَاشْتَرَيْتُهُ

(١) ملث الليل أى حين اختلاط الظلام قبل اشتداده ، ويستعمل ظرفا واسما .

(٢) الشوحط شجر الأرز وتتخذ منه القسى . (٣) أنضى الثوب أى أبلاه وأخلقه بكثرة اللبس ، والمعنى تحزننى . (٤) السلهبة من النساء : الجسيمة ، وليست بمدحة .

(٥) هو الحارث بن حبيب بن كعب بن أدد بن معن بن مالك بن أعصر جاهلى قديم، ذكره ابن أبى طاهر ، قاله المرزبانى فى معجم الشعراء له . (٦) الكمى المعلم هو الشجاع لابس السلاح .

(٧) السرو المروءة فى شرف ، والرفد العطاء .

أ

وقال الحارث :

أَلَا هَــلْ شَبَابٌ يُشْتَرَى بِرَغِيبِ ... يُدَلُّ عَلَيْــهِ الحارثُ بنُ حَبِيبِ

فَمَنْ لِاسْوِدَادِ الرَّأْسِ بَعْدَ ابْيِضَاضِهِ ... وَمَنْ لِقَوَامِ الصُّلْبِ بَعْدَ دَبِيبِ

* * *

قالوا : وعاش حاملُ بن حارثة بن عمرو بن مالك بن عُكْوَة[1] ثلاثين ومائتى سنة، قال ، حدثنا شيخ من بنى عُكْوَة من طيّئ ، وكان حامل يرحل إلى الملوك فى قومه ، فقال حين بلغ ثمانين ومائة سنة :

أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أَغْنَ فِي النَّاسِ سَاعَةً ... وَلَمْ أَلْقَ أَيَّامًا تُشِيبُ الحَزَوَّرَا[2]

أَبَعْدَ الْأُلَى مِنْ آلِ عُكْوَةَ قُدِّمُوا ... كِرَامًا وَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ مُؤَخَّرَا

أُرَجِّى خُلُودًا بَعْدَ تِسْعِينَ حِجَّــةً ... وَتِسْعِينَ أُخْرَى، لَا سُقِيتُ الْكَنَهْوَرَا

الكنهورُ سَحَابَةٌ[3] .

* * *

قالوا ، وعاش عمرو بن مُسَبِّح الطائى ، ثم أحد بنى مَعْن فيما زعموا حتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خمسين ومائة سنة ، وله يقول امرؤ القيس :

رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثُعَلٍ ... مُتْلِجٍ كَفَّيْهِ [مِنْ] قُتَرِهِ[4]

ومات فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو القائل :

لَقَدْ عُمِّرْتُ حَتَّى شَقَّ عُمْرِي ... عَلَى عُمْرِ ابن عُكْوَةَ وابنِ وَهْبِ

[٩٠] وَعُمْرِ الْحَنْظَلِيِّ وَعُمْرِ سَيْفٍ ... وَعُمْرِ ابن الرَّدَاة قَرِيعِ كَعْبِ

* * *

قالوا : وعاش عبّاد بن سعيد ، أو سعيد بن أحمر بن ثور بن خِداش بن السَّكْسَك ابن أَشْرَس بن كِندة ثلاثمائة سنة فيما زعم ابن الكلبىّ عن فروة بن سعيد الكندىّ.

(١) .. بن ثعلبة بن جدعاء بن رومان بن جندب. (٢) الحزور : الغلام الذى قد شب وقوى.
(٣) الكنهور : السحاب المتكاثر ، أخذ من الكهر ، وهو غلظ الوجه ، والنون والواو فى الكنهور زائدتان . (٤) التلج الإدخال ، والقتر : ضيق العيش ؛ وفى الأصل (من قتره) .

وقال :

بَلِيتُ وَأَفْنَتْنِى السِّـنُونَ وَأَصْبَحَتْ ... لِدَاتِى نُجُومُ اللَّيْـلِ وَالْقَمَرُ وَالْبَدْرُ
ثَلَاثُ مِئِـينَ قَدْ مَرَرْنَ كَوَامِلًا ... فَيَا لَيْتَنِى ثَوْرٌ لِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ(١)

***

قالوا : وعاش عَوْف بن الأَرْدَم(٢) بن غالب دَهْرا طويلا ، ثم أدرك الفِجارَ وبعد ذلك ، فيما زعم مَعْرُوف بن الخَرَّبُوذِ ، وقال :

أَوْدَى الشَّبَابُ ، وَحُبُّ الطَّلَّةِ(٣) الْخَبِلَهْ(٤)
وَقَدْ بَرِئْتُ فَمَا فِى الصَّـدْرِ مِنْ قَلَبَهْ
وَقَدْ تَفَـلَّلَ أَنْيَابِى وَأَدْرَكَنِى ... قِرْنٌ عَلَىَّ شَدِيدٌ فَاحِشُ الْغَلَبَهْ(٥)
وَقَدْ رَمَانِى بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ ... فِى الْمَنْـكِبَيْنِ وَفِى الرِّجْلَيْنِ وَالرَّقَبَهْ(٦)

قال أبو حاتم ، هذا الشعر للنَّمِر بن تَوْلَب ، أنشدنا الأصمعى :

أَوْدَى الشَّبَابُ وَحُبُّ الْخَالَةِ الْخَبِلَهْ(٧)

والخالة قوم ذوو خيلاء ، قال الأصمعى :

وَقَدْ رَمَى بِسُرَاهُ الْيَوْمَ مُعْتَمِدًا ... فِى الْمَنْـكِبَيْنِ وَفِى السَّاقَيْنِ وَالرَّقَبَهْ

السُّرَى جمع سِرْوَة ، وهو سهم صغير .

***

قالوا : وعاش الحارث بن التَّوْأَم اليشكرىّ دهرا فى الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ولا يعقِل ، فقال فيما زعم الـكلبىّ عن خِراش :

---

(١) المقصود من ثور هو جبل ثور بمكة ، وهو الذى فيه الغار المذكور فى التنزيل الـكريم .
(٢) على هامش النسخة تعليق بغير خط الناسخ جاء فيه : ليس للأردم ولد من عوف ، إنما من ولد الأردم عوف بن دهر بن تيم بن غالب ، وهو شاعر . (٣) الخمر اللذيذة .
(٤) الخبال : الفساد ، ويكون فى الأفعال والأبدان والعقول .
(٥) تفللت الأنياب أى كسرت حروفها فانفرجت ، والمراد من القرن الدهر .
(٦) المنكب : مجتمع رأس الـكتف والعضد من الذراع . (٧) الخبله أى الخبال . وهو الجنون.

زَعَمَتْ ثُمَامَــةُ أَنَّنِي قَدْ سُؤْتُهَا وَلَقَدْ أَنَى لِيَ أَنْ أَسُوءَ وَأَكْبَرَا(١)
[٩١] إِنَّ الكَبِيرَ إِذَا يُشَافُ رَأَيْتَهُ مُقْرَنْشِماً ، وَإِذَا يُهَانُ اسْتَزْمَرَا(٢)
وَإِذَا تَرَحَّلَ فِي الرَّعِيَّـةِ خِلْتَهُ كَسِلًا ، وَعَــزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَذَّرَا
وَإِذَا تَرَاءَى القَوْمُ شَخْصًا خَالَهُ شَخْصَيْنِ ، ثُمَّتَ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَبْصَرَا(٣)
وَلَقَــدْ رَأَيْتُ أَبَاكَ وَهُوَ وَلِيـدُهُ وَأَبَاهُ شَيْخًا مِنْ بُنَانَةَ أَعْسَرَا
يَدْعُو بِبَرْدِ الْمَاءِ وَهُوَ قُصَارُهُ فَإِذَا سَقَوْهُ الْمَاءَ مَجَّ وَغَرْغَرَا(٤)

قال : رأى أباها وهو صغير ، ثم عُمِّر بعد ، وقوله يُشاف يُزَيَّنُ ، مُقْرَنْشِع، نشيط حسن الهيئة ، وإذا يهان استزمر أى تقبّض ، والزمرُ الشعر القليل .

* * *

قالوا : وعاش الجرنفشُ بن عَبَدَة الطائيّ ثلاثين ومائة سنة ، وقال :

إِمَّا تَرَيْنِي لَا أُعِينُ عَلَى النَّدَى وَلَا أَنْصُرُ الْمَوْلَى كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ
وَأَصْبَحْتُ أَعْمَى قَاعِدًا مُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُتَوَكِّلُ
فَحَقُّ امْرِئٍ قَدْ سَارَ حَتَّى تَخَرَّمَتْ هُنَيْدَةُ حَقًّا أَنْ يُنِيخَ بِمَنْزِلِ(٥)

* * *

قالوا : وعاش سَمْنَة بن سلامة بن الحارث بن امرئ القيس بن زُهَير بن جَناب حتى كبر واختلط عقله ، فترك الغزْوَ بهم ، وكان يَظعَنُ معه قومه إذا ظعَن ، ويُقيمون إذا أقام .

فقال يذكر ما كان يصنع قومه :

---

(١) أنى الشيء أنيا وأناء وإنى بالكسر ، وهى أنى كغنى حان وأدرك .
(٢) جاء فى أساس البلاغة : واستزمر فلان عند الهوان صار قليلا ضئيلا .
(٣) الشخص : سواد الإنسان وغيره تراه من بعد .
(٤) الغرغرة : ترديد الماء فى الحلق ، وصوت معه بح .
(٥) أقوى الشاعر فى هذا البيت، والإقواء هو اختلاف حركة الروى ، وهو الحرف المتحرك فى القافية ، وتخرمت هنيدة أى انقضت مائة عام . والإناخة هى الإبراك .

لَقَدْ عَمِرْتُ زَمَانًا مَا يُخَالِفُنِي
قَوْمِي ، إِذَا قُلْتُ جِدُّوا سَيْرَكُم سَارُوا(١)
وَإِنْ أَرَدْتُ مُقَامًا قَالَ قَائِلُهُمْ يَا سَعْنَةَ الْخَيْرِ قَدْ قَرَّتْ بِنَا الدَّارُ(٢)
فَإِنْ بَلِيتُ لَقَدْ طَالَتْ سَلَامَتُنَا وَالدَّهْرُ قِدْمًا لَهُ صَرْفٌ وَإِصْرَارُ(٣)

* * *

[٩٢] قالوا : وعاش سِنان بن وَهْب بن تَيْم الأَرْدَم بن غالب بن فِهْر دَهْرًا طويلا فيما ذكروا عن معروف بن الخَرَّبُوذ ، وأنشأ يقول :

لَقَدْ عُمِّرْتُ حَتَّى صِرْتُ كَلًّا مُقِيمًا ، لَا أَحُلُّ وَلَا أَسِيرُ(٤)
وَكَيْفَ بِمَنْ أَتَتْ مِائَتَانِ عَامٍ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَكِيرُ
فَإِنْ يَكُنِ الشَّبَابُ مَضَى حَمِيدًا وَشَيَّبَ لِمَّتِي الدَّهْرُ الْخَتُورُ(٥)
عَمِرْتُ بِبَلْدَحٍ عُمْرًا طَوِيلًا وَلَيْسَ بِبَلْدَحٍ إِلَّا الصُّخُورُ(٦)
تَأَذَّى بِي الْأَقَارِبُ بَعْدَ أُنْسٍ كَأَنِّي فِيهِمُ فَرْخٌ شَجِيرُ(٧)
فَلَمْ أَكُ نَأْنَأً يَا أُمَّ عَمْرٍو إِذَا نَزَلَتْ بِسَاحَتِيَ الْأُمُورُ(٨)

* * *

قالوا : وعاش المجزم بن بكر بن عمرو بن عوف بن عُباد بن الحارث بن سامة بن لُؤَيّ دهرا طويلا ، وكان من دَعَامِيصِ العرب ، أي يهتدى للأمور الخفية الدقيقة ويحتال لها .

وقال باعث بن حُوَيْص بن زيد بن عمرو الطائيّ :

أَلَا لَيْتَنِي عُمِّرْتُ يَا أُمَّ حَشْرَجٍ كَعُمْرِ أَخِي نَجْرَانَ أَوْ عُمْرِ مِجْزَمِ(٩)

(١) المراد أن رأيه صائب وقوله مطاع .
(٢) السعنة المباركة الميمونة أو المشئومة من الأسماء الأضداد ، وهو اسم .
(٣) وفى بعض الروايات وإمرار ، والإصرار : الشدة . (٤) الكل بالفتح : ثقيل الحركة الذى لا خير فيه . (٥) الختور : الغادر الخداع ، واللمة الشعر المجاوز شحمة الأذن .
(٦) بلدح : مكان فى طريق التنعيم . (٧) الفرخ : ولد الطائر ، وقد استعمل فى كل صغير من الحيوان والنبات والشجر . (٨) رجل نأنأ : عاجز جبان ضعيف .
(٩) نجران : اسم وهو نجران بن زيدان بن سبأ ، ومجزم اسم أيضا .

لَقَــدْ عُمِّــرَا دَهْرَيْهِمَا فِي رَبِيلَةٍ وَفِي ظِلِّ عَيْشٍ مِنْ لَبُوسٍ وَمَطْعَمِ (١)
وَأَفْنَاهُمَا دَهْـــرٌ طَوِيلٌ فَأَصْبَحَا أَحَادِيثَ طَسْمٍ أَوْ أَحَادِيثَ جُرْهُمِ

حدثنا أبو حاتم قال ، وذكر الكلبي عن رجل من قريش قال ، كان رجل من بنى عُذْرة قد طال عمره حتى كبر ابن ابنة له ، وكان عالما بقومه ، وكان يُغْشَى للطعام والعلم ؛ فشكا الدهر وتصرفه .

فقال له ابن ابنته : كم أتى لك يا جدُّ ؟

قال : لا أُحَقُّ ذلك يا بنى ، ولكنى [٩٣] عققت عن أبيك وأنا ابن ثلاث وتسعين ، وعاش أبوك خمسا وثمانين ، وقد مات منذ ثمانين .

فقال : لقد شكوتَ الدهر وما كان ينبغى لك أن تشكوه وقد بلغتَ هذه السن .

وأنشأ ابن ابنته يقول :

إِنْ تَكُ قَدْ بَلِيتَ فَبَعْدَ قَوْمٍ طِوَالِ العُمْرِ قَدْ بَادُوا بَقِيتَا
فَزَادُكَ فِي حَيَاتِكَ لَا تَضَعْهُ كَأَنَّكَ عِنْدَ مَوْتِكَ قَدْ أُتِيتَا
فَإِنَّكَ إِذْ خُلِقْتَ خُلِقْتَ عَبْدًا إِلَى أَجَلٍ تُجِيبُ إِذَا دُعِيتَا
مُقَــدَّرَةً بِعِيشَتِكَ اللَّيَالِي إِذَا وُفِّيتَ عِدَّتَهَا فَنِيتَا
كَأَنَّكَ وَالْخُطُوبُ لَهَا سِهَامٌ مُقَــدَّرَةٌ بِسَهْمِكَ قَدْ رُمِيتَا

أخبرنا أبو رَوْق أحمد بن محمد بن بكر الهِزّانىّ قال ، أخبرنا أبو حاتم قال ، قال هشام ، حدثنا بكّار بن نافع اللؤلؤىّ قال ، قال نصر بن الحجاج بن عِلاط السُّلَمِىّ لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه :

إِذَا مِتُّ مَاتَ الْجُودُ وَانْقَطَعَ النَّدَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدِ (٢)
وَجَفَّتْ أَكُفُّ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِخِلْفٍ مُجَدَّدِ

فلما سمع معاوية الشعر قال لابنة قَرَظَة ، وهى تبكى ، اسمعى إلى مَرْثِيَتِى وأنا حىّ .

* * *

(١) الربيلة : النعمة . (٢) التصريد هو التقليل .

قالوا : وعاش صَرْمٌ ، ويقال صَوْمٌ ، بن مالك الحضرمىّ قريبا من مائتى سنة فيما ذكروا عن سعيد بن عبد الجبار بن وائل الحضرمى .

وقال :

إِنْ أُمْسِ كَلًّا لَا أُطَاعُ فَرُبَّمَا ... سُقْتُ الْكَتَائِبَ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبَا(١)
وَلَرُبَّ كَبْشِ كَتِيبَةٍ لَاقَيْتُهُ ... فَطَعَنْتُهُ حَتَّى أُوَارِى الثَّعْلَبَا(٢)
[٩٤] أَجْرَرْتُهُ رُمْحِى فَخَرَّ لِوَجْهِهِ ... مَا إِنْ يُجِيبُ إِذَا دَعَا الْمُسْتَصْحِبَا
فِى فِتْيَةٍ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ أَعِزَّةٍ ... لَا يَنْكُلُونَ إِذَا الْمُنَادِى ثَوَّبَا(٣)

***

قال أبو حاتم ، قال خالد بن سعيد عن أبيه قال ، دخل أُدْهَمُ بن مُحْرِزٍ الباهلىّ أبو مالك بن أدهم على عبد الملك ورأسه كالثَّغامة ، فقال ، لو غيَّرْت هذا الشَّيْب .

فذهب فاختضب بسواد ، ثم دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قلت بيتا لم أقل بيتا قبله ، ولا أرانى أقول بعده .

قال : هاتِ .

فأنشأ يقول :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ شَيْنًا لِأَهْلِهِ ... تَفَتَّيْتُ وَابْتَعْتُ الشَّبَابَ بِدِرْهَمِ(٤)

***

قال أبو حاتم ، وذكروا عن أبى مِسْكين قال : عُمِّرَ رجل من بَلِىّ ، يقال له النعمان ، دَهْرًا ، فقال :

تَهَدَّلَتِ الْعَيْنَانِ بَعْدَ طُلَاوَةٍ ... وَبَعْدَ رِضًى ، فَأَحْسَبُ الشَّخْصَ رَاكِبَا(٥)

---

(١) الكلال : شديد الضعف ، والكتائب جمع كتيبة وهى الجيش . (٢) الثعلب طرف الرمح الداخل فى جبة السنان منه أى قصبته ، والكبش هو السيد من القوم وقائدهم ، وهو الحمل إذا أثنى ، أو إذا خرجت رباعيته . (٣) نكل نكولا بالفتح نكص وجبن ، والتثويب المناداة والدعاء . (٤) تفتى الشيخ الشيب إذا تغالب عليه . (٥) الطلاوة هى الحسن والبهجة ، وتهدل العينين معناه استرخاء جفونهما إلى أسفل .

وَأَبْعِدُ مَا أَنْكَرْتُ كَىْ أَسْتَبِينَهُ ... فَأَعْرِفُهُ وَأُنْكِرُ الْمُتَقَارِبَا

***

حدثنا أبو حاتم قال ، قال هشام وأخبرنى غير واحد من تميم قالوا : كانت الإتاوة من مُضَر فى الكُبْر والقُعْدُد[1] فى النسب ، فصارت إلى بنى عمرو بن تميم ، فوليها ربيعة بن عُزَىّ بن بُزَىّ الأُسَيْدِىّ حتى جَبَى إتاوة مضر ، فطال عمره ، وهو أبو الحفّاد ، وهو القائل :

يَا أَبَا الْحُفَّادِ أَفْنَاكَ الْكِبَرْ

والإتاوة خراج كان عليهم .

***

قال : وقال أبو الحسن المدائنى ، أنشدنى أبو الشَّمَّاخ بن الشِّمْراخ الطائىّ :

[٩٥] مَا بَالُ شَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ ... أَبْلَى ثَلَاثَ عَمَائِمٍ أَلْوَانَا[2]
سَوْدَاءَ دَاجِيَةً وَسَحْقَ مُفَوَّفٍ ... وَأَجَدَّ لَوْنًا بَعْدَ ذَاكَ هِجَانَا[3]
ثُمَّ الْمَمَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ... وَكَأَنَّمَا يُعْنَى بِذَاكَ سِوَانَا

قال : وكانت العمامة تُلْبَس أربعين سنة فكأنه عاش عشرين سنة ومائة سنة . وقال آخرون : إنما عنى أنه كان شابا ، وذلك قوله سَوْدَاءَ دَاجِيَةً ، ثم أخلس وابيض بعض رأسه ولحيته ، وذلك قوله ، وسَحْق مُفوَّف ، ثم عاد رأسه كأنه ثغامة ، فذلك قوله وأَجَدَّ لَوْنا بعد ذاكَ هِجانا ، والهِجان البياض .

***

وزعم العُمَرِىّ عن عَطاء بن مُصْعَب قال ، حدثنى عُبَيد بن أبان النُّمَيْرى قال ، قدم فَضَالة بن زيد العَدْوانىّ على معاوية ، فقال له معاوية :

— كيف أنت والنِّساء يا فضالة ؟

---

(١) الكبر : الرفعة ، والقعدد : قريب الآباء من الجد الأكبر .

(٢) تخدد اللحم إذا هزل ونقص . (٣) المفوف : الثوب الرقيق ، وهو الزهر على سبيل التشبيه ، والأرض الهجان البيضاء والمراد اللون الأبيض .

فقال : ياأمير المؤمنين ،

لَا بَاهَ لِي إِلَّا الْمُنَى وَأَخُو الْمُنَى جَدِيرٌ بِأَنْ يُلْحَى ابنَ حَرْبٍ وَيُشْتَمَا

[الرواية ، ولا قَمْطَ لى ، والقَمْط الجماع ، ومن قال باهَ فقد أخطأ ، لأن الباءة ممدودة ، وهى تاء فى الإدراج] .

وَفِيمَ تَصَابِى الشَّيْخِ وَالدَّهْرُ دَائِبٌ بِعِبْرَاتِهِ يَلْحُو عُرُوقًا وَأَعْظُمَا

رَمَتْنِى صُرُوفُ الدَّهْرِ حَتَّى تَرَكْنَنِى أَجَبَّ السَّنَامِ بَعْدَ مَا كُنْتُ أَيْهَمَا(١)

فَخِلْتُ سُهُولَ الْأَرْضِ وَعْثًا وَوَعْثَهَا سُهُولاً ، وَقَدْ أُجْرِرْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَا(٢)

وَكَانَ سَلِيطًا مِقْوَلِى مُتَنَاذِرًا شَذَاهُ، فَصِرْتُ الْيَوْمَ مِلْعِىٍّ أَبْكَمَا(٣)

كَذَلِكَ رَيْبَ الدَّهْرِ يَتْرُكُ سَهْمُهُ أَخَا العِزِّ وَالْأَدَّ الذَّلِيلَ الذَّمَّمَا

[٩٦] الأد الأيد ذو القوة [ومِلْعِىّ من العِىّ] .

وَحَرْبٍ يَحِيدُ الْقَوْمُ عَنْ لَهَبَاتِهَا شَهِدْتُ ، فَكُنْتُ الْمُسْتَشَارَ الْمُقَدَّمَا

تَوَسَّطْتُهَا بِالسَّيْفِ إِذْ هَابَ حَمْيَهَا الـ ـكُمَاةُ ، فَلَمْ يَغْشَوا مِنَ الْحَرْبِ مُعْظَمَا

فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَوْتَ أَلْقَى بَعَاعَهُ(٤) عَلَىَّ تَعَمَّدْتُ امْرءًا كَانَ مُعْلَمَا

فَيَمَّمْتُ سَيْفِى رَأْسَهُ وَتَرَكْتُهُ يَهِرُّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ أَفْضَحَ قَشْعَمَا(٥)

نَفِدْتُ فَمَا لِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنَّنِى أَجُودُ ، إِذَا سِيلَ الْبَخِيلُ فَهَمْهَمَا(٦)

وَأَبْذُلُ عَفْوًا مَا مَلَكْتُ تَكَرُّمًا وَأَجْبُرُ فِي اللَّأْوَاءِ كَلًّا وَمُعْدِمَا(٧)

فقال له معاوية : كم أتت لك من سنة يا فضالة ؟

قال : عشرون ومائة سنة .

---

(١) الأيهم : الشجاع ، والسنام الأجب المقطوع الذى أكله الرحل .

(٢) إجرار اللسان : منعه من الكلام ، مأخوذ من إجرار الفصيل ، وهو أن يشق لسانه ويشد عليه عود لئلا يرتضع (٣) السليط : الشديد ، واللسان الطويل ، وشذا بالخبر : إذا أعلمه فأفهمه ، وتناذر القوم إذا أنذر بعضهم بعضا . (٤) البعاع : الثقل .

(٥) القشعم : المسن وهو صفة ، والأفضح : الضعيف ، وهره إذا كرهه ، والمعنى أن الذئب المسن الضعيف الذى لا يقوى على الصيد يكره أن يأكل من جسد من يقتله .

(٦) سيل : سئل . (٧) اللأواء : المشقة والشدة .

قال : فأىّ الأشياء بك منذ كنتَ بها أسرّ ، وأى شىء بوقوعه كنت أشدّ اكتئابا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، لم يقطع الظَّهْرَ قطعَ الولد شىء ، ولا دفع البلاء والمصائب مثل إفادة المال ، والله يا أمير المؤمنين إن المال ليقع من القلب موقعا ما يقعه شىء ، وإن الولد الصالح لبمثل منزلة المال ، ولكن للمال فضيلة عليه ، وإن كان طلب المال إنما يجمعه لولده ، فإنه آثر عنده منه ، لأنه قد يمنعه المالَ إذا طلبه منه ، وإن كان يثمّره له فهو أَحْلَى متاعِ الدنيا عند أهل الدنيا .

فقال معاوية : ليس كل أحد على رأيك ، للمال حال ، والولد حَبَّةُ القلب ووَتِد النفس ، وقُطْبة العيش ، لا خير فى المال لمن لا وَلَد له إلا أن يكون مالاً ينفقه فى سبيل الله .

فقال فضالة : يا أمير المؤمنين ،

[٩٧] وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا الْمَالُ فَاحْفَظْ فُضُولَهُ
وَلَا تُهْلِكَنهُ فِى الضَّلَالِ فَتَنْدَمِ
فَإِنِّى وَجَدْتُ الْمَالَ عِزًّا إِذَا الْتَقَتْ ... عَلَيْكَ ظِلَالُ الْحَرْبِ تُرْهِمُ بِالدَّمِ (١)
إِذَا جَلَّ خَطْبٌ صُلْتَ بِالْمَالِ حَيْثُمَا ... تَوَجَّهْتَ مِنْ أَرْضَى فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ (٢)
وَهَابَكَ أَقْوَامٌ وَإِنْ لَمْ تُصِبْهُمُ ... بِنَفْعٍ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُحْمَدْ وَيُكْرَمِ
وَتُعْطِى الَّذِى يَبْغِى وَإِنْ كَانَ بَاخِلًا ... بِمَا فِى يَدَيْهِ مِنْ مَتَاعٍ وَدِرْهَمِ
وَفِى الْفَقْرِ ذُلٌّ لِلرِّقَابِ وَقَلَّ مَا ... رَأَيْتَ فَقِيرًا غَيْرَ نِكْسٍ مُذَمَّمِ (٣)
يُلَامُ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ بِكَفِّهِ ... وَيُحْمَدُ آلَاءُ الْبَخِيلِ الْمُدَرْهَمِ (٤)
كَذَلِكَ هٰذَا الدَّهْرُ يَرْفَعُ ذَا الْغِنَى ... بِلَا كَرَمٍ مِنْهُ وَلَا بِتَحَلُّمِ
وَلٰكِنْ بِمَا حَازَتْ يَدَاهُ مِنَ الْغِنَى ... يُصِيرُ أَمِيرًا لِلَّئِيمِ الْمُلَطَّمِ

(١) الرِهمة بالكسر : المطر الخفيف الدائم ، والمراد تدفق الدم من قتلى الحرب باستمرار .
(٢) المراد من الفصيح أرض العرب . (٣) النكس : التعاسة .
(٤) آلاء البخيل هى عطاياه .

فقال معاوية : قاتل الله أخا بنى أُسَيِّد حين يقول :

بَنِى أُمِّ ذِى الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ ... وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الأَمْرِ جَحْفَلَا(١)
وَهُمْ لِمُقِلّ الْمَالِ أَوْلَادُ عَلَّةٍ ... وَإِنْ كَانَ مَحْضًا فِى العُمُومَةِ مُخْوِلَا(٢)

***

حدثنا أبو حاتم قال : وذكر العُمَرِىّ قال ، حدثنى عَطاء بن مُصْعب عن الزِّبْرِقان قال عطاء ، سمعته أنا وخَلَفُ الأحمر منه ، قال ، دخل خِنَّابَة(٣) بن كعب العبشمِى على معاوية حين اتَّسَق له الأمر ببيعة يزيد ابنه ، وقد أتت لخِنَّابة يومئذ أربعون ومائة سنة .

فقال له معاوية : يا خِنَّابة ، كيف نفسك اليوم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أمتعنى الله بك .

عَلَىَّ لِسَانٌ صَارِمٌ إِنْ هَزَزْتُهُ ... وَرُكْنِى ضَعِيفٌ وَالْفُؤَادُ مُوَفَّرُ
[٩٨] كَبِرْتُ وَأَفْنَى الدَّهْرُ حَوْلِى وَقُوَّتِى ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْطِقٌ لَيْسَ يَهْذِرُ
وَبَيْنَ الْحَشَا قَلْبٌ كَمِىٌّ مُهَذَّبٌ ... مَتَى مَا يَرَى الْيَوْمَ العَشَنْزَرَ يَصْبِرُ(٤)
أَهُمُّ بِأَشْيَاءَ كَثِيرٍ فَتَعْتَقِى ... مَشِيَّةُ نَفْسٍ ، إِنَّهَا لَيْسَ تَقْدِرُ(٥)
تَلَعَّبَتِ الْأَيَّامُ بِى فَتَرَكْنَنِى ... أَجَبَّ السَّنَامِ حَائِرًا حِينَ أَنْظُرُ(٦)
أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَالشَّيْخُ مُولَعٌ ... بِقَوْلِ أَرَى وَاللهِ مَا لَيْسَ يُبْصِرُ

وقال خنابة لابنَيْه حين كبر ، وحالا بينه وبين ماله :

مَا أَنَا إِنْ أَحْسَنْتُمَا بِى وَحُلْتُمَا ... عَنِ الْعَهْدِ بِالْغِرِّ الصَّغِيرِ فَأُخْدَعُ

---

(١) الجحفل : الرجل العظيم والسيد الكريم ، وهو أيضا الجيش الكثير .

(٢) محض العمومة أى خالص النسب والمخول هو كريم الخال .

(٣) جاء فى القاموس المحيط تحت مادة خنب أنه شاعر معمر تابعى .

(٤) العشنزر : شديد الخلق من كل شىء ، والأنثى عشنزرة . (٥) يعتق مشيته إذا أعجلها .

(٦) أجب السنام مقطوعه بعد أن يأكله الرحل فلا يكبر .

جَرَيْتُ مِنَ الْغَايَاتِ تِسْعِينَ حِجَّةً وَخَمْسِينَ حَتَّى قِيلَ أَنْتَ الْمُقَزَّعُ

المقزَّعُ المسوّد .

***

حدثنا أبو حاتم قال ، قال الكلبيّ أخبرنا كعب الأسديّ ، وكان معنا بخراسان قال ، خبّرنا مروان بن الحكم قال ، أُتِى كعب بن ربيعة فى منامه ، فقيل له ، كَبِرَ سِنُّك، ورقّ عَظْمُك ، وحَضَر أجلك، فقل لولدك فليتمنّوا ، فإنهم سيعطون أمانيهم.

فجمعهم ، فقال : تمنّوا ، فلكل امرئٍ منكم أمنيته .

فقال الحَرِيش : أتمنّى النَّعْظ[1] .

قال : فهُم أنكح بنى عامر .

وقال لقُشَيْر : تَمَنَّهْ .

فقال : البقاء والجَمال ، فهم أجمل بنى عامر ، وأطولُهم أعمارا ، كان منهم ذو الرُّقَيْبَة ، كان فى الجاهلية رجلا ، ثم أدرك معاوية ، ومعه ألف ظَعِينة[2] ، تقول هذه يا أَبَتَاه ، وهذه يا جَدّاه ، وهذه يا عَمّاه ؛ ومنهم حَيْدَة أدرك الجاهلية ، ثم أدرك بِشْر بن مروان، أو زمن أسد بن عبدالله بخراسان وهو عم ألف رجل وامرأة.

ثم قال لجعدةَ [٩٩] : تَمَنَّه .

فقال : اللبن والتمْر ، فهم أكثر بنى عامر لبنا وتمرا .

ثم قال لعقيل : تَمَنَّه .

فقال : الإبل ، فهم أكثر بنى عامر لبنا وإبلا ؛ ويقال ، بل تَمَنَّى عقيل العدد والشِّدة ، فليس فى بنى كعب بطن أشدّ ولا أعدّ من بنى عقيل .

ثم قال لحَبيب : تَمَنَّه .

قال : المَحَبّة من إخوتى ، فكل بنى كعب يتعطّف عليهم .

***

(١) أنعظ الرجل إذا اشتهى الجماع . (٢) الظعينة هى المرأة مادامت فى الهودج الذى يوضع على الجمل .

قالوا : وعاش أبو زُبَيْد الطائىّ ، وهو المنذر بن حَرْملة من بنى حَيَّة خمسين ومائة سنة ، وكان نصرانيا بالرقة(١) فيما حدّث به الـكلبىّ عن أبى محمد المُرْهِبىّ ، وكان يُجْعل له فى كل أحد طعام كثير ، ويُهَيَّأ له شراب كثير ، ويذهب أصحابه يتفرّقون فى البِيعة ويَحْمِلْنَه النساء فيضَمْنَه فى ذلك المجالس ، فجعل له طعام فى أحد من تلك الآحاد ، وقدِّمَتْ أباريقه وحَمَلْنَه النساء ، فجاءه الموت ، فقال :

إِذَا جُعِلَ الْمَرْءُ الَّذِى كَانَ حَازِمًا ... يُحَلُّ بِهِ حَلَّ الحُوَارِ ويُحْمَلُ(٢)
فَلَيْسَ لَهُ فِى الْعَيْشِ خَيْرٌ يُرِيدُهُ ... وَتَـكْفِينُهُ مَيْتًا أَعَفُّ وَأَجْمَلُ
أَتَانِى رَسُولُ الْمَوْتِ يَا مَرْحَباً بِهِ ... لِآتِيـهِ وَسَوْفَ وَاللهِ أَفْعَـلُ

ثم مات ، فجاءه أصحابه ، فوجدوه ميِّتاً .

***

وعاش الأَغْلَب العِجْلِىّ عمرا طويلا ، وقال :

إِنَّ اللَّيَالِى أَسْرَعَتْ فِى نَقْضِى ... أَخَذْنَ بَعْضِى وَتَرَكْنَ بَعْضِى(٣)
حَنَيْنَ طُولِى وَحَنَيْنَ عَرْضِى ... أَقْعَدْنَنِى مِنْ بَعْدِ طُولِ نَهْضِى

***

قالوا : وقال أبو عامر رجل من أهل المدينة عن رجل من أهل [١٠٠] البصرة، قال أبو حاتم ، وحدّث به أبو الجنيد الضرير عن أشياخه قال ، قال معاوية ، إنى لأُحِبّ أن ألقى رجلا قد أتت عليه سِنّ وقد رأى الناسَ يخبرنا عما رأى .

فقال بعض جلسائه : ذاك رجل بحضرموت .

فأرسل إليه ، فأُتى به ، فقال له : ما اسمك ؟

قال : أَمَد .

---

(١) الرقة : بلد على نهر الفرات ، واسطة ديار ربيعة (٢) الحوار : ولد الناقة ساعة تضعه أو إلى أن يفصل عن أمه . (٣) ويروى البيت :

طول الليالى أسرعت فى نقضى ... نقضن كلى ونقضن بعضى

ويستشهد به النحاة على أن المبتدأ اكتسب التأنيث من المضاف إليه فأخبر عنه بالمؤنث ، والقياس طول الليالى أسرع ...

قال : ابن من ؟

قال : ابن أبَد .

قال : ما أتى عليك من السنّ ؟

قال : ستون وثلاثمائة سنة .

قال : كذبت .

قال : ثم إن معاوية تشاغل عنه ، ثم أقبل عليه ، فقال :

— ما اسمك ؟

قال : أمد .

قال : ابن من ؟

قال : ابن أبد .

قال : كم أتى عليك من السنّ ؟

قال : ثلاثمائة وستون .

قال : فأخبرنا عمّا رأيتَ من الأزمان ، أين زماننا هذا من ذلك ؟

قال : وكيف تسأل من تُكذِّب ؟

قال : إنى ما كذَّبْتُك ، ولكنى أحببت أن أعلم كيف عقلك .

قال : يوم شبيه بيوم ، وليلة شبيهة بليلة ، يموت ميّت ، ويولَد مولود ، فلولا من يموت لم تسعهم الأرض ، ولولا من يُولَد لم يبق أحد على وجه الأرض .

قال : فأخبِرنى هل رأيت هاشما ؟

قال : نعم ، رأيته طُوالا ، حسَن الوجه ، يقال ، إن بين عينيه بركةً أو غُرَّةَ بركة .

قال : فهل رأيت أُميَّة ؟

قال : نعم ، رأيته رجلا قصيرا أعمى ، يقال إن فى وجهه لشرًّا أو شُؤمًا .

قال : أفرأيت محمداً عليه السلام ؟

قال : ومن محمد ؟

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وَيْحَك ، أفلا فَخَّمت كما فَخَّمه الله تعالى ؟ فقلت رسول الله .

قال : فأخبرنى ، ما كانت صناعتك ؟

قال : كنت رجلا تاجرا .

[١٠١] قال : فما بلغت تجارتك ؟

قال : كنت لا أشترى عَيْبا ، ولا أردّ رِبْحًا .

قال معاوية : سَلْنِى .

قال : أسألك أن تدخلنى الجنة .

قال ، ليس ذاك بيدى ، ولا أقدر عليه .

قال : لا أرى بيدك شيئا من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة ، فردَّنى من حيث جئت بى .

قال : أما هذه فنعم .

قال : ثم أقبل معاوية على أصحابه فقال: لقد أصبح هذا زاهداً فيما أنتم فيه راغبون.

* * *

قالوا : وعاش القَلَمَّسُ ، وهو أميــة بن عوف ، دهرا طويلا ، وهو من حكماء العرب ، وكان جده الحارث بن كندة ، وهو الذى يقوم بفِناء البيت ويخطب العرب ، وكانت العرب لا تَصْدُر حتى يخطبها ويوصيها ، فقال :

« يا معشر العرب ، أطيعونى تُرْشَدُوا » .

قالوا : وما ذاك ؟

قال : « إنــكم قوم تَفَرَّدْتم بآلهة شَتّى ، وإنى لأعلم ما الله بكل هــذا بِراضٍ ، وإن كان ربَّ هذه الآلهة ، إنه ليحِبّ أن يُعْبَدَ وَحْدَهُ » .

فنفرت العرب عنه ذلك العامَ ، ولم يسمعوا له موعظة .

فلما حجّ من قابلٍ اجتمعوا إليه ، وهم مَزْوَرُّون عنه ، فقال :

« مالكم أيها الناس كأنكم تخشون مثلَ مقالتي عاماً أولَ ، إني والله لو كان الله تعالى أمرني بما قلتُ لكم ما أعْتَبْتكم ولا استَعْتَبْتُ ، ولكنه رأىٌ مني ، فإذ أبيتُم فأنتم أبْصَرُ ، أُوصيكم بخصلتين ، الدّين والحسَب ، فأما الدين فلَّله ، ومن أعطيتموه عَهْدًا [١٠٢] فَفُوا له ، ومن أعطاكم عهدًا فارعَوْا عهدَه حتى تردّوه إليه ؛ فأما الحسَب فبَذْلُ النوّالِ » .

فلما حضرته الوفاة حضره أشراف قومه من كنانة ، ومات بمكة ، فقالوا : قُلْ نَسْمَعْ ، ومُرْنا نُطِع ، وأَوْصِنا نَقْبَلْ ، وزَوِّدْنا منك زَادًا نَذْكُرك .

فقال : «أوصيكم بأحسابكم فإنها مَقْدَم وافِدكم ، وشرفُكُم فى محافِلكم ، وكَفاف وجوهِكم ، وغِنَى مُعْدِمكم ؛ وأوصيكم بالسائل إن كان منكم أن يَسأل غيركم ؛ وإن كان من سِوَاكم وتيمّمكم فلا تَخُطُّنَّه مارجا فيكم ، واستوصوا بذوى أسنانكم خيرا ، أَجْمِلُوا مخاطبتهم ، وقدّموهم أمامكم ، وزَيِّنوا بهم مجالسكم ، وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم ، أقيموا لهم شرفَهم ، ولا تنزِعوا الرئاسة منهم حتى لا تجدوا لها منهم أهْلًا ، وأوصيكم بالحرب ، إن ظَفِرتم بقوم فابقُوا فيهم ، فإنه حَسَبٌ لكم ، ويدٌ عند عدوِّكم ، فإنّ من ظَفِرتم به فهو ظَافِرٌ بكم لا بُدّ ، وهو عامل فيكم بما عملتم به فيه ، فلا تقتلُنّ أسيراً فإنه دَخْل عندكم ومصيبة فيكم ، وإنما هو مَالٌ من مالكم ، وإن الأُسراء تجارة من تجارات العرب فلا تسألُنّ أسيركم فوق ما عنده فيموت فى أيديكم ، فلا يَسْتَأْسِرُ بعده أحدٌ بكم ، وأكثروا العَتاقَةَ فى أُسَراء العرب ، ودعوا العرب ترجوكم وتَستَبْقِيكم .

وأوصيكم بالضيف ، فإنّ كُلًّا إذا قال لم يسمع منه حتى يقول الضيف [١٠٣]، فلا يخرُجَنَّ من عندكم وهو يستطيع أن يقول فيكم ، وأوصيكم بالجيران فأكرموهم، فلا تغشَوا منازلهم ، وليَصْحَبهم ذَوُو أَسْنانكم ، وامنعوا فتيانكم صحابتهم ، وأوصيكم بالخُفَرَاء خيراً فلا تُغَرِّموهم فى غُرْمِكم ، واغرَموا فى غُرْمهم فإنّهم عُدّة لكم ، يُمينونكم ما داموا فيكم ، وينقصونكم إذا فارقوكم ويعينون عليكم

إذا خرجوا من عندكم ، وأوصيكم بِأَيَامَا كم خيرا ، شُدّوا حُجُبَهُنّ ، وانكحوهن أكفاءهن ، وأيسروا الصداق فيما بينكم(١) ، تَنفُق أيامَا كم ويكثر نسلكم ، فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذواتَ العفاف والحسان أخْلاقا ، فإنكم لما يكون منهم أحدٌ من غيركم ، وإنهم راءون فيمن بقى من نسائكم مثل ما رأوا فيمن جاءهم منهنّ ، وإذا نكحتم الغريبة (يعنى المرأة من غيركم) فأغْلوا صداقها ، وتزوّجوا في أشراف القوم ، ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم ، ولا تحرموها إذا انصرفت إلى قومها مالَها ، واصرفوها على أحسن حالاتها ، لا تَنقصوها من شيء يكون لها ، فإن كريمة القوم إذا رجعت إليهم قليلًا متاعُها ظاهرةً حاجَتُها غير راجعة فيكم غيرُها .

وأوصيكم بالصِّلَة ، فإنها تُديم الألفة وتَسُرّ الأسرة ، وأحذِّرُكم القطيعة فإنها تورث الضغينة ، وتُفَرِّق الجماعة ، وإياكم والعجلة فإنها رأس السَّفَه » .

***

قالوا : وعاش عمرو بن قَمِئَة بن سعد بن [١٠٤] مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة ابن عُكَابة تسعين سنة ، وقال :

يَا لَهفَ نَفْسِى عَلَى الشَّبَابِ وَلَمْ ... أَفْقِدْ بِهِ إِذْ فَقَدْتُه أَمَمَا(٢)
قَدْ كُنْتُ فِى مَنْعَةٍ أَسُرُّ بِهَا ... أَمْنَعُ ضَيْمِى وَأَهْبِطُ العُصُمَا(٣)
وَأَسْحَبُ الرَّيْطَ وَالْبُرُودَ إِلَى ... أَدْنَى تِجَارِى وَأَنْفُضُ اللِّمَمَا(٤)

---

(١) وفى رواية : تياسروا فى الصداق (أى تساهلوا) وقيل لا تغالوا بمهور النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله كان أولى بكثرتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أصدق امرأة من نسائه ولا من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية، وذلك أربعمائة وثمانون درهما.

(٢) الأمم بالتحريك اليسير والبين من الأمر . (٣) المنعة : العز وفى بعض النسخ : ميعة ، وهى أول الشباب ، والعصم بالضم . (٤) فى رواية : « وأسحب الذيل والمروط .. » . والريط مفرده ريطة وهى الملاءة قطعة واحدة من نسج واحد ، أو هى كل ثوب رقيق ، والبرود جمع برد ، وهو الثوب المخطط .

وقال حين مضت له تسعون حجّة ، وهى قصيدة :

كَأَنِّى وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً   خَلَعْتُ بِهَا عَنِّى عِذَارَ لِجَامِى
رَمَتْنِى بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى   فَمَا بَالُ مَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِ
فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ إِذَنْ لَاتَّقَيْتُهَا   وَلَكِنَّمَا أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ
إِذَا مَا رَآنِى النَّاسُ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ   حَدِيثاً جَدِيدَ الْبَزِّ غَيْرَ كَهَامِ
فَأَفْنَى وَمَا أَفْنَى مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً   وَلَمْ يُغْنِ مَا أَفْنَيْتُ سِلْكَ نِظَامِ
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا   أَنُوءُ ثَلَاثاً بَعْدَهُنَّ قِيَامِى
وَأَهْلَكَنِى تَأْمِيلُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ   وَتَأْمِيلُ عَامٍ بَعْدَ ذَاكَ وَعَامِ

***

قالوا : وعاش ذوالإصبَع العَدْوَانىّ، وهو حُرثان بن مُحرِّث[1] من[2] عَدْوان ابن عمرو بن قيس بن عَيْلان ثلاثمائة سنة ، وقال :

أَصْبَحْتُ شَيْخاً أَرَى الشَّخْصَيْنِ أَرْبَعَةً
وَالشَّخْصَ شَخْصَيْنِ لَمَّا مَسَّنِى[3] الْكِبَرُ
لَا أَسْمَعُ الصَّوْتَ حَتَّى أَسْتَدِيرَ لَهُ
لَيْلًا وَإِنْ هُوَ نَاغَانِى بِهِ الْقَمَرُ[4]

---

(١) وقيل إن اسم ذى الإصبع محرث بن حرثان ، وقيل حرثان بن حويرث وقيل ابن حرثان بن حارثة (كذا فى رواية أخرى) .
(٢) فى النسخة الأخرى زيادة : بن .
(٣) فى رواية أخرى : شفنى .
(٤) تزيد النسخة الأخرى :

وكنت أمشى على الرجلين معتدلا   فصرت أمشى على أخرى من الشجر
إذا أقوم عجنت الأرض متكئا   على البراجم حتى يذهب النفر

وإنما قال ليلا لأن الأصوات هادئة ، فإذا لم يسمع بالليل والأصوات ساكنة كان مِن أن يسمع بالنهار مع ضَجَّة الناس ولَغَطِهم أبعد .

انتهى آخر المعمرين ، والحمد لله

تم فى سنة ١٣٢١ على يد الفقير محمد شكرى المكى

برسم العلامة الشيخ محمد محمود الحجة الثقة التركزى حفظ الله علاه

كتاب الوصايا

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الوصايا عن أبى حاتم (وأولى الوصايا) .

أخبرنا أبو روق قال ، قال أبو حاتم قالوا ، وكان ملك من ملوك اليمن يقال له، الحارث بن عمرو الكندى ، بلغه عن ابنة لعوف الكندى جمالٌ وكمال ، وهو الذى يقال له : لا أحد يُشبه عوفا جمالا وكمالا ؛ فبعث إلى امرأة من قومها ، يقال لها عِصام، فقال : إنه بلغنى عن بنت عوف جمال وكمال ، فاذهبى ، فاعلمى لى علمها .

فانطلقت حتى دخلت على أمها ، وهى أمامة بنت الحارث ، فأخبرتها خبر ما جاءت له ، وإذا أمها كأنها خاذل[1] من الظباء ، وحولها بنات لها ، كأنهن شوادن الغزلان[2] .

فأرسلت إلى ابنتها ، فقالت : يا بُنَيّة ، إن هذه خالتك ، أتتك لتنظر إلى بعض شأنك ، فاخرجى إليها ، ولا تَسْتَتِرِى عنها بشىء ، وناطقيها فيما استنطقتك فيه .

فدخلت عليها ، ثم خرجت من عندها وهى تقول : تَرَكَ الخِداعَ من كَشَفَ القِناع .

فأرسلتها مَثَلا .

فلما جاءت إلى الحارث قال : ما وراءكِ يا عصام ؟

قالت : أيها الملك ، صَرّح [المخض][3] عن الزبد .

فأرسلتها مثلا .

ثم قالت : أقول حقا ، وأخبرك صدقا ، لقد رأيت وجها كالمرآة الصينية ، يزينه حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته دَلَّتْ عناقيدُ كَرْمٍ جَلَاها وَابِلٌ ؛ لها حاجبان كأنما خُطّا بقلم ، قد تقوّسا على مثل عينى

(١) الخاذل : الظبية أقامت على ولدها . (٢) شوادن الغزلان : المستغنية عن أمهاتها .

(٣) فى الأصل : المحض ، وهو اللبن الخالص ، والمخض : أخذ الزبد من اللبن .

الظبية العبهرة[١] ، التى لم تر قانصا ، ولم تذعرها قَسْوَرَة[٢] ، تَبْهَتان المتوسم إذا فتحتهما ، بينهما أنفٌ كحدّ السيف المصقول ، لم يَخْنُسْ[٣] به قِصر ، ولم يُمْعِن به طول ، حفّت به وجنتان كالأرجوان[٤] ، فى بياض محض كالجُمان[٥] ، شُقِّق فيه فَمٌ لذيذ الملتثم ، فيه ثنايا غُرّ ، وأسنان كالدر ، ذات أشر[٦] ، ينطق فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يحرّكه عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حَمّاوان[٧] ، كأنهما فى لين الزبد ، تحملان ريقا كالشُّهْد ، نُصِب على ذلك عنق أبيض ، كأنه إبريق فضة .

لها صدر كصدر التمثال ، مدت منه عَضُدَانِ مُدْمَجتَان ، ممتلئتان لحما ، مكتنزتان شحما ، متصلة بهما ذراعان ، ما فيهما عظم يُمَسّ ، ولا عِرْق يُجَسّ ، متصلة بهما كفّان ، رقيق قَصَبُهما ، ليّن عصبهما ، تُعْقَد إن شئت منهما الأنامل ، وتُرَكّب الفصوص فى حفر المفاصل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان ، يخرّقان عنها أحيانا ثيابها ، ويمنعانها مِنْ أن تُقَلّد سِخابا[٨] ، أسفل من ذلك بطنٌ طُوِىَ كطىّ القباطىّ[٩] المُدْمجة ، كُسِىَ عُكَنًا[١٠] كالقراطيس المدرجة ، تحيط تلك العُكَنُ بسُرَّة كمُدْهُنِ العاج ، لها ظهر فيه كالجدول ، ينتهى إلى خَصْر ، لولا رحمة ربك لانبَتَر[١١] ، لها كفل[١٢] يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، كأنه دِعْصٌ[١٣] من الرمل ، لبّده سقوط الطَلّ ، أسفل من ذلك فَخِذَان لَفّاوان ،

---

(١) الظبية العبهرة هى الرقيقة البشرة الناصعة البياض ، الجامعة للحسن فى الجسم .

(٢) القسورة : الأسد . (٣) الخنس بالتحريك تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة . (٤) الأرجوان : زهر أحمر اللون . (٥) الجمان هو اللؤلؤ ، معدن نفيس أبيض اللون . (٦) أشر الأسنان : التحزيز الذى يكون فيها خلقة ، وهو نوع من جمالها .

(٧) المعنى أن لون الشفتين أحمر خلقة . (٨) السخاب هو القلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر . (٩) القباطى : قمصان تلبس ، وقد اشتهرت مصر بنسجها وقد أهديت للرسول صلى الله عليه وسلم من المقوقس حاكم مصر . (١٠) العكن : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (١١) الانبتار : القطع ، وهو كناية عن دقة الخصر . (١٢) الكفل : العجز .

(١٣) الدعص بالكسر وبهاء جزء من الرمل مستدير ، أو الكثيب منه المجتمع

كأنما نصبتا على نضد جمان ، متصلة بهما ساقان بيضاوان خدلّجتان(١) ، قد وُشيتا بشعر أسود ، كأنه حلَقُ الزَّرَد(٢) ، يحمل ذلك كله قدمان ، كحذو(٣) اللسان (تبارك الله) مع لطافتهما ، كيف يطيقانِ حَمْل ما فوقهما ؟

وأما ما سوى ذلك فإنى تركت نعته ، ووصفه ، لدقّته ، إلا أنه كأكمل وأحسن وأجمل ما وصف فى شِعْر أو قول .

قال : فبعث إلى أبيها فخطبها إليه ، فزوّجها إياه ، فبعث إليها من الصداق بمثل مهور نساء الملوك ، بمائة ألف درهم ، وألف من الإبل .

فلما حان أن تحمل إليهِ دخلت إليها أمها لتوصيها .

فقالت : « أى بُنيّة ، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب ، أو مكرمة فى حَسَب لتركتُ ذلك منك ، ولزوَيْتُه عنك ، ولكن الوصية تذكِرة للعاقل، ومنبهة للغافل .

أى بنية ، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عن الزوج ، ولكن للرجال خُلِق النساء ، كما لهُنّ خلق الرجال .

أى بنية ، إنك قد فارقت الحِواء الذى منه خرجت ، والوكر الذى منه درجت ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه ، وقرِينٍ لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك ملكا ، فكونى له أمَة يكن لك عبدا ، واحفظى عنى خصالا عشرا ، تكن لك دَرَكا وذكرا ؛ فأما الأولى والثانية فالمعاشرة له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، فإن فى القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب ؛ وأما الثالثة والرابعة فلا تقعْ عيناه منك على قبيح، ولا يَشَم أنفه منك إلا طيب الريح ؛ واعلمى، أى بُنيّة ، أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحلَ أحسن الحسن الموجود .

وأما الخامسة والسادسة فالتّعهد لوقت طعامه ، والهُدُوّ عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النَّوْمَة مَغْضَبة ؛ وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله

(١) الخدلجة مشددة اللام المرأة الممتلئة الذراعين والساقين . (٢) الزرد محركة الدرع .
(٣) الحذو : القدر ، والمراد من التشبيه الاستواء فى القدمين .

والرعاية على حشمه[١] وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير ؛ وأما التاسعة والعاشرة فلا تُفْشِي له سرا ، ولا تعصي له أمرا ، فإنك إن أفشيت سِرّه لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صَدْره .

واتّقى الفرح لديه إذا كان ترحا[٢] ، والاكتئاب عنده إذا كان فرحا ، فإن الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، واعلمى أنك لن تصلى إلى ذلك منه حتى تُؤْثِرى هواه على هواك ، ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت .

والله يَخِير لكِ ، ويصنع لك برحمته .

قال : فلما حُمِلت إليه غلبت على أمره ، وولدت منه سبعة أملاك[٣] ، ملكوا من بعده .

* * *

قالوا : وأوصى زُرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، أنه جمع بنيه وبني بنيه فقال :

يا بَنِيّ ، إنكم قد أصبحتم بيت تميم ، بل بيت مُضَر ، يا بَنِيّ ، ما هَجَمْتُ على قوم قَطُّ من العرب لا يعرفوننى إلا أَحَلُّونى ، فإذا نَسَبونى ازْدَدت عندهم شرفا ، وفى أعينهم عِظَما ، ولا وَفَدت إلى ملك إلا آثرنى وشَفَعَنى ، خذوا من أدبى ، واثبتوا عند أمرى ، واحفظوا وصيتى .

« إياكم أن تدخلوا عَلَىّ فى قبرى حَوْبة أسبّ بها ...

(كذا قال أبو حاتم ، حَوْبة ، وليس لها ههنا معنى، وينبغى أن تكون خَرْبَة، وهى المنقصة ، أو خِزْية ، والحوبة الحالة ، وقال قوم هى الإِثْمُ)[٤] .

... فوالله ما شايعتنى نفسى قط على إتيان ريبة ، ولا عمل بفاحشة ، ولا ضَمّنى

(١) الحشم : هم ذوو القربى كالعيال . (٢) الترح ضد الفرح .

(٣) الأملاك مثل الملوك جمع ملك . (٤) الحوبة : الإثم والذنب ، وقد جاء فى القاموس المحيط أن الحوبة الوالدان أو الأخت أو البنت .

وعاهرةً سقف بيت قط ، ولا حسّنت لى نفسى الغدر منذ شَدّت يداى مئزرى[١] ، ولا فارقنى جار على قِلًى[٢] ، ولا حملنى هَوَاىَ على أمر يعيبنى فى مُضَر .

يا بنى ، إن القالة[٣] إليكم سريعة ، فاتقوا الله فى الليل إذا أظلم ، وفى النهار إذا انتشر يكفكم ما أهمّكم ، وإياكم وشربَ الخمر ، فإنها مفسدة للعقول والأجساد ، ذهّابة بالطريف والتلاد[٤] .

يا بنى ، زوّجوا النساء الأكفاء ، وإلا فانتظروا بهن القضاء[٥] .

يا بنى ، قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخاً كبيراً محجُوباً ، فأخبرنى أنه قد حان خروج نبى بمكّة من مضر ، يقال له ، أحمد ، عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله ، فإن أدركتموه فاتبعوه ، تزدادوا بذلك شرفا إلى شرفكم ، وعِزًّا إلى عِزّكم ، إنه ليس فيكم سَقَطُ رَجُلٍ واحد ، ولا تَمنَيَّنَّكم أَنّى بُدِّلْتكُم بعِدّتِكم من العرب ، ولولا عجلة لقيط[٦] إلى الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث لشرّفته عليكم ، وهو بعدُ فارس مضر ، وعليكم بحاجب[٧] ، فإنه حليم عند الغضب ، فرّاج للكُرب ، يجود إذا طلب إليه ، ذو رأى لا يُنْكَش ، وزمّاعٍ لا يفحش ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، جنّبكم الله الردى .

(لا ينكش = لا يستقصى ما فيه ، يقال : نكشت البئر أى أخرجت ما فيها ، والزّمّاع[٨] العزم ، لا يفحش أى لا ينتقص[٩]) .

* * *

(١) المئزر كالإزار هو الملحفة ، وهى اللباس يلبس فوق سائر الثياب من دثار البرد ونحوه.

(٢) القلى هو البغض والكره . (٣) القالة : القول السيء.

(٤) التلاد : ما أنتجه المرء من ماله ، والطريف هو الحديث من المال .

(٥) القضاء ما قضى به على كل حى من موت . (٦) هو لقيط بن عدى .

(٧) اسم رجل . (٨) الزماع هو الشجاع يزمع بالأمر ثم لا ينثنى عنه .

(٩) كذا فى الأصل ، ولعله : لاينقض ،حتى يستقيم المعنى .

قالوا : وأوصى سعد العشيرة بنيه لما حضرته الوفاة ، فقال :

« يا بنى ، اتقوا إلهكم بالليل والنهار ، وإياكم وما يدعو إلى الاعتذار ، ودعوا قفو[1] المحصنات تسلم لكم الأمهات ، وإياكم والبغى على قومكم تعمر لكم الساحات ، ودعوا المراء والخصام تسلم لكم المروءة والأحلام ، تحببوا إلى المشائر تهبكم العمائر ، وجودوا بالنوال تنم لكم الأموال ، وإياكم ونكاح الورهاء[2] فإنها أدوأ الداء ، وابعدوا من جار السوء داركم ، ومن قرين الغى مزاركم ، ودعوا الضغائن فإنها تدعو إلى التباين ، ولا تكونوا لآبائكم ضرارا ، حياكم ربكم ، وسدد أمركم » .

* * *

قالوا : وجمع الحارث بن كعب بنيه حين حضرته الوفاة ، فقال :

« يا بنى، عليكم بهذا المال فاطلبوه أجمل الطلب ، ثم اصرفوه فى أجمل مذهب، فصلوا به الأرحام ، واصطنعوا منه الأقوام ، واجعلوه جنة[3] لأعراضكم تحسن فى الناس قالتكم[4] ، فإن بذله تمام الشرف ، وثبات المروءة ، وإنه ليسود غير السيد ، ويؤيد غير الأيد[5] حتى يكون عند الناس نبيلا نبيها ، وفى أعينهم مهيبا ؛ ومن اكتسب مالا فلم يصل به رحما ، ولم يعط منه سائلا ، ولم يصن به عرضا بحث الناس عن أصله ، فإن كان مدخولا[6] هرتوه[7] وهتكوه ، وإن لم يكن مدخولا ألزموه دنية ، وأكسبوه عرقا لئيما حتى يهجنوه به » .

وقال لابنه أشمث ، وهو يوصيه :

أَبُنَيَّ إِنَّ أَبَاكَ يَوْمًا هَالِكٌ   فَاحْفَظْ أَبَاكَ زِيَاسَةً وَتَقَلُّبَا
وَإِذَا لَقِيتَ كَتِيبَةً فَتَقَدَّمَا   إِنَّ الْمُقَدَّمَ لَا يَكُونُ الْأَخْيَبَا

---

(١) قفو المحصنات أى قذف الزوجات زورا وبهتانا . (٢) المرأة الورهاء : الحمقاء .
(٣) الجنة بالضم أى الوقاية . (٤) المراد سيرتكم . (٥) الأيد هو السيد .
(٦) المدخول من فى عقله دخل . (٧) هرتوه أى طعنوا فيه وذموه .

تَلْقَى الرِّيَاسَةَ أَوْ تَمُوتُ بِطَعْنَةٍ ... وَالْمَوْتُ يَأْتِي مَنْ نَأَى وَتَجَنَّبَا

* * *

قالوا : ودعا المنذر ابنه النعمان ، وهو غلام شاب ، فقال :

« يا بُنَيّ ، إن لى فيك رأياً دون غيرك من ولدى ، فإنى آمرك بما أمرنى به والدى ، وأنهاك عما نهانى عنه والدى ، آمرك بالذُلّ فى عِرْضك ، وذلك أن تكون ذَلُولًا بالمعروف ، وعليك بالانخداع فى مالك ، وأُحِبُّ لك خَلْوَةَ اللّيل وطول السَّمَر ، وأكره لك إخلاف الصديق ، واطّراف المعرفة ، وأنهاك عن مُلاحَاة الحلماء ومزاح السفهاء ، إن لك عقلا وجمالا ولسانا ، فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك ، ودَعِ الكلام وأنت عليه قادر ، وليكن لك من عقلك خَبِيء تدَّخره أبدا ليوم حاجتك.

ثم قال :

إِنَّ ظَنِّي بِمَنْ أَمَرْتُ بِأَمْرِى ... حَسَنٌ إِنْ أَعَانَتِ الْأُذُنَانِ
بِاسْتِمَاعٍ وَمَا ظَفِرْتُ بِشَيْءٍ ... إِنْ نَبَا مِقْوَلِي عَنِ النُّعْمَانِ
قَدْ تَفَرَّسْتُ فِي بَنِيَّ وَفِيهِ ... فَإِذَا الْأَمْرُ لَيْسَ بِالْمُتَدَانِي
فَلَئِنْ تَمَّ مَا أُؤَمِّلُ فِيهِ ... مَا لَهُ فِي بَنِي الْمُلُوكِ مُدَانِ
وَلَهُ الْحَظُّ فِي الْجَمَالِ وَفِي الْعَقْـ ... ـلِ وَحَظٌّ مِنْ مُهْلَةٍ وَلِسَانِ

* * *

قالوا : وأوصى مالك بن المنذر البجليّ بنيه ، وكان قد أصاب دما فى قومه ، فخرج هاربا بأهله حتى أتى بهم بنى هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه ، وأمرهم أن يعطوا قومه النِّصْفَ من حَدَثه الذى أَحْدَثَه فيهم ، وقال :

« يا بنى ، قد أتت علىّ ستون ومائة سنة ما صافحتُ بيمينى يمينَ غادر ، ولا قَنِعَتْ نفسى بخُلّة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم لى ولا كَنَّةٍ [1] ، ولا طرحتْ عندى

(١) الكنة امرأة الابن أو الأخ .

مُومِسَةٌ قِنَاعَها ، ولا بحتُ لصديقٍ لى بِسِرِّى ، وإنى لعلى دين شعيب النبى صلى الله عليه وسلم ، وما عليه أحد من العرب غيرى ، وغير أسد بن خُزَيمة ، وتميم بن مُرّ ، فاحفظوا وصيتى ، وموتُوا على شريعتى ، إلهكم فاتقوه يكفكم المهم من أموركم ، ويصلح لكم أعمالكم ، وإياكم ومعصيته ، لا يَحِلُّ بكم الدمار ، وتُوحِشُ منكم الديار .

يا بنى ، كونوا جميعا ، ولا تفرقوا ، فتكونوا شيعا ، فإنّ مَوْتًا فى عِزٍّ خَيْرٌ من حياة فى ذُلٍّ وعجز ، وكلُّ ما هو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ، الدهر صرفان ، فصرفٌ رخاء ، وصرفٌ بلاء ، واليوم يومان ، فيوم حَبْره ، ويوم عَبْره[1] ، والناس رجلان ، فرجل معك ، ورجل عليك ، وزوّجوا الأكفاء ، وليستعملنَ فى طِيبهِنّ الماء ، وتجنّبوا الحمقاء ، فإن ولدها إلى أَفَنٍ[2] ما يكون ، إنه لا راحة لقاطع (يعنى القرابة) .

وإذا اختلف القوم أَمْكَنوا عدوَّهم ، وآفة العَدَد اختلافُ الكلمة ، التفضل بالحسنة يقى السيئة ، والمكافأة بالسيئة الدخول فيها ، العمل بالسوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث إلمام الهَمّ ، وانتهاك الحرمة تزيل النعمة ، عقوق الوالدين يعقب النكد ، ويمحق العدد ، ويخرب البلد ، النصيحة لا تَهجُم على الفضيحة ، احتمال الحقد يمنع الرِّفْد[3] ، لزوم الخطية يعقب البلية ، سوء الرِّعَة[4] يقطع أسباب المنفعة ، الضغائن تدعو إلى التباين .

ثم قال :

أَكَلْتُ شَبَابِى فَأَفْنَيْتُهُ وَأَمْضَيْتُ بَعْدَ دُهُورٍ دُهُورَا
ثَلاثَةُ أَهْلِينَ صَاحَبْتُهُم فَبَادُوا وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرا[5]

---

(١) الحبور هو السرور، والمعنى يوم سرور ويوم حزن . (٢) الأفن هو الفساد ، والمأفون ضعيف الرأى . (٣) الرفد : العطاء ، وفى المعنى إشارة إلى ما يجمل بالفقير السائل أن يكون عليه من محبة المسئول والغبطة لحاله . (٤) الرعة والرعية رعى الحيوانات .
(٥) المراد من الأهلين الأجيال، وزمن الجيل خمسة وثلاثون عاما .

قَلِيلُ الطَّعَامِ ، عَسِيرُ القِيَا م ، قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ قَيْدِي قَصِيرَا
أَبِيتُ أُرَاعِي نُجُومَ السَّمَا ء ، أُقَلِّبُ أَمْرِي، بُطُونًا ظُهُورَا

* * *

قالوا : وأوصى عمرو بن الغوث بن طيء ولده ، وهم : ثُعَلٌ ، ونبهان ، وبنوهم ؛ وكان عمرو قد عاش حتى كبر ولده ، فقال :

« يا بنى ، إنكم قد حللتم محلا تخرجون منه ولا يُدْخَلُ عليكم فيه ، فارعوا مَرْعى الضَّبِّ[1] الأعور ، يرى جُحره ، ويعرف قدره ، ولا تكونوا كالجراد ، يأكل ما وَجد ويأكله ما وجده ؛ وإيّاكم والبَغْى ، فإن الله إذا أراد هلاك النملة جعل لها جناحين ؛ يا بنى ، لا تَسْتَحيوا من منع من لا يَسْتَحِى من المسألة ، وكلوا من الطعام وأطعموه ، ولا يستحى أحدكم أن يفعل شيئا ينتفع به إذا لم يُعرف ، فإنه إنما يستحيي حينئذ لغيره ، وابدءوا الناس بالشر فإنه أشكر لخيركم وإن كان قليلا ، ولا تمنعكم الكثرةُ أن تَرْبَعوا على أقداركم ، والله يحوطكم » .

* * *

قالوا : وأوصى قيس بن معديكرب ولده ، فقال :

« باسمك اللهم ، احفظوا أَدَبِى يَكْفِكم ، واتَّبِعوا وَصَاتِى تُلْحَقوا بصالح قومكم ويَسْتَقِلْ أمرُكم ، إنِّي أَكَانِكم إلى أدبى ، وإن المعنىّ بكم لغائب (يعنى نفسه) ، الزموا ما يَجْمُل ، واقنوا حياءكم[2] ، وأطيعوا ذوى رأيكم ، وأَجِلُّوا ذَوِى أَسْنَانِكم ، ولا تعطوا الدنيّة ، وإن كان الصبر على خِطَّة الضَّيْم أبقى لكم ، وتناصروا تكونوا حِمًى ، وإذا نزلتم على قومكم فلتكن محلتكم واحدة ، واهْدِرُوا الحسد يَقْطَعْ عنكم النائِرَةَ[3] ، ودعوا المكافأة بالشر يحببكم الناس ، وعِفُّوا عن الدناءة وأكرموا أهل الكفاءة ، ولا تواكلوا الترافد والرياسة فيحلّ عطبُكم ،

---

(١) الضب : دابة برية تشبه الفأر ، وهو أنواع ، منه الكبير دون العنز ، وهو أعظمها ، ومنه الصغير كالفأر . (٢) أى كونوا ذوى حياء . (٣) نأرت نائرة كنع هاجت هائجة .

واتخذوا لأسراركم من علانيتكم حجابا ، ولا تُدْبِروا أعْجَازَ ما قد أدْبَرت صُدُورُه ، ولا تَفَيَّلُوا الرأى بالظن فيُبْدع بكم ، والزموا الأناة يفز قِدْحُكم[١] ، وأطيلوا الصمت إلا فيما يعنيكم ، ولا تأخذوا خَتَلا[٢] ، وخذوا صُرَاحاً ، فهناك عِزّ القَرار ، ومَنَعَة الجار ، واطْمَنوا فى الأرض تبلغوا مَأْمَنكم ، ولا تَمرِضوا لِنَمائِم النساء ، وإياكم والغدْر فإنه أحَلَّنى دار الغُرْبة ، واعتبروا » .

* * *

قالوا : وجمع أُوْدُ بن صعب بن سعد بنيه ، فقال :

« يا بنى ، أخيفوا الناس ولا تخافوهم ، واستخبروهم ، ولا تُخبروهم ، وبئس موضعُ السر المرأة ، وكونوا من الموتورين على حذر ، وإذا دُفِعتم عن حقكم فاطلبوا أكثر منه ، وإذا بُخِعَ[٣] لكم فاقتصروا عليه » .

* * *

قالوا : وأوصى عَبْقر بن أنمارٍ البَجَلىّ فقال :

« يا بنى ، إذا غدوتم فبَكِّرُوا ، وإذا رُحتم فهجِّرُوا[٤] ، وإذا أكلتم فأوْتِرُوا[٥] ، وإذا شربتم فانبِزُوا ، وأبيحوا ما يؤكل فإن منعه ألأَمُ اللُّؤْم » .

(قال أبو حاتم : النبز الهمز ، وإنما شبّهه بالصوت الذى تسمعه من الحلق إذا جرى الماء فيه) .

* * *

قالوا : وجمع صعب بن سعد بنيه عند موته ، فقال :

« يا بنى ، أوسعوا الحبا ، وحُلُّوا الربا ، وكونوا أُسًى تكونوا رِحًى » .

---

(١) المعنى يعلو شأنكم. (٢) الختل : الخداع . (٣) فى هامش الأصل تعليق بخط الناسخ جاء فيه : يقال بخع لى به ، وشنى به وشنيه إذا أقر له به .

(٤) الرواح : الرجوع مقابل الغدو ، والتهجير : الإقالة وقت الهجيرة لإراحة الإبل.

(٥) أى اجعلوا شفعكم وترا والمعنى زيدوا عددكم بضيوف ، أو كلوا على فترات فتكون فرصة القرى لضيوفكم موفورة .

(قال أبو حاتم ، يقول ، إذا احتبى أحدكم فليوسع الحبوة ولا ينقبض ، أراد لتعظم همة أحدكم ولا تصغر ؛ وقوله ، وحلوا الربا ، يعنى، انزلوا المرتفعات من الأرض لترى نيرانكم فتقصدكم الأضياف ، وقوله ، وكونوا أسى ، أى لتكن كلمتكم واحدة، وهو من الأسوة ، أى لا تختلفوا ، فيطمع فيكم أعداؤكم ، ولـكن ، كونوا أسوة ، بعضكم بَعْضًا ، تـكونوا حمى ، أى حِرْزا ، لا يطمع فيكم) .

* * *

قالوا : وأوصى مالك بن عمرو الـكلبىّ فقال :

« يا بَنِىّ ، عليكم بتقوى الله ، وصلة الرَّحِم ، وأداء الأمانة ، ورعاية الحق ، والوفاء بالعهد ، وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، فإنه لا يَسلم على الضغائن الـكبير ، ولا يَصلح عليها الصغير ، وصونوا أنفسكم بالدَّعَة وبذل المروف ، وكُفُّوها عن سُوء الرِّعَةِ فى الأمور ، وإن أقبح ذلك ما كان فى المطْمَع ؛ واهجروا البغى فإنه مثبُور(١) ، وتجنبوا العُجب فإنه مَمْقَتة ، ولا تقصروا عن طاعة أمرائـكم ، ولا توجّهوا الأمور دونهم ، فإنهم إن يشاركوكم فيها يكمل رأيكم ، والتمسوا المحامد فى مَظَانِّها ، ولا يمنعكم من طلب المعاش اليأس ، فإن أبوابه أكثر من أن يبلغها الظانُّ ، استكثروا من الإبل يكثُرْ تبعُكم ، ولا تضيعوا رِباطـكم فيُهْدَم حِصْنُـكم، وإذا لقيتم العدو فاصبروا ، فإن فى الصبر النجاة والدَّرَكَ للترات ، وألزموا النساء البيوت ، وخافوهنّ على أسراركم، واجتمعوا ولا تفرقوا ، واحذروا الغَدْر فإنه نِقْمَة ، وليُحَيِّـكُم ربُّـكم » .

* * *

قالوا : وأوصى جابر بن مالك الـكلبى بنيه وقومه ، فقال :

« يا معشر العَمائر المنتظرة للفناء والمنقطعة من الأصل ، أوصيكم برهبة الله ، وصلة الرحم ، والحفظ للعهد ، والمباعدة لأهل الغدر وأهل الذكر للمَعَاير ، وعليكم

(١) الثبر بالفتح ثم السكون : اللعن والهلاك .

بإحياء المناقب ، قد ترون المنايا تتبعها الرزايا ، لا تواكلوا النصر فتنكبوا[١] ، ولا تخاذلوا فتذلوا ، واجهدوا أبدانكم اليوم لراحتها غدًا ، ولا تكنوها بالدَّعة فتحسر عند الاجتهاد ، ولا تختلفوا فيخسر كيدكم ، واجتنبوا الكرائم[٢] ، وتجنبوا الملاوم ، وكلُّ ما يعتذر منه خطيئة ، ولتطبْ أنفسكم عن الدنيا ، وبالصبر تدفع العظائم ، ليحيّكم المديل[٣] للأمم » .

***

قالوا : وأوصى هُبَيرة بن صخر الكلبيّ ، ثم الغامديّ ، فقال :

« يا بَنِيّ ويا عشيرتاه ، أوصيكم بتقوى الله والصبر على المَضَض ، ففيه الفوز ، لا فَوْزَ القِسِيّ ، حافظوا على الحُرَم ، فإن الهلاك في الغفلة عنها، والفشل في التخاذل، غِيظُوا العدو بإظهار السرور وإبداع الأمور، واذكروا المجامع والمواسم يأمن سِرْبكم، فإن المحافظة أَمْن ، وإنما المعسكر لمن صبر ، وليُحَيِّكم ربكم » .

***

قالوا : وأوصى الأحوص الكلبي ثم من بني عبد وُدٍّ ، فقال :

« يا عشيرتاه ، إن الرأى الرأى اليوم ، أوصيكم بشكر ذى النعمة ، والغَيْرَة على الحرم ، والتمسك بالحَسَب ، ولا ترضوا بالدنِيّة ، ففيها البليّة وضياع العلم ، وذهاب المُهَج[٤] ، الموت في العذر خير من الحياة في القَسْر[٥] ، والفرج مع الصبر ، وليُحَيِّكم ربكم .

***

قالوا : وأوصى عمرو بن يزيد الكلبيّ بنيه ، فقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، وبِرّ الرحم ، والحفظ للعيال ، والإحراز للحرم ،

---

(١) تصيبكم نكبة . (٢) الكرائم جمع كريمة ، وهى المرأة .

(٣) الدولة : انقلاب الزمان ، ويديل الله تعالى الأمم يداولها بين الناس .

(٤) جمع مهجة بالضم ، وهى الروح . (٥) القسر هو الغلبة والقهر .

ولا تحاسدوا فتذلّوا ، ولا تواكلوا فتفشلوا ، تعاطفوا يُصْلَب عُودُكم ، وتقاربوا ، وتحابّوا يظهرْ حَزْمكم ، وأقلّوا المنطق تُرهبوا ، وتَساخُوا الفعال(١) ، وأميتوا الضغائن تَحْمَدوا العواقب ، واستعينوا على محاربة عدوكم بذكر المعاير(٢) ، والهرب منها كرم ، والتخوف لها جهاد ، أزيلوا عنكم نيّة البغى ، والزموا قلوبكم الإنصاف وعزيمة العفو تُنصروا ، ولتكن أعلامكم ذوى الرأى منكم ، وأنزلوهم منزلة الآباء فى التقليد والإنفاذ لأمرهم ، فإن أعظم مصائب القوم خلافُ الشَّفيق المصيب ، وطاعة المُصيب ظَفَر ، واتباعه يُمْنٌ ، وإذا حاربتم قوما فأطيلوا مُواقَفَتهم ، وتأمّلوا فيهم الفُرصة ، وإن أمكنكم البَيات(٣) ففيه الظفر بعدوكم ، وإن منحوكم أكتافهم فوسِّعُوا عليهم المَسْرَب(٤) ، ونَهْنِهوا عن لَجْم المذاكى(٥) ، وعند تلك فأحيوا فراقهم ، فإنَ العافية لمن اعتصم بها ، ليرْعكم ربُّكم » .

***

قالوا : وأوصى زهير بن جناب فقال :

« يا بَنِيّ ، قد كبِرت سِنِّى ، وبلغت حَرْسًا (يعنى دهرا من عمرى) وأحكمتنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار ، فاحفظوا عنى ما أقول ، وعُوهُ ، إياكم والخَوَر عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغمّ ، وشماتة للعدو ، وسُوء الظنّ بالربّ ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترّين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه والله ما سخر امرؤ قط إلا ابتُلِىَ ، ولكن استعفوا منها ، وتوقّعوها ؛ فإنما الإنسان فى الدنيا غرض ، تعاوَرُه الرّماة ، فمقصّر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابدّ أنه مصيبُه » .

***

(١) المعنى : كونوا أسخياء كرماء . (٢) المعاير هى المعايب . (٣) هو المبيت .
(٤) أى المنفذ للهروب . (٥) المعنى : كفوا عن وضع اللجام فى الخيل التى مضى على استكمال أسنانها سنة أو سنتان ، أى لا تركبوها فى مهام أموركم .

قالوا : وأوصى رياح بن ربيعة بنيه عند موته فقال :

« يا بَنِيّ ، سَوِّدُوا أعقلكم ، فإن أمير القوم إذا لم يكن عاقلا كان آفة لمن دونه ، وجُودُوا على قومكم ، وإياكم والبخلَ ، فإنه داء ، ونعم الدواء السخاء ، والتغافل فعلُ الكرام ، والصمت جِمَاعُ الحلم ، والصدق فى بعض المواطن عَجْز ، واستعينوا على من لا تقوون عليه بالجُمُوع ، واعلموا أن سيِّد القوم أشقاهم ، وإياكم والمَنّ ، فإنه مَهْدَمَة للصنيعة » .

* * *

قالوا : وأوصى الأَفْوَه الأَوْدِيّ فقال :

« عليكم بتقوى الله وصلة الرحم ، وحسن التعزِّى عن الدنيا بالصبر ، والنظر فيما حزبكم لما بعده تفلحوا ، وتفقّدوا حالاتكم بالمعرفة لحقوق أعلامكم فإنهم بكم عَزُّوا ، وأنتم بهم أعزّ منكم بغيرهم ، كونوا من الفتن على حذر ، ولا تأمنوا على أحسابكم السفهاء ، ولا تشركوهم فى سرّكم ، فإنهم كالضأن فى رِعْيَتها ، كلامهم ذُعْر ، وفعلهم عُسْر ، لا يستحيون من دناءة ، ولا يراقبون محرما ، ولا يغضبَنّ منكم امرؤ لِسَفيهٍ على ابن عمه وإنْ وَزَعه[1] ، ولا تطمئنوا إلى أجسامهم ، واستوحشوا من عقولهم ، ولا تثقوا بناحيتهم ، وإن حاربتم فاتخذوهم حَشْوًا فيما بينكم ، فإن النظر قبل اللقاء حزم ، ولا حزم بعد الندامة ، فإذا اقتادكم امرؤ فوقِّرُوه بالإجلال والمناصحة تبلغوا بذلك من العدو ، وتنالوا به المحامد ، فإن لغدٍ أمرا ، والأيام دُوَل ، فتأهبوا ، وتصنّعوا لحلولها .

ثم قال : أما بعد ، فإن التجربة علم ، والأدب عون ، والكفّ عن ذلك مَضَرّة ، وليكن جلساؤكم أهل المروءة والطلب لها ، وإياكم ومجالسة الأشرار ، فإنها تعقب الضغائن ، والرفضُ لهم من أسباب الخير ، والحلم مَحْجَزَة عن الغيظ ، والفُحْش من العِيّ ، والغَيّ مَهْدَمة للبناء (يعنى المعالى) ، ومن خير ما ظفرتْ به الرجال

---

(١) الوزع هو المنع .

اللسانُ الحسَن (اللسان ههنا الثناء) ـ قال الله عز وجل «لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» . وفى تركُ المِراءِ راحةٌ للبدن ، فلينظرْ كل رجل منكم إلى جهته ، فإن العجب كبر ، والكبر قائد إلى البغض ، واشْنَأُوا(١) البغى ، فإنه المرعى الوخيم ، واستصلحوا الخلل ، وتحامَوُا الذُّلّ ، اللهم عليك بأهل الحسد للنعم» .

وقال الأفوه :

لَنَا مَعَاشِرُ لَنْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ	وَإِنْ بَنَى قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا
لَا يَرْعَوُونَ وَلَنْ يَرْعُوا لِمُرْشِدِهِمْ	وَالْغَيُّ مِنْهُمْ مَعًا .وَالْجَهْلُ مِيعَادُ
كَانُوا كَمِثْلِ لُقَيْمٍ فِي عَشِيرَتِهِمْ	إِذْ أُهْلِكَتْ بِالَّذِي قَدَّمُوا عَادُ(٢)
أَوْ بَعْدَهُ كَقُدَارٍ حِينَ طَاوَعَه	عَلَى الْغَوَايَةِ أَقْوَامٌ فَقَدْ بَادُوا(٣)
وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا لَهُ عَمَدٌ	وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ	وَسَاكِنٌ بَلَغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
وَإِنْ تَجَمَّعَ أَقْوَامٌ ذَوُو حَسَبٍ	تَصْطَادُ أَمْرَهُمُ ، فَالرُّشْدُ مُصْطَادُ
لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ	وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا(٤)
إِذَا تَوَلَّى سَرَاةُ الْقَوْمِ أَمْرَهُمُ	نَمَا عَلَى ذَاكَ أَمْرُ الْقَوْمِ وَازْدَادُوا
تُهْدَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ	فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ
أَمَارَةُ الْغَيِّ أَنْ تَلْقَى الْجَمِيعَ لَدَى الْـ	إِبْرَامِ لِلْأَمْرِ لِلْأَذْنَابِ يَنْقَادُ
كَيْفَ الرَّشَادُ إِذَا مَا كُنْتُ فِي نَفَرٍ	لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ
أَعْطَوْا غُوَاتَهُمُ جَهْلًا مِقَادَتَهُمْ	فَكُلُّهُمْ فِي حِبَالِ الْغَيِّ مُنْقَادُ
أَخُفِ الرَّحِيلَ إِلَى قَوْمٍ وَإِنْ بَعُدُوا	فِيهِمْ صَلَاحٌ لِمُرْتَادٍ وَإِرْشَادُ
فَسَوْفَ أَجْعَلُ بُعْدَ الْأَرْضِ دُونَكُمُ	وَإِنْ دَنَتْ رَحِمٌ مِنْكُمْ وَمِيلَادُ
إِنَّ النَّجَاةَ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا بَصَرٍ	مَرَاجِعُ الْغَيِّ أَبْعَادٌ فَأَبْعَادُ

---

(١) ابغضوا . (٢) لقيم اسم رجل .
(٣) قدار اسم رجل ، وهو ابن سالف ، عاقر الناقة . (٤) السراة الشرفاء .

وَالْخَيْرُ تَزْدَادُ مِنْهُ مَا بَقِيتَ بِهِ ... وَالشرُّ يَكْفِيكَ مِنْهُ قَلَّ مَا زَادُ

* * *

قالوا : وأوصى حصن بن حُذيفة بن بدْر الفِزاريّ بنيه ، وكان سبب موته أن كُرز بن عامر العُقيليّ طعنه ، وكان له بنون عشرة ، فأوصاهم عند موته ، واشتد به مرضه ، فقال :

— الموت أرْوَح مما أنا فيه ، فإياكم يطيعنى ؟

قالوا : كُلُّنا لك مطيع .

فبدأ بأكبرهم ، فقال : خذ سيفى هــذا ، فضعه على صدرى ، ثم اتــكِئ عليه حتى يخرج من ظهرى .

فقال : يا أبتاه ، وهل يقتل الرجلُ أباه ؟

فعدل عنه إلى ولده ، كلهم يقول مقالةِ الأول ، حتى انتهى إلى عُيَيْنة ، فقال :

— يا أبتاه ، أليس لك فيما تأمرنى به سلوى وراحة ، ولك منى فيه طاعة ؟

قال : بلى .

قال : فمُرْنى كيف أصنع .

قال حصن : ألق السيف يا بُنَىّ ، فإنى أردتُ أن أبْلُوَكم فأعرفَ أطوعَكم لى فى حياتى ، فهو أطوعكم لى بعد وفاتى ، فاذهب فأنت سيّدُ ولدى من بعدى ، ولك رياستى .

فجمع بنى بدر ، فأعلمهم بذلك ، ثم قال :

« اسمعوا ما أوصيكم به ، لا يتَّكِلَنّ آخركم على فَعَال أوّلكم ، فإن الذى يدرك به الأول حجة على الآخر ، وانكحوا الكفِئ من العرب فإنه عزّ حادث ، وإذا حاربتم فأوقعوا ، وقولوا واصدقوا ، فإنه لا خير فى الكذب ، وصُونُوا الخيل فإنها حصون الرجال ، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل [1] ، واغزوا الكثير بالكثير ،

---

(١) المراد أن الرماح الطويلة تحمى الخيل ويدافع بها عنها ، مثلها مثل القرون بالنسبة للبهائم ذات القرون .

وبذلك كنت أغلِبُ ، ولا تغزوا إلا بالعيون (يعنى بالأشراف) ، ولا تَسرحوا حتى تأمنوا الصباح ، وعجِّلوا القِرى فإن خيره أعْجَلَه ، وأعطوا على حسب المال ، فإنه أبقى لكم ، ولا تحسدوا من ليس مثلكم ، فإنما يَحْسُد القوم أمثالهم ، ولا تحكِرُوا على الملوك فإن أيديهم أطول من أيديكم ، ولا تأمنوا صَرَعاتِ البغى ، ونَضَحات الغدر ، وفَلَتات المزاح ، واقتلوا « كُرْزَ بن عامر » فإنه قتلنى » .

فمات .

فقام عُيَيْنَة بالرياسة ، وقتل كرزا ، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من المؤلَّفة قلوبُهم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون : هذا الأحمق فى دينه ، المطاع فى قومه .

***

قالوا : وأوصى مضرّس بن ربعىّ ابنه فقال :

« يا بُنَىّ ، إن الأسف مرض ، والطمع لؤم ، واليأس عجز ، فاسْلُ عما فات ، واحرص فيما تستقبل ، وفكِّر ثم قدِّر ، ثم احضر » .

وقال :

لَا تُهْلِكَنَّ النَّفْسَ لَوْمًا وَحَسْرَةً ... عَلَى الشَّىْءِ سَدَّاهُ لِغَيْرِكَ قَادِرُهْ
فَلَا تَيْأَسًا مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ ... وَإِنْ كَانَ شَيْئًا بَيْنَ أَيْدٍ تُبَادِرُهْ
وَمَا فَاتَ فَاتْرُكْهُ إِذَا عَزَّ وَاصْطَبِرْ ... عَلَى الدَّهْرِ إِنْ دَارَتْ عَلَيْكَ دَوَائِرُهْ
وَلَا تَظْلِمِ الْمَوْلَى وَلَا تَضَعِ الْعَصَا ... عَلَى الْجَهْلِ إِنْ طَارَتْ عَلَيْكَ دَوَائِرُهْ

***

قالوا : وأوصى أبو قيس بن صِرمة فقال :

« لا تَنكِلوا عن العدو ، ولا تبخلوا عن الصديق ، وجازوا ذا النعمة ، وتمسّكوا بحرمة الجار ، وتباذلوا ، وقدّموا أهل العِىّ ، وأوفوا بالعهد ، وإياكم والبغى ، فإنه أقوى سلاح عدوكم » .

وأنشد :

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيًا ... أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَاتِي فَافْعَلُوا
أُوَصِّيكُمُ بِاللهِ وَالْبِرِّ وَالتُّقَى ... وَأَعْرَاضِكُمْ ، وَالْبِرُّ بِاللهِ أَوَّلُ
وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلَا تَحْسُدُوهُمُ ... وَإِنْ كُنْتُمُ أَهْلَ السِّيَادَةِ فَاعْدِلُوا
وَإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمُ ... فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فَابْذُلُوا
وَإِنْ طَلَبُوا عُرْفًا فَلَا تَحْرِمُوهُمُ ... وَإِنْ كَانَ فَضْلُ الْعُرْفِ فِيهِمْ فَافْضُلُوا
وَإِنْ أَنْتُمُ أَعْوَزْتُمُ فَتَعَفَّفُوا ... وَمَا حَمَّلُوكُمْ فِي النَّوَائِبِ فَاحْمِلُوا

* * *

قالوا : وأوصى الحارث بن الحكم آكل الذراع بنيه ، فقال :

« يا بَنِيّ ، لا تبكوا على الزمان فإنه لايزداد على رجل على السن من أهله قربا إلا ازدادوا منه بُعْدًا ، استأنوا العشيرة ، ولا تمشوا بينها بالنميمة [٢٢] ، وكونوا لقومكم أتباعا ، وإيّاكم والبغيَ ، فإنه آخر مدة القوم ، وجازوا بالحسنة ، ولا تكافئوا بالسيئة ولا تردّوا الكرامة ، ولا تبغوا ، غَنِيتُم وبَقيتم (قوله هذا دعاء لهم) » .

* * *

قالوا : لما حضر الحطيئة الوفاة قيل له ، أوصِه .

قال : وَيْلٌ للشِّعْر من زاوية السوء .

قيل : أَوْصِه .

قال : أخبروا آل شمّاخ بن ضِرار أنه أشعر العرب .

قالوا : أَوْصِه .

قال : بماذا ؟

قالوا : فى مالك ، فإنه كثير .

قال : هو لِذُكور ولدى دون النساء .

قالوا : ليس كذلك قال الله عزّ وجل .

قال : لكن أنا أقوله .

قالوا : أوصه .

قال : بماذا ؟

قالوا : عبدك هذا قد طالت صحبته .

قال : اشهدوا أنه عبدٌ ما بقى على الأرض عَبْسِىٌّ .

ثم قال : احملونى على حمار ، فإنه بلغنى أن الكريم لا يموت على حمار .

فحمل عليه ، فمات .

* * *

وصية قيس بن عاصم المنقرىّ بنيه ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وسَوِّدُوا أكبركم ، فإن القوم إذا سَوَّدُوا أكبرهم لم يفقدوا أباهم ، وَضَعُوا كَرَائِمَكُم فى أعقابكم ، وتزوّجوا فى مثل ذلك ، فإنكم إذا فعلتم مثل ذلك خَلَفْتم أباكم ، وعليكم بطلب المال واصطناعه ، فإن المال مَنْبَهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم ومسألة الرجال ، فإنها آخر كسب المرء ، ولا يعلمَنّ بمَدْفِنِى بكر بن وائل ، فإنى كنت أُغاوِرُهم[1] فى الجاهلية ، وكانت بينى وبينهم خماشات[2] ، فأخاف أن يفتنوكم فى دينكم ، أو يُدخلوا عليكم غضاضة ، ولا تنوحوا عَلَىّ ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُنَحْ عليه » .

* * *

قالوا : وأوصى عوف بن كنانة الكلبىّ بنيه ، فقال :

« يا بَنِىّ ، احفظوا وصيتى ، فإنها أَنْصَحُ الجبلةِ لكم ، وإن أنتم حفظتموها سُدْتم قومكم بعدى ، إلهكم فاتقوه ، ولا تخونوا ، ولا تستثيروا السباع فى مَرابِضها فتندموا ، وجازوا الناس بالكف عن مساوئهم تسلموا ، وتصحّوا وخِفّوا عند

(١) أى أغير عليهم بين الحين والآخر .

(٢) الخماشة بالضم ما ليس له إرش من إصابات الجروح أو ماهو دون الدية كقطع يد وأذن ونحوه .

تائبتهم ، ولا تستبطئوا فى حق ، والزموا الصمت إلا من حق تحمدوا ، وابذلوا التحية تسلم لكم الصدور ، ولا تضانُّوا بالمنافع فتباغضوا ، واستتروا من العامة تُجَلُّوا ، ولا تكثروا مجالسة الناس فيستخفَّ بكم ، ولا تزايلوهم فتمادوا ، وإن نزلت مُعضلة فاصبروا ، وألبسوا الدهرَ أثوابه ، فإن لسان الصدق مع المسكنة خير من لسان السوء مع المَيْسرة ، وذُلُّوا لمن ذَلَّ لكم فإن أقرب الوسائل المودّة ، ولا تعلموا الناس أقتاركم[1] فتهونوا عليهم ، وتجمّلوا تنتجبوا ، وإياكم والعزبة فإنها ذلّة ، ولا تضعوا الكرائم إلا عند الأكفاء ، وابتغوا لأنفسكم المعالى ، ولا يَخْلِجَنَّكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن مُناكحة الكرام مدارج الشرف ، واخضعوا لقومكم ، ولا تبغوا عليهم ، ولا تخالفوهم فيما أجمعوا عليه ، فإن الخلاف يَزْرِى بالرئيس المطاع ، وليكن معروفكم بعدهم فى غيرهم ، ولا توحشوا أفنيتكم من أهلها ، فإن إيحاشها إخماد الناس ودفع الحقوق ، وأذكوا النار ، وأحيوا الحقوق ، ولا تبذلوا الوجوه إلى غير مكرميها فتكلحوها ، وتحشوها الدناءة ، [٢٤] وتقصروا بها ، ولا تحاسدوا فتبُوروا .

والتمسوا بالتودّد المنازلَ عند الولاة ، فإنهم من وضعوا أفرد ، ومن رفعوا أنجد ، وابتنوا المبانىَ بالأدب ومصافاة أهل الحبا[2] ، وابتاعوا المحبة بالجود ، واجتنبوا البخل ، ووقّروا ذوى الفضيلة ، وخذوا عن أهل التجارب ، ولا تحتقروا الرجال من غير خبرة ؛ وإنما المرء بذكاء قلبه وتعبير لسانه ، وإذا خُوِّفتم داهية فتثبتوا واقبلوا العجلة ، ولا يمنعنكم من المعروف صِغَرُ قدره ، فإن له ثوابا ، ولا تعفّروا الأقدام إلا لأخطارها ، وتنبّلوا تَسْمُ إليكم الأبصار ، وارفضوا النمائم بينكم تسلموا ، وكونوا أنجادا عند الملمات تعزّوا ، واحذروا النُّجْعَة التى فى المنعة[3] .

وأكرموا الجار ، وآثروا حق الضيف ، وألزموا السفهاء الحِلْم تقلّ همومكم ،

---

(١) أقتار جمع قتر ، وهو التقتير فى العيش . (٢) الحباء هو العطاء بلا جزاء .
(٣) المعنى : لاترعوا إبلكم فى أماكن لغيركم فيها الغلبة .

وإياكم والحرص فإنه من أسباب المتالف ، واتخذوا الزهد جُنّة تَسْتَرِحْ أبدانكم ، وإياكم والفرقة فإنها ذُلّ ، ولا تكلفوا أنفسكم فوق طاقتها فتعجزوا ، فَلَأَن تلاموا وبكم قوة خير من أن تعانوا بالعجز ، وعليكم بالجد فإنّ به يمنع الضيم ، وإياكم والتفريط فَبِه يكون الخلل ، لا أجدبتم أبداً ، ولا غُلبتم ـ أو قال ـ ولا خُذِلتم .

***

حدثنا أبو حاتم قال :

وذكر بعض أهل العلم أن هشام بن عبد الملك أرسل إلى سليمان الكلبيّ ، وكان رجلا جامعا للأدب فاضلا ، ذا رأى .

قال سليمان : فدخلت عليه ، وهو فى غرفة له ، قدعَلا نَفَسِى . وانتَفَخَ سَحْرى[(١)] ، فسلمت عليه ، فردّ علىّ ، وأضرب عنى حتى سكن جأشى [٢٥] ، ثم قال لى :

— يا سليمان ، قد بلغنى عنك ماأحب ، وإذا بلغنى عن أحد من رعيتى مثل الذى بلغنى عنك أسرعت إليه بمايحب ، واستعنت به على مهم أمرى ، وإن محمد ابن أمير المؤمنين بالمكان الذى بلغك ، وهو جلدة ما بين عينى ، وإنى أرجو أن يبلّغ الله به أفضل مابلّغ بأحد من أهل بيته ، وقد ولّاك أمير المؤمنين تأديبه وتعليمه ، وماله ، والنظر فيما يُصلح الله به أمره ، فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة فيه ، فإنك تقصد فيه بخصال ، لو لم تكن إلا واحدة كنت قَمِناً[(٢)] ألّا تضيّعها ، فكيف إذا اجتمعت ؟

أما أولها فإنك مؤتمن عليه ، وحُقّ لك أداء الأمانة فيه ؛ وأما الثانية فأنا إمامٌ ترجونى ، وتخافنى ؛ وأما الثالثة فكلما ارتقى الغلام فى الأمور درَجة ارتفعت معه ، ففى هذا مارغبّك فيما أوصيك به ، فادخل عليه فى خاصّة أهل القرآن ، وذوى الأسنان ، فإنك منهم بين خصلتين ، إما أن يسمع منهم كلاما فيعِيَه ويحفَظَه فيكون لك صونه وذكره ، وإما أن يراهم الناس يخرجون من عنده فيرون أنكم على مثل ماهم عليه .

---

(١) السحر هو الرئة . (٢) القمن والقمين هو الخليق الجدير .

ولا تدخل عليه الفسّاق ولا شَرَبَةَ الخمر ، فإنك منهم بين خصلتين ، إما أن يسمع منهم كلاما قبيحا فيميه ويحفظه ويأخذ به فتريد تحويله عن ذلك فلا تقدر عليه، وإما أن يراهم الناس يخرجون من عندكم فيرون أنكم على مثل ماهم عليه .

وانظر إذا سمعت منه الكلمة العوراء فلا تؤنّبه بها [٢٦] فتُمَحِّكَه ، ولكن احفظها عليه ، فإذا قام من مجلسه فانقله إلى ماهو أحسن منه ؛ وإذا سمعت منه الكلمة المعجبةَ ففطِّن القوم لها ، فإنهم عسى ألا يكونوا فَهِمُوها وفهمتها باهتمامك بها، حتى يقوموا وقد سمعوا منه كلاما حسنا ، ويروونه عنه ، ويرفعونه به .

وإذا حضر الناس أبوابكم فعجلوا إذنهم ، ثم ليَحْسُنْ بِشْركم بهم ، وأطيبوا للناس طعامهم ، فإذا فرغوا من الغداء والعشاء فمن أحب أقام للحديث من قبل نفسه، ومن أحب انصرف إلى أهله ، فإن للناس حوائج عند زيارتكم ، وإذا أعطيتم أهل القرآن وحَمَلة العلم وأهل الفضل فإنكم تؤجرون على إعطائهم إلا أن يكون فى سبب النجدة أو وسيلة ، فإنكم ملوك ، والناس سُوق ، وإنما تسودون الناس ويطأون أعقابكم ببارع الفضل ولين الجناح .

قال الشاعر :

فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كَإِلْصَاقٍ بِهِ بَعْضَ الْهَوَانِ
وَلَمْ تَجْلِبْ مَوَدَّةَ ذِى وَفَاءٍ بِمِثْلِ الْبَذْلِ أَوْ لُطْفِ اللِّسَانِ

وخُذْه بعلم نَسَبِهِ فى العرب حتى لايخفى عليه منه قليل ولا كثير ، وعلّمه منازل القمر(١) ، وأنواع الخطب ، ومواضع الكلام ، ومعرفة الجواب .

وإن هو احتبس عن تأديبه ومُرُوءته فادخل عليه ، وإن كان مع أهله فى لحافه حتى تجرّ برجله إلى ما ينفعه الله به ، وإياك أن تكتم عليه ، فيؤدىَ ذلك إلىّ غيرُك، فأنزلَ لك عما يَسُرُّك [٢٧] إلى ما يَضُرُّك ، ولا يخرجَنَّ إلا مُعْتَمًّا ، ولا يركبَنّ

---

(١) علم الفلك والنجوم .

مَحْذُوفاً(١) ، ولا مَهْلُوبا(٢) ، ولا يُعقدنّ له ذنب دابة إلا من لَثَقٍ(٣) ، ولا يركبنّ سرجا صغيرا فتبدو منه أَلْيَتَاه كفعل الفُسّاق ، ولا يسيرنّ متلفتاً ولا طامحاً .

نخذه بهذه الخصال ، وزده من عندك ما استطعت ، فإنى سأقيس عقله اليوم وبعد اليوم ، فإن رأيته قد ازداد خيرا إلى ما كان عليه رُؤِى فضلُ أمير المؤمنين عليك ، وإن كانت الأخرى فلا تَلُم إلا نفسك .

وقد أَجْرَيْتُ عليك ألف درهم فى كل شهر ، سوى كسْوتك وجائزتك .

***

قالوا : وأوصى أَبْجَر بن جابر العِجْلِىّ فقال :

« يا بنى ، إن سرّكم طول البقاء وحسن الثناء والنِّكاية فى الأعداء ، فإذا استقبلتم الخميس(٤) فاستقبلوهم بوجوهكم ، وإياكم أن تمنحوهم أكتافكم فتُطْعَنوا بالرماح فى أَدْبارِكم(٥) ، فإن أمثل القوم بقيّة الصابر عند نزول الحقائق .

وحدثنا الرياشِىّ عن الأصمعى قال: قال أبجر العجلىّ لابنه حجّار لما أراد الإسلام: إذا قدمت المصر فاستكثر من الصديق ، فإنك على العدو قادر ، وإياك والخُطَب فإنها نِشْوارٌ(٦) كثيرُ العِثَار .

***

قال أبو حاتم ، وكان البذّال أبو العلاء ، وهو من بنى مازن بن عمرو بن تميم مَرِض، فقالوا : كيف تَجِدُك ؟

فقال : أجدنى مَغْفُوراً .

قالوا : يا أبا العلاء ، أَوْص .

(١) الفرس المحذوف هى التى تحرك جنبها أو عجزها فى المشى ، أو هى تدانى خطوها .
(٢) الفرس المهلوب هى التى تتقرب من الحصان أو هى المتجنبة له. ضد . (٣) اللثق هو البلل.
(٤) الخميس هو الجيش ، لأنه خمس فرق، المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة، والساقة.
(٥) أى ظهوركم . (٦) النشوار بالكسر ما تبقيه الدابة من علفها ، والمراد أن الخطب فيها فضل كلام لا يؤمن الصواب فيه ، فيعثر اللسان ، والعثار بالكسر هو الشر .

قال : بما أوصى ؟

ثم قال :

[٢٨] يَا ابْنَيْ حُرَيْثٍ ارْفَعَا وِسَادِي وَاسْتَوْصِيَا بِالجِلَّةِ التِّلَادِ[١]

فَإِنَّمَا حَوْلَكُمُ الْأَعَادِي

ثم قال : ما لكما عندى وصية غير هذا .

(وابنا حريث ابنا أخيه) .

* * *

وصية شبث بن ربعىّ

وأوصى شَبَث بن رَبْعِيّ فقال : هــذا ما أوصى به شبث بن ربعى ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجواد فى الجنة ، وأن البخيل فى النار .

انظروا ابنتى فلا تزوّجوها إلا كريما ، ولا تدفنونى عند مقابر بنى طُهَيَّة[٢] .

* * *

وصية وَكِيع بن أبى سُود

قال : وأوصى وَكِيع بن أبى سُود ، وكان أحمق النـاس ، وأظهر [هم][٣] موقا[٤] ، فقال :

« يا بَنِىّ ، إنّى لو قد هلكتُ أتاكم قوم قد شمّروا ثيابهم ، وحلقوا شواربهم ، وعفّروا جباههم ، فقالوا ، إن لنا على أبيكم دَيْنا فاقضوا دين أبيكم ، ألا وإنّ قِبَل أبيكم تبِعات إن يغفرها الله له فالدّين أهون مما هنالك ، وإن تكن الأخرى فلا يَهْلَكَنّ أبوكم وتذهبَ أموالكم » .

* * *

(١) الوساد كالوسادة المتكأ والمخدة ، ويثلث ؛ والجلة التلاد الأموال العظيمة .

(٢) طهية بالضم اسم قبيلة عربية . (٣) فى الأصل : وأظهره .

(٤) الموق هو الحمق فى غباوة .

وصية ابن الأهتم

قال لما ثقل ابن الأهتم أظهر ماله ودعا بنيه ، فقال :

« يا بَنِيّ ، دُونَكم (١) ، فقد كفيتكم كَدَّه ، وصَفَا لكم ما اشْتَهَيْتُم منه ، وإنما جمعته لنَبْوة الزمان ، وجَفْوة السلطان ، ومُباهاة العشيرة ، وأَيْم الله لَوَدِدْت أنه كان بين ضِلَعَىْ حمارٍ بالفَلَاة ، أو بقراء مقحل (٢) » .

* * *

وصية المهلب

قال : ولما حضرت [٢٩] المهلب الوفاة جمع بنيه فقال :

« أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فإن تقوى الله تعقب الجنة ، وإن صلة الرحم تُنْسِئ (٣) فى الأجل ، وتُثْرى المال ، وتجمع الشَّمل ، وتكثر المدد ، وتُعْمِرُ الدار ، وتعزّ الجانب ، وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم (٤ فإن معصية الله تعقب النار ، وإن قطيعة الرحم تورث القلّة والذِّلّة ٤) ، وتفرّق الجمع ، وتدع الدار بَلَاقِع (٥) ، وتطمع العدو ، وتُبْدِى العورة .

يا بَنِيّ ، قومَكم ، قومَكم ، إنه ليس لكم فضل عليهم ، بل هم أفضل منكم ، إذ فضَّلوكم وسوَّدوكم ، ووَطِئوا أعقابكم ، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم ، فلهم بذلك حقّ عليكم وبلاء عندكم ، لا تؤدُّون شكره ، ولا تقومون بحقّه ، فإذا طَلبوا فأطْلبوهم ، وإذا سألوا فأعطوهم ، وإن لم يسألوا فابتدأوهم ، وإن شتموا فاحتملوا لهم ، وإن غَشَوا أبوابكم فلتُفتحْ لهم ، ولا تُغلق دونهم .

يا بَنِيّ ، إنى أحب للرجل منكم أن يكون لفِعله الفضلُ على لسانه ، وأكره أن يكون للسانه الفضل على فعله .

---

(١) المسند إليه محذوف ، والمراد ، دونكم مالى الذى خلفته .

(٢) القراء الوعاء والإناء ، والمقحل أى المسدود . (٣) تؤخر .

(٤) زيادة فى هامش الأصل بخط مخالف . (٥) البلقع القفر .

يا بنىَّ ، اتقوا الجواب وزلّة اللسان ، فإنى رأيت الرجل يعثُر قَدَمُه فيقوم من زلّته ، فينتعش منها سَوِيًّا ، ويزلّ لسانه فيوبِقه(١) وتكون فيه هَلَكته ، يا بنىّ ، إذا غدًا عليكم رجل وراح فكفَى بذلك مسألةً وتذكرةً بنفسه(٢) ، يا بنى ، ثيابُكم على غيركم أجملُ منها عليكم ، ودوابُّكم تحت غيركم أجملُ [٣٠] منها تحتكم ، يا بنى ، أحيُوا المعروف وافعلوه ، واكرهوا المنكر واجتنبوه ، وآثروا الجود على البخل ، واصطَنِعوا العرب وأكرموهم ، فإن العربى تَعِدُه العِدَةَ فيموت دونك ، ويشكر لك ، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه فى احتمالها وشكرها ، والوفاء منها لصاحبها ؟ .

يا بنىّ ، سوِّدوا أكابركم وأعزّوا ذوى أسنانكم تَعظموا بذلك ، وارحموا صغيركم ، وقرِّبوه ، وألطفوه ، وأجيروا يَتيمَكُم ، وجودوا عليه بما قدرتم ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، وتعهّدوا جيرانكم وفقراءكم بما قدرتم عليه ، واصبروا للحقوق ، واحذروا عار عدوّكم عليكم فى الحرب بالأناة والتؤدة فى اللقاء ، وعليكم بالتماس الخديعة فى الحرب لعدوّكم ، وإياكم والنزق والعجلة ، فإن المكيدة والأناة والخديعة أنفع من الشجاعة .

واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر ، فإذا كان القضاء عند اللقاء ، فإن ظفر امرؤ وأخذ بالحزم قال العاقل : قد أتى الأمر من وجهه ، وإن لم يظفر قال : ما ضيّع ولا فرّط ، ولكن القضاء غالب ، فالزموا الحزم على أى الحالين وقع الأمر ، والزموا الطاعة والجماعة ، وإياكم والخلاف وفِراق الجماعة ، تواطأوا ، وتوازروا ، وتواصلوا ، وتَعاطفوا فإن ذلك يثبت المودّة ، وتحابّوا ، وخذوا فيما أوصيكم به بالجدّ والقيام به تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها [٣١] وآخرتكم إذا صرتم إليها ، ولا قوة إلا بالله ، وليكن أول ما تبدءون به أنفسكم إذا أصبحتم ، تعلّموا القرآن والسنن والفرائض ، تأدّبوا بأدب الصالحين من قبلكم ، من سَلَفِكم الصالح ، ولا تُقاعدوا أهل الدّعارة

---

(١) يوبق : يهلك. (٢) المعنى ، لاتلجئوا النازل عليكم إلى إراقة ماء وجهه ، فكونوا نبهاء.

والريبة ، ولا تخالطوهم ، ولا يطمعن فى ذلك منكم ، وإياكم والخفة فى مجالسكم وكثرة الكلام ، فإنه لا يسلم منه صاحبه ، وأدُّوا حق الله عليكم فإنى قد أبلغت إليكم الوصية ، واتّخذت لله عليكم الحجّة » .

***

قال : وتُوُفِّىَ المهلّب رحمه الله تعالى بمَرْو الروذ بخراسان ، فقال نهار بن تَوْسِعة :

أَلَا ذَهَبَ الْغَزْوُ الْمُقَرِّبُ لِلْغِنَى ... وَمَاتَ النَّدَى وَالْحَزْمُ بَعْدَ الْمُهَلَّبِ
أَقَامَ بِمَرْوِ الرُّوذِ رَهْنَ ثَوَابِهِ ... وَقَدْ غُيِّبَا عَنْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ

قالوا: ثم وَلِىَ بعده قُتَيبة بن مُسلم الباهلىّ ، فدخل عليه نهار بن تَوْسِعة ، فقال له قتيبة :

— أأنت القائل فى المهلب ، ألا ذهب الغزو ؟

فقال : أنا الذى أقول :

مَا كَانَ مُذْ كُنَّا وَلَا كَانَ قَبْلَنَا ... وَلَا هُوَ فِينَا كَائِنٌ كَابْنِ مُسْلِمِ
أَعَمَّ لِأَهْلِ الشِّرْكِ قَتْلًا بِسَيْفِهِ ... وَأَقْسَمَ فِينَا مَغْنَمًا بَعْدَ مَغْنَمِ

فقال : إن شئت فأقلل ، وإن شئت فأكثر ، والله لا تصيب منى خيرا ، يا غلام ، حلّق على اسمه .

ولزم منزله حتى وَلِىَ يزيد بن المهلب خراسان ، فأتاه نهارٌ ، فدخل عليه ، وأنشأ يقول :

إِنْ يَكُ ذَنْبِى يَا قُتَيْبَةُ أَنَّنِى ... بَكَيْتُ امْرَأً فِى الْمَجْدِ قَدْ كَانَ أَوْحَدَا
[٣٢] أَبَا كُلِّ مَظْلُومٍ وَمَنْ لَا أَبَا لَهُ ... وَغَيْثَ مِغْيَاثٍ أَطْلَنَ التَّلَدُّدَا(١)
فَشَانَكَ ، إِنَّ اللهَ إِنْ سُؤْتَ مُحْسِنٌ ... إِلَىَّ إِذَا أَبْقَى يَزِيدًا وَمَخْلَدَا

فقال له : احتَكِم .

قال : مائة ألف .

فأعطاه مائة ألف درهم .

---

(١) التلدد : التلفت ، والمعنى أن كرم يزيد بن المهلب قد عم النواحى .

ويقال : إن مَخلد بن يزيد بن المهلب هو الذى أعطاه ، لأن أباه قد كان قَدَّمه خليفَتَه على خراسان ، فـكان يقول بعد موت مخلد : رحم الله مَخْلَدا ، ما ترك لى بعده من قول .

***

قالوا : وقدم قيس بن زهير على النَّمِر بن قاسِط بعد الهَبَاءة[١] ليقيمَ فيهم ، فقال: يا معشر النمـر ، أنا قيس بن زهير ، غريب ، حَرِيب[٢] ، فانظروا إلى امرأة قد أذلّها الفقر وأدّبها الغنى ، لها حَسَب وجمال ، فزَوِّجُونيها .

فنظروا له امرأة على ما وصف ، يقال لها « ظَبْيَة » ابنة الـكيّس النمرىّ .

فقال لهم : إنى لا أقيم فيكم ، إنى فَخُور غيُور آنِف ، ولمّنى أن لا أغار حتى أرى ، ولا أفخر حتى أسمع ، ولا آنف حتى أظلم .

فأقام حتى وُلِد له غلام، فسمّاه «خليفة» ، ثم بدا له أن يرتحل عنهم ، فقال لهم: « إن لـكم علىّ حقًّا، وإنى أوصيكم بخصال فاحفظوها ، عليـكم بالأَناة فإن بها تُنال الفرصة ، وتَسْوِيدِ من لا تُعابون بتَسويده ، والوفاء ، فإن به يعيش النـاس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنعِ ما تريدون منعه قبل القَسْر ، وإجارةِ الجار على الدهر ، وتنفيسِ المنازل عن بيوت الأيامى[٣] ، وخلطِ الضيف بالعِيال .

[٣٣] وأنهاكم عن الرِّهان فإنى به أَثْكَلت مالـكا ، وعن البَغْى فإنه صرَع زُهَيْرا ، وعن السَّرَف فى الدماء ، فإنّ قَتْلَ أهلِ الهَبَاءَة ألزمنى العار ، ولا تعطوا فى الفضول فتعجزوا عن الحقوق، ولا تبيتوا بعِراص[٤] الغدر، وإياكم وعَوْرات الناس، ولا تردّوا النساء عن الأَكْفاء فإن لم تصيبوا الأكفاء فإن خير أزواجهن القَبْر ،

(١) إشارة إلى الحرب الشديدة التى وقعت بينه وبين حى من العرب ، اسمه هبء بسبب سباق داحس والغبراء المشهورة . (٢) الحريب من سلب ماله. (٣) الأيامى جمع أيم، وهى من لا زوج لها ، بكرا أو ثيبا ، ومن لا امرأة له . (٤) جمع عرص بالفتح ثم السكون ، مثل العرصة ، وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وقد جاء فى القاموس المحيط أنه (العرس) وأن المحدثين يلحنون فيجعمون الصاد .

واعلموا أنى أصبحت ظالما مظلوما، ظلمتنى بنو بَدْر بِقَتْلِ مالك، فَقَتَلْت من لا ذنب له.

ثم قال :

إنَّ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ أَوْرَثَنِى الذُّ ... لَّ فَأَصْبَحْتُ ظَالِماً مَظْلُومَا
كانَ ظُلْمِى قَتْـلَ سَرَاةَ بَنِى بَدْ ... رِ فَأَصْبَحْتُ بَعْدَهُمْ مَرْحُومَا
فَخَضَبْتُ السِّنَانَ مِنْ ثُغْرِ القَوْ ... مِ وَكانُوا لِلنَّاظِرِينَ نُجُـومَا
كانَ ثَارِى لِمَالِكِ بنِ زُهَـيْرٍ ... وَاحِـدًا كانَ فِيهِمُ مَعْلُومَا
فَقَتَلْتُ الْجَمِيعَ مِنْ حَذَرِ الثُّكْ ... لِ ، لَقَدْ كُنْتُ فِى الدِّمَاءِ نَهُومَا
كانَ ظُلْمِى ، وَكانَ ظُلْمُهُمُ أَمْ ... سِ عَظِيماً وَرَأْيُهُمْ مَوْصُومَا
لَطَمَ الْقَوْمُ دَاحِسًا حَذَرَ السَّبْ ... قِ ، لَقَدْ كانَ دَاحِسٌ مَشْئُومَا
ظَلَمُونَا بِقَتْلِنَا وَظَلَمْنَا ... مَعْشَرًا كانَ يَوْمُهُمْ مَحْتُومَا
إنَّ لِلنمر فِى إجَارَتِهَا الْجَا ... رَ وَأَمْنِ الطَّرِيدِ حَظًّا عَظِيماَ
يَأْمَنُ الْجَارُ فِيهِمْ وَتَرَى وَسْ ... طَهُمْ ذَا خُئُولَةٍ مَعْمُومَا
يَمْـلأُ الدَّلْوَ قَبْـلَ دَلْوِ أَخِى النَّمْـ ... ـرِ ، وَمَا حَوْضُ جَارِهِمْ مَهْدُومَا[١]

* * *

وصية مجاشع

ذكروا أن مجاشعَ بن شُرَيف ، أو مخاسِن [٣٤] بن معاوية بن شُرَيف قال فى حرب النعمان بن الشُّقَيِّقَة[٢] :

« يا بنى تميم ، أقلُّ الناس رحمةً الملوكُ ، إن الملوكَ يُنَكِّلون بالشقىّ السعيد ، ومَنْجاةُ من نَاوَأَ الملوكَ الصبرُ وكتمانُ السرّ ، وأول الظفر الاجتماع ، وأول البلاء الفشل ، وآفة الكرم جوار اللئام ، وقد غلب على الكرم من سبق إليه ، احفظوا

(١) المعنى أن قبيلة النمر قوية شديدة البأس، يقدمون غيرهم .
(٢) الشقيقة بالتصغير ، اسم جدة النعمان بن المنذر .

ألسنتكم يَمْمَ على عدوكم كيدُكم ، إنه من كتم سِرّه عَمِىَ كيْدُه على عدوه » .

* * *

وصية أسيد بن أوس

ذكروا أن أُسَيْد بن أوس انطلق إلى الحارث بن الهبولة الغسانى ، وكان أسيد أخا معاوية بن شُرَيف لأمه ، وأمهما مَاوِيّة بنت الرضا البارقىّ ، يستمدّه فى حرب ابن الشقيقة ، فلما قدم عليه قال :

« إنما يُوثَق فى الشدّة بذى القرابة ، وبصفاء الإخوان ، وبصدق أهل الوفاء ، إن خير السجيّة ما لم يُتكلّف ، وخير الأعوان على البخل السخاء ، والعفوُ منتهى البِرّ ، الزم البرّ يَبَرُّك بنوك ، أخِّر الغضب وادفع بالأناة ، وآخر الدواء الكىّ ، وخير الثواب الشكر ، وخَطَل القول غَواية ، ومنتهى البرّ الهوى ، والصدق تمام المروءة ، والكذب يفسد الفعَال ، وتصرّف الأحوال يغيّر الرجال ، وأغنى الخصال عن المادة العَفاف ، وخير السِّيرة العفو ، وترك العقوبة يسلّ السَّخِيمَةَ » .

* * *

[٣٥] وصية صيفى بن رياح

ذكروا أن صيفى بن رياح أبا أكثم بن صيفى قال :

« سلطانك على أخيك على كل حال ، فإذا أخذ السيفَ فلا سُلطان لك عليه ، وكفى بالمشرِفيّة[١] واعظا ، وترك الفخر أبقى للثناء ، وأسرعُ الجرْم عقوبةً البغىُ ، وشر النَّصْرة التعدّى ، وألأم الأخلاق أضيقُها ، ومن سوء الأدب كثرة العتاب ، واقرَعْ الأرض بالعصا[٢] » . فذهبت مثلا .

* * *

(١) السيوف الجيدة ، وتنسب إلى مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تشارف أرض بلاد العجم . (٢) القرع بالفتح : الضرب ، والمراد أن ينبه الإنسان صاحبه عند خطئه ، وأصل المثل أن عامر بن الظرب طعن فى السن ، وأنكر قومه من عقله شيئا ، فقال لبنيه : إذا رأيتمونى خرجت من كلامى وأخذت فى غيره فاقرعوا إلى المجن بالعصا ، فكانوا يقرعونه والأرض.

وصية أبي جهم بن حذيفة العدوىّ

قال أبو حاتم ، وحدثنا الثِّقَةُ عن أبي يعقوب الثقَفِي عن عبد الملك بن عُمَير اللخمِيّ قال : جاء أبو جهم بن حُذَيفة العَدَوىّ ، وهو يومئذ ابن مائة سنة إلى مجلس لقريش ، فأوسعوا له عن صدر المجلس (وقائل يقول ، بل كان عُرْوَةُ بنُ الزبير) .

فقال أبو الجهم : يا بَنِي أخى ، أنتم خيرٌ لكبيركم من مَهْرَة لكبيرهم .

قالوا : وما شأن مهرة وكبيرهم ؟

قال : كان الرجل منهم إذا أسنّ وضعف أتاه ابنه أو وليُّه فعَقَلَه[1] بعقال ، ثم قال : قم . فإن اسْتَتَمّ قائما ، وإلّا حمله إلى مجلس لهم يُجرى على أحدهم فيه رزقه حتى يموت ، فجاء شابّ منهم إلى أبيه ، ففعل ذلك به ، فلم يستتمّ قائما ، فحمله ، فقال : يا بُنَىّ ، أين تذهب بى ؟ فقال : إلى سُنَّة آبائك . فقال : يا بنى ، لا تفعل ، فوالله لقد كنتَ تمشى خلفى فما أُخَلِّفُك ، وأُمَاشِيك فما أُبُذُّك (أى أسبقك) ، وأسقيك الدُّوَايَة (يعنى اللبن) قائما .

وكانت العرب إذا أُسْقِىَ الغلام اللبَن قائما [٣٦] كان أسرع لشبابه .

فقال : لا جرَم ، لا أذهب بك .

فاتّخذته مَهْرَة سُنَّة .

***

وصية أبي الأسود الدؤلي

وأوصى أبو الأسود الدؤلى ابنته ليلة البِناء بها فقال :

« يا بُنية ، كان النساء أحقّ بأدبِكِ منى ، ولكن لابد لى منه ، يا بنية ، إن أطيبَ الطيبِ الماء[2] ، وأحسن الحسن الدُّهن ، وأحلى الحلاوة الكُحْل ، يا بُنَيّة ، لا تكثرى مباشرةَ زوجك فيمَلّكِ ، ولا تبَاعَدِى عنه فيجْفُوكِ ، ويعتَلّ عليك ، وكونى كما قلت لأمّك :

(١) العقل هو أن يشد وظيف البعير إلى ذراعه ، وعقل الرجل شد ساقه إلى فخذه .
(٢) المعنى : أن النظافة بالماء خير من الطيب مع الوسخ .

خُذِى الْعَفْوَ مِنِّى تَسْتَدِيِمى مَوَدَّتِى ‏ وَلَا تَنْطِقِى فِى سَوْرَتِى حِينَ أَغْضَبُ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الْحُبَّ فِى الصَّدْرِ وَالْأَذَى ‏ إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ

***

وصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قالوا : أوصى أبو بكر عمرَ بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، فقال :

« إن لله عملا بالليل لا يَقْبَله بالنهار ، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل ، إنه لا يقبل نَافِلَةً حتى تؤدّى الفَرِيضَة ، فإنه إنمـا ثَقُلت موازين من ثقلت موازينهُ يوم القيامة باتِّباعهم الحقَّ ، وثقله عليهم ؛ ويحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق غدًا أن يكون ثقيلا ، وإنما خفَّت موازين من خَفَّت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الباطلَ فى الدنيا وخِفّته عليهم ، ويحقّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا ؛ إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئهم ، فإذا ذكرتُهم قلتُ إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء [٣٧] ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، وتجاوز عن حسنهم ، فإذا ذكرتُهم قلتُ إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة وآية العذاب لِيَكُون العبد راغبا راهبا لا يتمنّى على الله غير الحق ، ولا يُلقى بيديه إلى التَّهْلُكَة ، فإن حفظت وصيتى فلا يكونَنّ غائبٌ أبغض إليك من الموت ، ولست بِمُعْجِزِه .

***

قالوا : وقال ابن دابٍ ، قالت أسمـاء بنت عميس : دخل عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما فى اليوم(١) الذى قُبض فيه .

فقال : ياعمر ، صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيتُ أُثْرَته إيَّانا على أهله ، ووالله إن كنا لنرسل إليهم من فَضْلةِ ما يأتينا منه ، وصحِبْتَنى ورأيتنى ، فوالله مانمت فحلمتُ ، ولا توهّمت فشبِّه لى ، وإنى لعلى بصيرة من رأى .

(١) كانت وفاة أبى بكر لثمان بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ .

ياعمر ، إن أول ما أحذّرك به نفسُك ، فإن لكل نفس شهوةً ، فإذا أجابتها إليها دعتها إلى ماهو أعظم منها ، وأحذّرك هؤلاء الرهطَ من المهاجرين ، فإنى قد رأيتهم طَمَحَتْ أبصارهم ، ونفختْ أجوافهم ، وتمنّى كل امرئ منهم لنفسه ، فاحملهم على الطريق الواضح يَكْفُوكَ أنفسهم ، واعلم أنهم لن يزالوا لك هايبين ماهِبْتَ اللهَ عزّ وجل ، فَرِقين منك مافرَقْت منه .

هذه وصيتى إياك ، وأقرأ عليك السلام .

***

وصية عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه .

وذكروا عن قطَر بن خليفة وغيره أن عمر [٣٨] بن الخطاب دعا عبدَ الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، فقال :

«أى بُنَىّ ، إذا قام الخليفة بعدى فائْتِه ، فقلْ له ، إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يُقرِئك السلام ، ويوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له ، ويوصيك بالمهاجرين والأنصار ، أن تقبل من محسنهم ، وتتجاوز عن مُسيئهم ، ويوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم غيظُ العدوّ وجُباة الفَئ ، لا تحمل فَيْئَهم إلاعن فضل منهم ، ويوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العِرب ومادّة الإسلام ، أن تأخذَ من حواشى أموالهم فيُرَدَّ على فقرائهم ، ويوصيك بأهل الذمّة خيرا ، أن تقاتل مِنْ ورائهم ولا يكلّفوا فوق طاقتهم .

***

وصية على بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

قال أبو حاتم ، وحدثونا عن أبى مِخْنَف قال ، حدثنى عبد الرحمن بن جُندب عن أبيه قال ، دخلت على على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أسأل به لمّا ضربه ابن مُلْجَم ، فقمت قائما ، ولم أجلس لمكان ابنته ، دخلت وهى مستترة ، وهى مُشتهرة ، فدعا علىٌّ الحسنَ والحسينَ ، رضوان الله عليهم ، فقال :

« أوصيكما بتقوى الله ، ولا تَبْغِيا الدنيا وإن بَغَتْكما ، ولا تَبْكِيا على شئ منها زُوِىَ عنكما ، قُولَا الحق ، وارْحَما اليتيم ، وأَعِينا الضائع ، وأضيفا الجائع ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم عَوْنا ، ولا تَأْخُذْكُما فى الله لومة لائم .

ثم نظر إلى ابن الحنفية ، فقال :

— هل فهمت ما أوصيتُ [٣٩] به أَخَويك ؟

قال : نعم .

قال : أوصيك بمثله ، وأُوصيك بتَوْقِير أخويْك ، وتَزْيين أمرهما ، ولا تقطع أمرا دونهما .

وقال لهما : أوصيكما به ، فإنه شَقِيقُكما ، وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّه ، فأحبّاه .

وذكر آخرون عن إبراهيم بن أيوب الأَسَدى قال ، حدثنى عمرو بن شَمِر عن جابر الْجُعْفِىّ عن محمد بن علِىّ قال :

أوصى علىّ الحسنَ بن على رضى الله عنهم ، هذا ما أوصى به على بن أبى طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، ثم إن صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أُمِرْت ، وأنا أول المسلمين .

وإنى أوصيك ياحسن وجميع ولدى ومن بلغه كتابى هذا بتقوى الله ربِّكم ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا ، فإنى سمعت حبيبى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : صلاحُ ذات البين أفضل من عام الصيام والصلاة ، انظروا ذوى أرحامكم فصِلوهم يهوّنْ الله عليكم الحساب ، واللهَ اللهَ فى الأيتام ، فلا تغيّرنّ أفواههم بحضرتكم ، واللهَ ، الله فى الضَّعيفَيْن ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : أوصيكم بالضعيفين خيرا .

واللهَ ، اللهَ فى القرآن فلا يسبقكم [٤٠] بالعمل به غيرُكم ، واللهَ ، اللهَ

فى الصلاة ، فإنها عمود دينكم ، واللهَ ، اللهَ فى الزكاة فإنها تطفىء غضب ربكم عنكم ، واللهَ الله فى صيام رمضان فإن صيامه جُنَّة لكم من النار ، واللهَ ، اللهَ فى الحج فإن بيت الله إذا خَلَا لَمْ تُنَاظَرُوا ، واللهَ ، الله فى الفقراء والمساكين ، فشاركوهم فى معايشكم وأموالكم . .

عليكم يا بَنِىَّ بالبر والتواصل والتَّبَارّ[1] ، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق ، وتعاونوا على البِرّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، حفظكم الله من أهل بيتٍ ، وحفِظ فيكم نبيَّكم ، صلى الله عليه وسلم .

* * *

حدثنا أبو حاتم قال ، وأخبرونا أن ابن مُلجم خطب امرأة[2] ، وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذكروا أنه قتل أخاها ، فقالت :

— أتزوّجك على ثلاثة آلاف[3] ، وعَبْدٍ ، وقَيْنَة[4]، وقتل على بن أبى طالب.

فقال : لك الثلاثة الألف ، والعبدُ ، والقينةُ .

فأبى أن يقتل لها عليّا .

فقالت : والله ، لا أُنْكِحُكَ نفسى .

ثم جاد لها بعدُ بقتله .

فخرج ، فضربه بسيفه فى رأسه ، فقتله ، فقُتِل .

ثم أتى به دار المرأة ، فأشرفت وهم يحرقونه . فقالت :

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَعَبْدٍ وَقَيْنَةٍ ... وَقَتْلُ عَلِىٍّ بِالْحُسَامِ الْمُصَمِّمِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِىٍّ وَإِنْ غَلَا ... وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجَمِ

---

(١) التبار هو البر . (٢) هى الرباب ابنة قطام ، وكانت قطام ترى رأى الخوارج.
(٣) ثلاثة آلاف درهم (راجع صحيفة ٢١٣ من كتاب الأخبار الطوال للدينورى طبعة مكتبة عيسى الحلبى سنة ١٩٦٠) . (٤) القينة هى الجارية .

قال : فلما غيَّبَه الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، صعد المنبر ، [٤١] فجعل يريد الكلام ، فتخنقه العَبْرة .

(١)(قال رجل : فرأيته كذلك وأنا فى أصل المنبر أنظر إليه ، وكنت من أنْزَرِ الناس دَمْعَةً ، ما أقدر أن أبكى من شىء ، فلما رأيت الحسن يريد الكلام ، وتخنقه العبرة)(١) صرتُ بعدُ من أغزر الناس دَمْعَة ، ما أشاء أن أبكى من شىء إلا بكيت .

قال : ثم إن الحسن انطلق ، فقال ، الحمــد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، نَحْتَسِبُ عنــد الله مُصابَنا بأبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا لن نصاب بمثله أبدا ، ونحتسب عند الله مصابنا بخير الآباء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إنِّى لا أقول فيه الغَداةَ إلا حقا ، لقد أصيبت به البلاد والعباد والشجر والدواب ، فرحم الله وجهه ، وعذّب قاتله .

ثم نزل ، فقال : عَلَيَّ بابن مُلْجَم .

فأتى به .

فإذا رجلٌ وَاضِحُ الجبين والثَّنَايَا ، له شعر وارِد (يعنى طويلا) يُخْطَرُ به حتى وقف ، فلم يُسَلِّم .

فقال : يا عدوّ الله ، قتلتَ أميرَ المؤمنين ، وخَيْرَ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : يا حَسَنُ ، دَعْنِى من كلامك هــذا ، هلْ لك فى أَمْرٍ أَعْرِضُه عليك ، لا بأس لك به إن قَبِلْتَه .

قال : وما هو ؟

قال : أسير إلى معاوية بالشام ، عدوّى وعدوّ أبيك فأَرُوم قتله ، فإن قتلته كنتُ قد قتلتُ أَعْدى الناس لكم ، وإن لم أقتله قُتِلْت فأنا مقتول فى كِلتا الحالتين .

قال : لا والله يا عدوّ الله حتى أنفذ فيك ما أمرنى به أمير المؤمنين .

(١) ما بين القوسين مكتوب بخط مخالف لخط المتن على هامش المخطوط .

قال : وما الذى أمرك به أبوك ؟

قال : جمعنا ، فقال ، يا بَنِىّ[1] ، إياكم أن تخوضوا فى [٤٢] دماء المسلمين ، وأن تقولوا ، قُتِل أمير المؤمنين ، أَلَا لا يُقتَلَنّ فِىّ إلا قاتلى ، وضَرْبَةٌ بضربة ، فإياك يا حسن والمُثْلَة[2] ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ، ولو بالكلب العَقور .

قال ، يقول عبد الرحمن بن ملجم ، والله إن كان أبوك ما عَلِمْنا لَعدْلا فى الرضى والغضب إلا ما كان منه يوم صفّين ، حين حكم فى دين الله ، أَفَشَكَّ أبوك ، أىْ بُنَىّ ، فى دينه ؟

فضربه ضربة ، تلقاه[3] بخنصره ، فقطعها . ثم ضربه أخرى فى الموضع الذى ضرب فيه أباه ، فقتله .

***

وحدّثونا ، أن معاوية رحمة الله عليه فَخَر يوما والحسن جالس .

فقال معاوية : أنا ابن بطحاء مكة ، أنا ابن أغْزَرها جُودا ، وأكرمها جُدُودا ، أنا ابن من ساد قريشاً فَضْلًا ، نَاشِياً وكَهْلًا .

فقال الحسن رضى الله عنه ، أَعَلَىّ تفتخر يا معاوية ؟ أنا ابن عُروق الثَّرَى ، أنا ابن مَأْوى التُّقَى ، أنا ابن من جاء بالهدى ، أنا ابن من ساد الدنيا بالفضل السابق والجود الرائق والحَسَب الفائق ، أنا ابن من طاعته طاعة الله ، ومعصيته معصية الله ، فهل لك أبٌ كأبى تُباهِينى به ، أو قديم كقديمى تُسامِينى به ؟ قل ، نعم ؛ أو ، لا .

قال : بل أقول ، لا ، وهى لك تصديق .

فقال الحسن :

اَلْحَقُّ أَبْلَجُ مَا يَخِيلُ سَبِيلُهُ ... وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوُو الْأَلْبَابِ[4]

***

(١) فى الأصل : يابنى عبد الملك ، ولعل عبد الملك زيادة من الناسخ ، نتيجة خطأ فى النظر.

(٢) المثلة هى المبالغة فى القصاص . (٣) الضمير يعود على السيف المفهوم من الكلام .

(٤) بلج الصبح : أضاء وأشرق كأبلج ، وكل متضح فهو أبلج ، والإبليجاج الوضوح . وسبيل الحق معروف غير مظنون ؛ وذوو الألباب هم أصحاب العقول .

قال ، وحدثونا عن أبى نُعَيْم عن إسماعيل بن إبراهيم بن المُهاجر قال: [٤٣] سمعت عبدالملك بن عُمَير قال ، حدثنى رجل من ثَقِيف قال : استعملنى علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنه على عَـكْبَرا[١] ، ولم يكن السواد[٢] يسكنه المصلون[٣] فقال لى بين أيديهم ، اسْتَوْفِ خَرَاجَهم منهم ، فلا يجدوا فيك ضَعْفا ولا رُخْصَة ، ثم قال لى ، رُحْ إلىّ عند الظهر . فرُحْنا إليه ، فلم أجد عليه حاجبا ، يَحْجُبُنى دونه ، ووجدته جالسا ، وعنده قَدَح ، وكُوزٌ من ماء .

فدعا بِظَبْيَة (يعنى جرابا صغيرا) .

فقلت فى نفسى لقد أمِنَنى حين يُخرج إلىّ جَوْهرا ، فإذا عليها خاتَم[٤] .

فـكسر الخاتم ، فإذا فيها ، سُوَيْق .

فصبّه فى القِدَح ، فشرب منه ، وسقانى ، فلم أصْبِر .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتصنع هذا بالعراق ؟ طعامُ العراقِ أكثر من ذلك .

فقال : إنما أشترى قدر ما يكفينى ، وأكره أن يُفـنَى فَيَضَعُ فيـه غيْره ، فإنى لم أختم غليه بُخْـلًا عليه ، وإنما حفظى لذاك ، وأنا أكره أن أدخل بطنى إلا طيّبا ، وإنى قلت لك بين أيديهم الذى قلت لك لأنهم قوم خُدْع ، وأنا آمرك الآن بمـا تأخذهم به إن أنت فعلت ، وإلا أخذك الله به دونى ، وإن بلغنى عنك خلاف ما آمرك به عزلتك .

لا تبيعنّ لهم رزقاً يأكلونه ، ولا كُسْوَةَ شتاء ولا صيف ، ولا تضربنّ رجلا منهم سوطا فى طلب درهم ، فإنا لم نُؤْمر بذلك ، ولا تبيعنّ لهم دابّة يعملون عليهـا ؛ إنّا أُمِرْنا أن نأخذ منهم العفو .

قال : إذَنْ أجيئك كما ذهبت .

قال : وإن فعلتَ .

---

(١) بلد من بلاد العراق . (٢) الأرض الزراعية بين نهرى دجلة والفرات .

(٣) المراد المسلمون . (٤) أى مغلقة .

[٤٤] قال : فذهبتُ ، فتتَبّعت ما أمرنى به ، فرجعت ، ووالله ما بقى درهم واحد إلا وفّيته .

***

وصية معاوية رحمة الله عليه

قالوا : وأخبرونى أن معاوية لما حضرته الوفاة قال لابنه يزيد :

« إنى كفيتك الحلِّ والترّحال ، أو قال الرّحْل والترحال ، ووطّأتُ لك الأشياء ، وذلّلت لك الأعِزّاء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك ما جَمَعَ وَاحِدٌ ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، فأكْرِمْ مَنْ قَدِم عليك منهم ، وتعهّد من غاب عنك منهم ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم فى كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عامل أحبُّ إليك من أن يُشْهَرَ عليك مائة ألف سيف ؛ وانظر أهل الشام فليكونوا بِطانتك وعَيبتك(١) ، وإذا أصبت بهم عدوّك فارْدُدهم إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

وإنى لست أخاف عليك من قُرَيش إلا الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهم ؛ فأما الحسين ، فإن له رَحِما وحقّا عظيما ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أُوتَى به عفوتُ عنه ؛ وأما ابن عمر ، فيُقيِّده إيمانه ؛ وأما ابن الزبير فخَبٌّ(٢) ، ضبّ(٣) ، يَجْثُم لك جُثُوم الأسد ، ويروغ رَوَغان الثعلب ، فإن أمكنته الفرصة وَثَب ، فإن فعل فقدرت عليه أن تقطّعه إرَبًا إرَبًا فافعل » .

قال ، وحدّثونا عن ابن عَيّاش المَنْتُوف قال ، لما حضر معاويةَ [٤٥] الموت ، ويزيد ابنه غائب ببيت المقدس ، وقال آخرون ، بل فى الصيد ، دعا معاويةُ مسلم ابنَ عُقبة المُرّىّ ، والضَّحّاك بن قَيْس الفِهْرِىّ ، فقال :

« أبلغا يزيدَ عنّى قوْلاً ، قولَا له ، انظر أهل العراق فإن سألوا عَزْل عامل

---

(١) العيبة هى موضع سر الرجل . (٢) الخب هو المخادع الخبيث الغشاش .

(٣) الضب هو الغيظ والحقد .

فى كل يوم فاعزل عنهم ، فإن عزل عامل أهون من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى على ما أنت منهم ، وانظر أهل الشام فاجعلهم الشعار والدثار، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا فى بلاد غيرهم ، فيتأدبوا بغير أدبهم .

إنى لست أخاف عليك غير عبدالله بن عمر ، وحسين بن على ، وعبدالله بن الزبير، فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه[1] الورع ، ولا والله ، لا تؤتى من قبله ، وأما حسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا طلع فاثبت له ، فقلما مارست رجلا مثله ، فوالله لو قذفته فى بئر مملوءة زفتاً لخرج منه متملسا » .

قال ، فمات معاوية .

فقام الضحاك بن قيس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان حد العرب ، وفخر العرب ، وهذه أكفانه ، نحن مدرجوه فيها ، ومخلون بينه وبين ربه ، فمن أراد حضوره فليحضر بعد الظهر » .

فصلى عليه الضحاك بن قيس .

وقال ابن خريم الأسدى :

[٤٦] أَبَى الْحَدَثَانِ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ   بِمِقْدَارٍ صَمَدْنَ لَهُ صُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً   وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودَا

وقال ابن الكلبى عن أبى عبد الرحمن المدنى قال ، لما حضر معاوية الموت. جعل يقول :

إِنْ تُنَاقِشْ يَكُنْ نِقَاشُكَ يَارَ   بِّ عَذَاباً ، لَا طَوْقَ لِي بِالْعَذَابِ
أَوْ تُجَاوِزْ فَأَنْتَ رَبٌّ رَحِيمٌ   عَنْ مُسِيءٍ ، ذُنُوبُهُ كَالتُّرَابِ

وأما ابن داب فقال ، لما ثقل معاوية بعث إلى يزيد ابنه ، وهو فى بعض ضياعه ،

(١) المعنى غلب عليه الورع .

فأتاه غلام له ، يقال له « عَجْلان » فأخبر بثقله ، فأقبل ، وقال فى ذلك شعرا :

جَاءَ الْبَرِيدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُبُّ بِهِ ... فَأَوْجَسَ الْقَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ جَزِعَا
قَالُوا ، لَكَ الْوَيْلُ ، مَا فى كِتَابِكُمُ ... قَالُوا ، الْخَلِيفَةَ أَمْسَى مُدْنِفاً وَجِعاَ
فَمَادَتِ الْأَرْضُ أَوْ كَادَتْ تَمِيدُ بِنَا ... كَأَنَّ أَغْبَرَ مِنْ أَرْكَانِهَا انْصَدَعَا
مَنْ لَا تَزَلْ نَفْسُهُ تُوفِى عَلَى شَرَفٍ ... تُوشِكْ مَقَادِيرُ تِلْكَ النَّفْسِ أَنْ تَقَعاَ
لَمَّا انْتَهَيْنَا وَبَابُ الدَّارِ مُنْصَفِقٌ ... لِصَوْتِ رَمْلَةَ رِيعَ الْقَلْبُ فَانْصَدَعَا(١)

فلما دخل على معاوية خَلَا به ، وأخرج عنه أهل بيته .

فقال : يا بُنَىّ ، قد جاء أمر الله ، وهذا أوانُ هلاكى ، فما أنت صانع بهذه الأمة من بعدى ؟ فمن أجلك آثرت الدنيا على الآخرة ، وحملت الوِزْر على ظهرى لتعلو بنى أبيك .

قال يزيد : آخذهم بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، آخذهم به ، وأقتلهم عليه .

فقال : أولا تسير بسيرة أبى بكر الذى قاتل أهل الردّة ، ومضى والأمة عنه راضون ؟

قال : لا ، إلا بكتاب الله وسنّة نبيّه ، آخذهم به ، وأقتلهم عليه .

قال : أولا تسير بسيرة عمر الذى مصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، وفرض العطيّة ، وجبى الفىء ، وقاتل العدوّ ، ومضى والأمّة عنه راضون .

قال : لا ، إلا بكتاب الله وسنة رسوله ، آخذهم به ، وأقتلهم عليه .

قال : أولا تأخذ بسيرة عثمان عمك الذى أكل فى حياته ، وَورّث فى مماته ، واستعمل أقاربه ؟

قال : لا ، إلا بكتاب الله وسنة نبيه ، آخذهم به وأقتلهم عليه .

قال : أَوَلَا تسير بسيرة أبيك الذى أكل فى حياته وورث بعد وفاته ، واحتمل الوزر على ظهره ؟

(١) الباب منصفق أى مغلق .

قال : لا إلا بكتاب الله وسنّة نبيه ، آخذهم به وأقتلهم عليه .

قال : يايزيد ، انقطع منك الرجاء ، أظنك ستخالف هؤلاء ، جميعا ، فتقتلُ خيارَ قومك، وتغزو حُرَمَ ربك بأوباش[1] الناس ، فتطعمهم لحومهم بغير الحق فتدركك مر ّته فجأة ، فلا دنيا أصبت ولا آخرة أدركت .

يايزيد ، إذا لم تصب الرشد وتطلع ذا الحق فإنى قد أوطأت لك المنابر ، وأذللت لك أهل العز ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وكفيتك الرحلة والترحال ، وجمعت لك مالم يجمع واحد ، وإنى لست أخاف أن ينازعك فى هذا الأمر إلا ثلاثة نفر ، الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

فأما ابن عمر [٤٨] فرجل وقَذَته العبادة ، وتخلّى من الدنيا وشغل نفسه بالقرآن، ولا أظنه يقاتل إلا أن يأتيه الأمر عفوا ، وأما الذى يجثم جثوم الأسد ، ويروغ رَوَغان الثعلب ، وإن أمكنته فرصة وثب فابن الزبير ، فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطِّعْه إرَباً إربا إلا أن يلتمس منك صلحا ، فإن فعل فاقبل منه ، واحقِن دماءقومِك تُقبِل قلوبُهم إليك ، وأما الحسين بن على فإن له رحما وحقا وولادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أظنّ أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه عليك ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو كنت صاحبه لعفوت عنه .

* * *

وحدثونا ، أنه كان عند معاوية خمسة رَهْط حين حضرته الوفاة ، الضَحاك ابن قَيْس الفِهرىّ ، ومسلم بن عُقبة المرّى ، وثَوْر بن مَعنْ السلمىّ ، وزياد بن عمرو ابن معاوية العُقَيلى ، والنعمان بن بَشير الأنصارى ، فقال :

« بلّغوا يزيد عنى السلام ، وقولوا له : انظر أهل الحجاز فإنهم قومك وعشرتك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وصِلْ من غاب ، وانظر أهل الشام فإنهم جندك ، فأكرمهم ، وإذا هاجك هَيجٌ فارْمِه بهم ، فإن فتح عليك فارْدُدهم إلى بلادهم ، فإنهم إن يسكنوا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

(١) أوباش الناس هم الرعاع الذين لا تنتظمهم غاية .

وزعموا أنه كان يُحَوَّل فى مرضه الذى مات فيه ، وهو يقول : إنكم لتحوّلُون جَسَدًا حُوّلاً قُلَّبا [٤٩] إن ينجُ من النار غدا فهو الرجل كل الرجل ، وله يوم من ابن الأدبر طويل (يعنى حُجْرًا وأصحابه) .

ثم أنشد :

لَقَدْ جَمَعْتُ لَكُمْ مِنْ جَمْعِ ذِى حَسَبٍ ... وَقَد كَفَيتُكُمُ التَّرْحَالَ والنَّصَبَا

وابن الأدبر حجر بن يزيد الكندى .

فلما مات معاوية ، فدفن ، دخل زياد بن عمرو العُقيلى على يزيد ، فقال :

— يا أمير المؤمنين ، مضى ابن أبى سفيان فَرْدًا لشأنه ، وخُلِّفْتَ ، فانظر بعده كيف تصنع ، أَقِمْنا على المِنْهاج ، واركب محجّة السداد ، فأنت المرتجى والمفزع .

فقال يزيد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إيّاه أستمين، وعليه توكلت، ونعم الوكيل.

***

وصية الربيع بن خُثيم:

وحدثونا عن إسرايل قال ، أوصى الربيع بن خُثيم ، وأشهد الله عليه ، وكفى بالله شهيدا وجازيا لعباده الصالحين ومثيبا ، أنى رضيت بالله ربّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيّا ، وبالقرآن إماما ، وأنى أرضى لنفسى ولمن أطاعنى أن يعبد الله فى العابدين ، ويحْمد الله فى الحامدين وينصح لجماعة المسلمين .

***

وقال هرم بن حيان لما حضرته الوفاة ، وقيل له ، أوصِ .

فقال : لا أدرى ما أوصى ، ولكن بيعوا دِرْعى ، فاقضوا دَيْنى ، فإن لم يفِ فبيعوا فرسى ، فإن لم يتمّ فبيعوا غلامى ، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ، أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إلى . . . لهو خير الصابرين(١) .

---

(١) قوله تعالى: « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

فقال قتادة : أوصى والله بجماع الأمر ، ومن أوصى بما أوصى الله به فقد أبلغ .

***

وصية [٥٠] عبد الملك بن مروان .

قالوا : لما حضر عبدَ الملك بن مروان الوفاةُ دعا بَنِيه ، فأوصاهم ، فقال :

« يابنى ، أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أحصن كهف ، وأزين حلية ، لِيَعطف الكبير منكم على الصغير ، وليَعرف الصغير منكم حقَّ الكبير ، وإياكم والاختلافَ والفرقةَ ، فإن بها هلك الأولون قبلكم ، وذلّ ذوو العدد والكثرة ، انظروا مَسْلمة[٣] فاصدروا عن رأيه ، فإنه جُنَّتُكم الذى به تستجنّون ، ونابكم الذى عنه تفترّون ، أكرموا الحجّاج[٢] فإنه وطّأ[١] لكم المنابر ، وكونوا عند القتال أحرارا ، وعند المعروف منارا ، وكونوا بنى أمّ بَرَرة ، إحْلَولوا فى مرارة ، ولينوا فى شدّة » .

قال : ثم رفع رأسه إلى الوليد ، فقال :

ياوليد ، لا أعرفنّك إذا وضعتنى فى حفرتى تمسح عينيك وتَعصِرها فعلَ الأَمة ، ولكن إذا وضعتنى فى حفرتى فشمِّر واتَّزِر ، والبَسْ جِلْد النَّمِر ، ثم اصعد المنبر ، فادعُ الناس إلى البَيعة ، فمن قال كذا ، فقل كذا .

وأومأ إليه ، من قال : لا ، فاقتله .

ثم بعث إلى خالد وعبد الله ابنَى يزيد بن معاوية فقال :

ـ أتعلمان لِمَ بعثت إليكما ؟

ـ قالا : نعم ، يا أمير المؤمنين ، لتُرِيَنا عافية الله إياك .

ـ قال : لا ولكن لأسألكما ، هل فى أنفسكما من بيعة الوليد شىء ، فأُقيلكما .

ـ قالا : معاذ الله يا أمير المؤمنين .

ـ قال : والله . لو قلتما غير ذلك لضربت أعناقكما .

فقاما ، فخرجا .

---

(١) هو مسلمة بن عبد الملك . (٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الأمويين بالعراق .
(٣) وطأ الحجاج المنابر للأمويين أى ذللها لهم .

فقال لبَنيه ، احفظوا هذه الأبيات عنى :

[٥١] انفُوا الضَّغَائِنَ عَنكُمُ وَعَلَيكُمُ ... عِندَ المَغِيبِ وَفِى حُضُورِ المَشْهَدِ
بِصَلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ طُولَ بَقَائِكُمْ ... إِنْ مُدَّ فِى عُمْرِى وإن لم يُمْدَدِ
وَلِمِثْلِ رَيْبِ الدَّهْرِ أَلِّفَ بَيْنَكُمْ ... بِتَرَاحُمٍ ، وَتَوَاصُلٍ ، وَتَوَدُّدِ
حَتَّى تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَجُلُودُكُمْ ... لِمُسَوَّدٍ مِنكُمْ وَغَيْرِ مُسَوَّدِ (١)
إِنَّ القِدَاحَ إِذَا جُمِعْنَ فَرَامَهَا ... بِالكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وَبَطْشٍ أَيِّدِ (٢)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِىَ بُدِّدَتْ ... فَالوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ

فلما توفى عبد الملك سَجَّاه الوليد بثوبه ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« لم أر مثلها مصيبة ، فَقْد الخليفة ونَيْل الخلافة ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون على أعظم المصيبة ، والحمد لله رب العالمين على أعظم النعمة » .

ثم دعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه ، ولم يختلف عليه أحد .

* * *

وصية الحجاج بن يوسف

وحدثونا عن أبى عبد الرحمن التميمى عن سَيْف عن شيخ ثَقِيف قال فى وصية الحجاج : هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف :

« أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غُفرانك ربّنا ، وإليك المصير ، لا نُفَرِّقُ بين أحد من خلفاء الله ، ولا نتهم الله فى قضائه فيهم ، هم لى أولياء ، وأنا لهم ولىٌّ فى الدنيا والآخرة ، من اتهم الله على قضائه فيهم أو نكث عهده أو عصاه ، أو خلع عطاء الله [٥٢]

(١) المسود هو السيد . (٢) القداح جمع قدح ، وهى العصى الصغيرة ، والأيد : الشديد القوى .

الذى ولّاهم فأنا لذلك عدوّ فى الدنيا والآخرة ، على هذا أحيا ، وعليه أموت ، وعليه أُبعث ، وبه أُخَاصم ، وإن صلاة الحجاج ونسكه ومَحْياه ومماته لله رب العـالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أوّل المسلمين » .

***

وصيّة رجل من أهل الشام

قال أبوحاتم ، وحدثونا عن أبى يعقوب عن ابن عمير ـ يعنى عبد الملك ـ أن رجلا من أهل الشام أوصى ابنه عند موته ، وذكر أنه بلغه أن معاذ بن جبل قال :

« يا بَنِىّ ، أظهروا اليأس مما عنـد الناس فإنه غِـنًى ، وإياكم وطلب الحاجات فإنه فقرٌ حاضر ، وإياكم وما يعتذر منـه من القول والفعل ، وإذا صلّيت يا بُنَىّ فاسبغ الوضوء ، وصَلِّ صلاة مودّع يرى أنه لن يئُوب إلى أهله ، فإن استطعت أن تـكون اليوم خيراً منك أمس ، وغدا خيرا منك اليوم فافعل » .

***

وصية أبى عبيدة بن الجراح

قال أبو حاتم ، وحـدثونا عن لُوط بن يحيى عن عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن سَعيد بن أبى سعيد قال ، لما طُعِن[1] أبو عبيدة بالأردن ـ وبها قبره ـ دعا مَنْ حضره مِن المسلمين ، فقال :

« إنى أوصيكم بوصيّة إن قبلتموها لن تزالوا بخير وبعدها[2] تهلـكوا ، أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وحُجُّوا ، واعتَمِرُوا ، وتواصلوا ، وانصحوا لأمرائـكم ، ولا تُبْغِضُوهم ، ولا تُلْهِـكم الدنيا ، فإن امرءا لو عُمِّرَ ألف حَوْل ما كان له بُدّ من أن يصير إلى مثل مَصْرعى هذا الذى ترون ، إن الله قد كتب الموت على بنى آدم ، فهم ميّتُون [٥٣] وأكيَسُهم أطوعُهم لربّه ، وأعملُهم ليوم معاده ، والسلام عليكم » .

---

(١) أى أصابه مرض الطاعون .   (٢) فى الأصل : بعد ما .

يا مَعاذ بن جبل ، صَلِّ بالناس .

فمات أبو عُبَيدة ، فقام معاذ فى الناس ، فقال :

يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم من ذنوبكم توبة نصوحا ، فإن عبداً يلقى الله تائبا من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له ، ومن كان عليه دين فليَقْضه ، فإن العبد مُرْتَهَنٌ بِدَيْنِه ، ومن أصبح منكم مُهاجِرا أخاه فليصالحه ، فإنه لاينبغى للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، والذَّنب فى ذلك عظيم .

أيها النـاس ، قد فُجِعْتُم برجل ما أرى أنى رأيت عبداً من عباد الله قطّ أبرأ صدراً منه ، ولا أبعد منه غائلة ، ولا أشد حبّا للعافية ، ولا أنصح للعامة منه ، فترحّموا عليه ، رحمه الله ، واحضروا الصلاة عليه ، رحمة الله عليه .

* * *

وصية معاذ بن جبل

قال أبو حاتم ، وحدثونا عن لوط بن يحيي قال ، حدثنى الصَّقْعَب بن زهير عن شَهْر بن حَوْشَب قال : أتى آتٍ مَعاذَ بنَ جبل عنـد موته ، فقال ، أوصنى بما ينفعنى قبل أن تفارقنى ولا أراك ولا ترانى ، ثم لعلّى أحتاج إلى سؤال بعدك فلا أجد فيهم مثلك .

فقال له معاذ : بل صُلَحاء الناس كثير بحمد الله ، ولن يُضَيِّع الله أهل هـذا الدِّين ، خُذْ عَنِّى ما آمرك به ، وأوصيك به ، « كن من الصامتين بالنهـار ، والمستغفرين بالأسحار ، والذاكرين الله على كل حال ، ولا تشرب الخمر ، ولا تَعَقَّنَّ والديك ، ولا تأكل مال اليتيم ، ولا تفرّنّ من الزحف ، ولا تَدَعِ الصلاة المكتوبة ، وصِلْ [٥٤] رَحِمَك ، وانصح لجماعة المسلمين ، وكن بالمؤمنين رءوفا رحيما ، وأنا لك بالجنة زَعِيم » .

ومات رحمة الله عليه ، وصلّى عليه عمرو بن العاص .

* * *

وصية عمر بن عبد العزيز

قال أبو حاتم ، حدثونا عن وصيّة عمر بن عبد العزيز قال ، لما حضرت الوفاةُ عُمَرَ قيل له : اكتب يا أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك فأَوْصِه بالأمر ،

قال ، وبما أوصيه ؟ إنى لأعلم أنه من بنى مروان .

ثم أمر بالكتاب إليه :

« أما بعد ، فاتّق يا يزيد الصَّرْعة على الغَفْلة ، فلا تُقال العثرة ، ولا تقدر على الرجعة ، وتترك ما تتركه لمن لا يحمدك ، وترجع إلى من لا يعذرك » .

قالوا : ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر فى مرضه الذى قبض فيه ، فقال :

« إنك قد أفغَرْت(١) وُلْدَك من هذا المال ، وتركتهم عالة لا مال لهم ، وأنهم لابدّ لهم مما يصلحهم فَأَوْصِ بهم إلىّ وإلى نُظَرائى من أهل بيتك نَكْفِك مئُونتهم ».

فقال عمر : أجلسونى .

فأُجْلِس .

فقال : يا مَسلمَ بنَ عبد الملك ، أما ما ذكرت أنى قد أفغرت أفواه ولدى من هذا المال فتركتُهم عالة لا مال لهم ، فلم أمنعهم حَقًّا هُوَ لهم ، ولست مُعْطيهم حقّ غيرهم ؛ وأما ما سألت من الوَصاة بهم إليك وإلى نظرائك من أهل بيتى فإن وَصِيِّى فيهم ووَلِيِّى اللهُ الذى نزل الكتاب ، وهو يتولّى الصالحين .

يا مَسْلمة بن عبد الملك ، إنما بنو عُمر أحد رجلين ، إما رجل اتقى الله فسيرزقه حتى يقبضَه إليه ، وإما رجل غدَر وفجَر [٥٥] فوالله لا يكون عمر أولَ من قوّاه على معصية الله ، أدعُ لى بَنِيّ .

فدَعَوْهم ، وهم يومئذ إثنا عشر رجلا .

فجعل يُصَعِّد بصره فيهم ، ويصوّبه حتى اغْرَوْرَقت عيناه ، ثم قال :

(١) فغر فاه أى فتحه ، وهو كناية عن المنع والفقر .

« هذا يزعم أنى تركتكم عالة لامال لكم ، بل تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرّون بامرئ مسلم ولا مُعاهد[١] إلّا ولكم عليه حق واجب ، يا بَنِىّ ، إنى مَيَّلْت رأيي فى الدنيا بين أن تفتقروا فى الدنيا وبين أن أدخل الجنة ، أو تستغنوا فى الدنيا وبين أن أدخل النار ، فكان أن تفتقروا فى الدنيا إلى آخر يوم من الدنيا أحبّ إلىّ من دُخول النار طَرْفة عين ، قوموا عصمكم الله ، ورزقكم .

ومسلمة يسمع .

* * *

حدثنا أبو حاتم قال ، وحدثونا عن أبى بكر بن الضحّاك بن قَيْس الفِهْرِىّ قال : شهدنا مع سليمان بن عبد الملك جنازة رجل من قريش ، فجلست قريبا منه ، فأخذ حَفْنة من تراب ، فقبض عليها ، ثم أرسل أصابعه ، وبسط كفّه والتراب فيها ، ثم قال: « إن هذا المِدْفن طيِّب » .

قال : فوالله الذى لا إله غيره ما أتت له جُمْعَة حتى دفنّاه إلى جنب القرشىّ ، ليس بينهما أحد .

* * *

وصية سليمان بن عبد الملك .

حدثنا أبو حاتم قال : وحدثونا عن ابن عَيّاش قال ، أخبرنى حِصْنٌ ، قال : كان سليمان غزا معنا الصائفة[٢] ، فما رأينا رجلا كان أوْرَع ، ولا أحسن صلاة ، ولا أكثر صدقة منه ، قال ، فوالله ، إنى لقائم على رأس سليمان أَذُبّ[٣] عنه بمنديل ، إذ تَشَمّمَ فوجد رائحة .

فقال : ائتونى من هذا الخبز .

فأتوه بثلاثة [٥٦] أرغفة عظام من خبز الفُرْنِىّ[٤] ، فقال :

---

(١) المعاهد هو من له عهد وذمة مع المسلمين من أهل بلاد الفتح .

(٢) الصائفة هى غزوة الروم ، لأن العرب كانوا يغزونهم صيفا لمكان البرد والثلج فى بلادهم شتاء .

(٣) يدفع الذباب .

(٤) هو الخباز .

— ياغلام ، انطلق إلى المطبخ ، فانظر ، هل تصيب لى مُخًّا .

فانطلق ، فنَكَتَ(١) عَظْمًا مما طبخ ، ثم أقبل به فى شَيٍّ(٢) .

فلما رآه قال : ويْلك ، ماهذا ؟ .

فانصرف الغلام ، فما ترك فى المطبخ عظما إلا نكَتَه ، ثم أتى به فى صَحْفة .

قال : فوالله إن وضعه على [يعنى : خِوان](٣) وما وضعه إلا على الأرض ، فأكل تلك الأرغفة الحارة بذلك المُخّ(٤) ، ثم وثب ، فدخل على أم سَلَمة بنت عُمَر ابن سَهْل ، فما نزل عن بطنها إلا وهو مَغْشِىّ عليه .

فأقام يوما وليلة ثم أفاق ، فقال : هو الموت ، عَلَىّ برِجاء بن حَيْوَة الكِنْدِىّ . وكان من أَخَصّ الناس به ، فأتاه .

فقال : ياهذا ، قد ترى مانزل بى من الأمر ، فما رأيك ؟ .

قال : بل يرفع الله صَرْعَتَك يا أمير المؤمنين ، ويُعْلِى كَعْبَك .

قال : أيها الرجل ، هو والله الموت .

قال رجاء : ذلك ما كتب الله على الأنبياء قبلك ، وإن نَقِض فإلى رَوْحِ الله ورحمته إن شاء الله .

فقال : ما شاء الله كان ، ويفعل الله ما يشاء ، من ترى لهذا الأمر يا رجاء ؟

قال : ابنك داود .

قال : كيف ؟ وهو ابن أمّ ولد ، وأهل بيتى لا يرون ذلك .

قال رجاء : فقلت عُبَيد الله بن مروان ، رجل من أهل بيتك .

قال : والله ، ما يستَنْضِجُ الكُرَاعَ(٥) .

قلت : فأخوك سعيد بن عبد الملك .

---

(١) أفرغ ما بداخله . (٢) الشى : اللحم المشوى .

(٣) زيادة تعليق فى هامش المخطوط بخط المؤلف .

(٤) المخ نقى العظم والدماغ ، وخالص كل شىء ، وأمخ العظم صار فيه مخا ، والمخاخة بالضم ما خرج من العظم فى فم ماصه . (٥) الكراع هو مستدق الساعد .

قال : إن كانت أُمُّه لَغَالِبَةٌ على رأيه .

فذا كَرْتُه عمر بن عبد العزيز .

قال : أعُمر ؟

قلت : نعم .

قال : وكيف أصنع بوصية عبد الملك ؟ فإنه أخذ عليّ وعلى الوليد [٥٧] أنّ أيّنا بقي بعد صاحبه أن يعقد لابنَيْ عَاتِكَة(١) ـ يعني يزيد ومروان ـ .

قلت : يا أمير المؤمنين ، بنو أخيك بالباب .

قال : أدْخلهم ، لا قرَّبهم الله .

قال : فدخل أربعة عشر من ولد الوليد ، فسلموا عليه .

فلما نظر إليهم قال : ألكم حاجة ؟

قالوا : يسلمك الله يا أمير المؤمنين .

قال : إذا شئتم .

فلما ولُّوا قال :

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّون أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّون(٢)
إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صِغَارُ أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ كِبَارُ

قال رجاء : قلت يا أمير المؤمنين ، قد أفلح من تزكَّى ، وذكر اسم الله فصلَّى.

قال : نعم ، أستغفر اللهَ .

قال رجاء : يا أمير المؤمنين ، فاعْهد عَهْدا ، وأشْهِد عليه .

ففعل .

فلم يلبث بعد ذلك إلا سبعة أيام حتى هلك .

قال : فخرج رجاء بالكتاب ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) عاتكة زوج عبدالملك بن مروان .

(٢) المراد أن أبناءه صغار ضعاف ، وقد أفلح من كان ولده كبارا وأقوياء .

« هذا عهد أمير المؤمنين ».

فقال يحي بن سعيد بن العاص : وما فيه ؟ :

فنظر إليه رجاء نظرة تكاد تقتلعه من الأرض ، وقال : وما أنت والكلامَ ؟ ثم تأوّل هذه الآية « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » ؛ أى فى عمرو بن سعيد وما كان منه .

فقال رجل ليحيي بن سعيد : مالك والكلام ، والسيف يقطر دما ؟ .

قال : أردت أن استَقْرِىَ ماعند القوم .

قال هشام : لا الآن ، فيه رجل من ولد عبد الملك .

فقال له رجاء : يا أَحْوَل ، ما أنت والكلام ؟

قال : ففضّ الكتاب بعد موت سليمان ، فإنه فيه عمر بن عبد العزيز ، ويَزِيدُ ابن عبد الملك من بعده .

فسلّم ولده ورضوا .

قال ابن عياش ، وأخبرنا ...[1] الصَلْت مولى لبنى أمية قال :

ثم أقبل رجاء إلى عمر بن عبدالعزيز ، وهو فى المقصورة ، فأخذ بيده ، فجعل يتماسكًا .

فقال له رجاء : إن الذى تصنع شرٌّ .

فقال عمر : إن هذا الأمر ما سألته الله فى صلاة ولا سرّ ولا علانية .

فلما انصرف من الجنازة ، وصلى على سليمان قلت ، لأنظرنّ مايصنع .

وكتب فى الآفاق بردّ المظالم ، وعزَل أهلَ بيته عن الأعمال ، وأظهر عزلهم ، ورد مظالمهم ، وكان مقامه بدَابِق[2] شهرين ، ثم انصرف إلى منزله بِدَيْر سَمْعان[3] ، فلم يزل بها إلى أن توفى ، رحمة الله عليه .

* * *

---

(١) محو فى الأصل .   (٢) قرية من أعمال محافظة حلب بالإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة .   (٣) محلة بدمشق ، وقد دفن بها عمر بن عبد العزيز .

فهرس

(ف)

(ق)